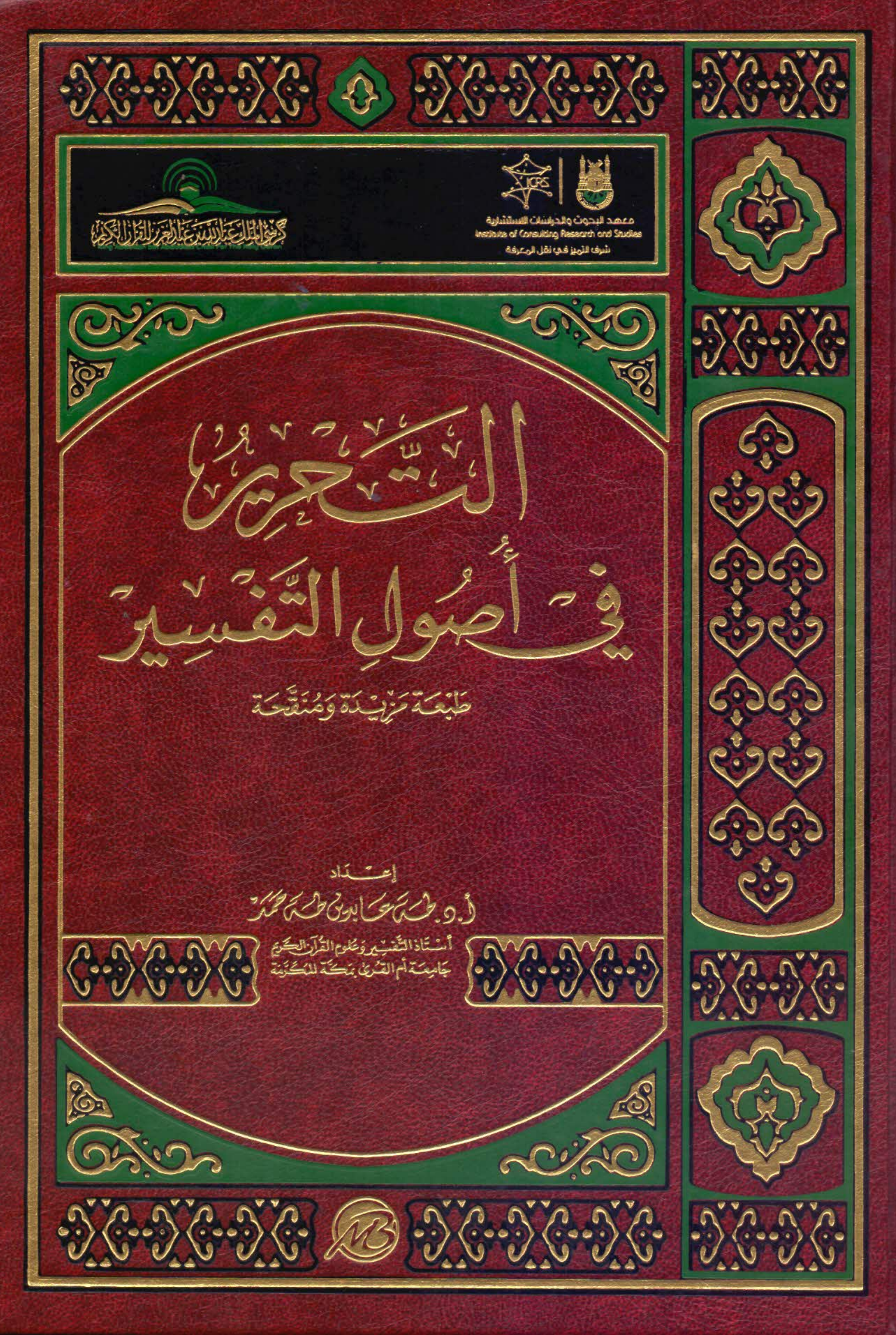


كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم
معهد البحوث والدراسات الاستشارية
Institute of Consulting Research and Studies
شرف التميز في نقل المعرفة
التحرير
في أصول التفسير
طبعة مزيدة ومنقحة
إعداد
أ.د. طه عابدين طه حمد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

ح مكتبة دار المتنبي، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حمد، طه عابدين طه

التحرير في أصول التفسير/ طه عابدين طه حمد - ط٢.-الدمام،١٤٤١هـ

٤٣٢ص ؛ ... سم

ردمك: ٦-٠٠-٨٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٤١/١٧٦

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٧٦

ردمك: ٦-٠٠-٨٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

1441 هـ - 2020 م



المملكة العربية السعودية - مكتبة المتنبي للنشر والتوزيع - الدمام شارع المستشفى العام
تلفون: ٨٤١٣٠٠٠ - ٨٤١١٣٩٥ - فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤ - ص.ب ٦١٠ الدمام - ٣١٤٢١
فرع الرياض - شارع معن بن زايدة - جوال: ٠٥٠٦٩٦٠١٧٤
فرع جدة - شارع الجامعة - جوال: ٠٥٥١١٩٤٧٨٤
E-mail: mb.book.sa@gmail.com

مقدمة الطبعة الثانية:

الحمد لله الذي يهدي من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على البعوث بخير دين، المنزل على قلبه النور المبين، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الصادقين، ومن اتبع نهجهم إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فقد ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى في شهر محرم عام ١٤٣٥هـ، بعد سنوات من التحرير لمباحثه، عالجت من خلاله قصورًا كنت أراه في مباحث مادة أصول التفسير، جمعت فيه ما يسهل هذا العلم على المبتدئين، ويحقق رغبة المختصين والباحثين، فبفضل الله ورحمته كُتب له قبولًا حسنًا، فأثنى عليه بعض الأعلام، وقرره بعض الأساتذة مرجعًا في الجامعات، مما شجعني لمزيد من العناية به.

وقد قمت خلال السنوات الماضية بتدريس الكتاب أكثر من سبع مرات، وقرأت متنه على بعض النجباء من طلابي، وكان هدفي في كل مرة أقرأه العناية بمزيد من التحرير لمحتواه، فجاءت هذه الطبعة منقحة في بعض الصياغات، ومصححة لبعض الأخطاء المطبعية والنحوية، ومدعمة لبعض الأدلة، ومتضمنة لمزيد من الأمثلة والشواهد، ومسجلة بعض الإضافات المهمة والدقيقة في تحرير بعض النقاط، هدفي من كل هذا الجهد أن أصل به إلى مستوى أرفع، وأحقق به نفعًا أكثر في خدمة كتاب الله تعالى، ومع كل ذلك يبقى النقص والعوج منظور، والكمال مفقود، وللقارئ غنمه وللكتاب غرمه، فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد، والإحسان والقبول، وأن ينفعنا به في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

كتبه محرره في غرة شهر ذي القعدة عام ١٤٤٠هـ

بلد الله الحرام - مكة المكرمة، زادها الله شرفاً ورفعة



مقدمة كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم وعلومه بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد شرف الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام، فأنزل عليها القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وتكفل المولى الجليل سبحانه بحفظ كتابه الكريم فقال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

وتحقيقا لوعد الله تعالى، فقد تهيأ الأسباب المعينة على حفظه، وتنوعت المجالات لخدمته، تعلّما وتعلّيما وبحثًا ودراسة وتفسيرًا ورسمًا وطباعة وتوزيعًا ونشرًا، إلى غير ذلك من المجالات.

ولأهمية الدور الريادي الذي تضطلع به المملكة العربية السعودية في خدمة القرآن الكريم، فقد وجّه خادم الحرمين الشريفين وفقه الله بإنشاء كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى، ليضيف صرحًا علميًا بحثيًا ضمن منظومة متكاملة في خدمة القرآن الكريم، والتي شملت المجمّعات القرآنية، وكليات وأقسام القرآن والقراءات بالجامعات، وجمعيات تحفيظ القرآن، ومراكز البحوث والدراسات ونحوها.

وحيث إن «الدراسات القرآنية» بحر ممتد، وأفق واسع، فمجالاتها متعددة، واحتياجها متنوعة، فعلى الرغم مما بذل من جهود علمية، وأطروحات بحثية، كوّنت للأمة رصيدًا كبيرًا من المؤلفات والموسوعات والكتب والأبحاث والرسائل والنشرات والمخطوطات والمطبوعات، إلا أن الإثراء العلمي في المجالات القرآنية باب مفتوح وعطاء ممنوح متجدد في دراساته مع تجدد إعجاز القرآن وتأثيره في القلوب والعقول والأفهام، ورفعة مكانته وعظمة قدره.

ومن هذا المنطق كان هذا الجهد العلمي الذي أعده فضيلة الشيخ أ.د. طه عابدين طه حمد – أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى- وبناء على المنهجية العلمية والمعايير المعتمدة في كرسي الملك عبدالله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى فقد تم تحكيم هذا الإصدار من قِبل المختصين في المجالات القرآنية، وحيث برزت جوانب التميّز العلمي في هذه الدراسة، يطيب لإدارة الكرسي أن تشارك في تقديمه وإخراجه حتى يعم نفعه للمسلمين، سائلين الله تعالى أن يبارك في مؤلِفه، وأن يجزل له الأجر والمثوبة، إنّه سميع مجيب.

مقدمة الكتاب:

الحمد لله الذي أنزل علينا خير كتبه، نورًا وهدى للناس، والصلاة والسلام على المؤيد بمعجزة القرآن الباهرة الناطقة بصدق رسالته عبر الزمان، وعلى آله الطاهرين الأخيار، وعلى أصحابه الصادقين الأبرار، من المهاجرين والأنصار، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم المعاد، أما بعد:

فقد أنزل الله كتابه الفرقان في خير زمان، على خير رسول، إلى خير أمة أخرجت للناس، بخير لسان، وأحكم بيان، وحفظه من الزيادة والنقصان، وأمر عباده بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وبتدبره على مر الدهور والأزمان، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقد عُنِي بتدبر القرآن، وتفسيره، واستنباط أحكامه وحكمه صفوة من العلماء، أظهروا غوامض معانيه، ودقيق أحكامه وهديه، ووجوه بلاغته، وأسرار إعجازه، منذ عهد الصحابة ﷺ إلى يومنا هذا، فأُلِّفت تفاسير كثيرة ومتعددة على مَرِّ العصور الماضية «فمنهم من اقتصروا على تمهيد المعاني، وتشييد المباني، وتبيين المرام وترتيب الأحكام، ومنهم من حاول إظهار مزاياه الرائقة، وإبداء خباياه الفائقة، ليعاين الناس دلائل إعجازه، ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية، والزُبر العظيمة السبحانية، فدونوا أسفارًا بارعة، جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان»[١]؛ حتى أصبحت مكتبة التفسير أعظم مكتبة في العلوم الإسلامية، ولا عجب، فقد كان التفسير أول ما اشتغل به علماء الإسلام قبل الاشتغال ببقية العلوم وتدوينها.

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/٤).

وقد جاءت طرق ومناهج المفسرين في فهم القرآن وتفسيره متنوعة ومختلفة، حملت الكثير من هدايات الكتاب، وحوت الصحيح والسقيم من المعاني، والقويَّ والضعيف من السنن والآثار، ومن هنا تعددت الجهود وتنوعت، ونسبة لهذا التعدد والتباين كان لا بد لكل مهتم بفهم القرآن الكريم من مادة علمية تعرفه بمصطلحات علم التفسير عند علماء هذا الفن، وتمكنه من فهم القرآن الكريم وفق الأسس والأصول العلمية السليمة التي وضعها العلماء وساروا عليها في كتبهم، وكيفية التعامل مع أقوال المفسرين في حالتي الاتفاق والاختلاف وغيرها؛ بما يسهم في صناعة مفسر اليوم، فإن « تعليم العلم من جملة الصنائع، وذلك أن الحَذْقَ في العلم، والتفنن فيه، والاستيلاء عليه؛ إنما هو بحصول مَلَكَة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه المَلَكَة لم يكن الحَذْقَ في ذلك الفن المتناول حاصلًا »[(١)]، وقد وضعت هذا الكتاب من أجل تحقيق ذلك الهدف العام، وأهداف تفصيلية يمكن إجمالها **في الآتي:**

أولًا: إدراك مكانة علم التفسير وأهميته، والصعوبات التي تقف في طريق المتعلمين له، حتى يقبلوا على تعلمه بثقة تدفعهم إليه، وبوعي يجنبهم عقبات تعلمه.

ثانيًا: تعريف طلاب العلم -خاصة المبتدئين- بمصطلحات علم التفسير، الذي يعتبر الأساس في دراسة تفسير القرآن وفهمه والتعامل مع مصادره.

ثالثًا: الوقوف على واقع التفسير في عهد النبي ﷺ، وعند أهل القرون المفضلة، من حيث قيمته، ومميزاته، ورجاله، ومصادره، وكيفية الاستفادة منه؛ لأنه يمثل القاعدة التي ينطلق منها كل من أراد أن يفهم القرآن فهمًا سليمًا.

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص:٢٤٦).

رابعًا: توضيح الطرق الصحيحة والمثلى لتفسير القرآن الكريم، واستنباط ما فيه من حِكَمٍ وأحكام، بما يسدد المقبلين على فهمه، ويؤمِّنهم من الخطأ والزلل، ويجعل لهم بصيرة في فهم القرآن الكريم وفق منهاج راشد، بما يراعي قواعد وضوابط السابقين، ويواكب روح عصرنا ومتطلباته.

خامسًا: معرفة الطرق السليمة في توظيف علوم القرآن في دراسة التفسير، وهي تمثل خارطة ذهنية لأهم مداخل علم التفسير.

سادسًا: الوقوف على اختلافات المفسرين: أسبابها، وأنواعها، ومنهج التعامل معها، بما يُمكن طلاب العلم من الاستفادة من جهود علماء الأمة بطريقة سليمة تجنبهم جوانب الخطأ والزلل.

سابعًا: بيان أقسام التفسير وأساليبه، وكيف أثرت هذه الأقسام والأساليب في الجهود التي بذلها العلماء في فهم القرآن الكريم وتدبره، مع معرفة الطرق الخاطئة في التفسير، التي وقعت فيها بعض الطوائف والطرق، وعدم التأثر بما في بعض كتب التفسير من انحرافات ومزالق.

ثامنًا: إدراك اتجاهات المفسرين العقدية، والفقهية، والكلامية، واللغوية وغيرها، وكيف أَثْرَت هذه الاتجاهات المتنوعة في مكتبة التفسير في عصوره المختلفة.

تاسعًا: معرفة اتجاهات مداخل التفسير عند المفسرين، ومميزات كل اتجاه، وكيفية الاستفادة من تلك الجهود في دراسة القرآن الكريم وفهمه.

عاشرًا: الإلمام بالخطوات العملية التي ينبني عليها الدرس التفسيري.

وقد حررت هذا الكتاب بطريقة غير تلك الطرق التقليدية في التأليف لهذه المادة، إذ غالبها يكرر بعضها بعضا، وتتداخل مباحث هذا العلم مع مباحث أخرى من مناهج المفسرين، وقواعد التفسير، وعلوم القرآن، فجعلته مدخلًا أساسيًا لدراسة علم

التفسـير؛ يُمكِّن طلبة العلم والباحثين فيه من السـير في تعلمه على بصـيرة من أمرهم؛ لأن الذي يهم المسـلم من ذلك التوصـل إلى منهج قويم لفهم القرآن الكريم، والإفادة الصـــحيحة مما كتبه العلماء حول معاني القرآن الكريم؛ وذلك لأن في تلاوته حق التلاوة، وفهمه حق الفهم، والعمل به كما أنزل تحقيقًا لخيرية هذه الأمة، فهو دسـتور الأمة وقائدها في الحياة، وسـبيلها إلى النجاح والنجاة. قَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ [(١)]: ((مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَفْسِـيرَهُ، كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلَتْهُمْ رَوْعَةٌ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمِصْبَاحٍ فَقَرَءُوا ما في الكتاب))[(٢)].

وحاجة الأمة اليوم لفهم القرآن الكريم مسـتمرة وزائدة؛ لأن الحاجة إلى الهداية بأحكامه، والاسـتزادة من حِكَمِه باقية مسـتمرة، خاصـة والقرآن حِكَمه لا تنتهي، وعجائبه لا تنقضـي، والحاجة للتعريف بأصـوله كبيرة في زمان كثر فيه الانحراف والتبديل، وضعفت آليات الفهم والمعرفة بأساليب العرب في الخطاب.

وقد وضـع العلماء كتبًا في أصـول التفسـير تعين على فهم القرآن وفق قواعد ثابتة، وضـوابط واضـحة، ولا أقلل من قدرها؛ ولكن قد جاء هذا الكتاب جامعًا محررًا لخلاصـة ما كتب في هذا الباب، في اختصـار غير مخل، وتطويل غير ممل، في عبارة

---

(١) هو: إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو واثلة البصـري قاضـيها، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، ولجده صـحبة، روى عن أنس، وسـعيد بن المسـيب، وسـعيد بن جبير وغيرهم، قال بن سـعد: كان ثقة وله أحاديث، وكان عاقلا من الرجال فطنا، وقال بن معين والنسـائي: ثقة، وقال العجلي: بصـري ثقة، وكان على قضـاء البصـرة، وكان فقيها عفيفا، مات سـنة ١٢٢هـ. انظر: الثقات لابن حبان (٤/٣٥)، وتهذيب التهذيب (١/٣٤١)، والأعلام لخير الدين الزركلي (٢/ ٣٣).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١/١٥).

واضحة، ونقاط متسلسلة، ومباحث جديدة لم أسبق إليها [(١)]، وهي تتلخص في خمسة فصول، وتحت كل فصل عدد من المباحث، وفي كل مبحث عدد من المطالب، **جاءت على النحو الآتي:**

المدخل: وهو تمهيد في التعريف بعلم أصول التفسير، وفوائده، وأهم المصنفات فيه.

الفصل الأول: علم التفسير أهميته، وصعوبات تعلمه، ومصطلحاته.

المبحث الأول: شرف علم التفسير وأهميته.

المبحث الثاني: صعوبات في تعلم التفسير.

المبحث الثالث: التعريف بمصطلحات علم التفسير.

الفصل الثاني: التفسير في القرون المفضلة.

المبحث الأول: التفسير النبوي للقرآن الكريم.

المبحث الثاني: تفسير الصحابة ﭫ للقرآن الكريم.

المبحث الثالث: تفسير التابعين للقرآن الكريم.

الفصل الثالث: الطرق المثلى لتفسير القرآن، وتوظيف علوم القرآن في خدمة التفسير، وفقه التعامل مع اختلافات المفسرين.

المبحث الأول: الطرق المثلى في فهم القرآن الكريم وتفسيره.

المبحث الثاني: أهمية علوم القرآن وطرق توظيفها في خدمة القرآن.

المبحث الثالث: كيفية توظيف علوم القرآن في التفسير.

---

(١) ولا أقول هذا الكلام من باب الإطراء أو التزكية للنفس، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين؛ ولكن أقوله من باب إظهار محاسن هذا الجهد الذي أخذ مني سنوات في التحرير - وهو جزء من مشروع كبير أعمل فيه أسأل الله التوفيق - واقتداء ببعض العلماء في مؤلفاتهم، لقناعتي أنَّ الكتاب الذي لا يضيف معارف جديدة لا ينبغي تقديمه للقراء، ووضعه في المكتبة الإسلامية.

المبحث الرابع: اختلافات المفسرين ومنهج التعامل معها.

الفصل الرابع: أقسام التفسير، واتجاهاته، وأساليبه.

المبحث الأول: أقسام التفسير.

المبحث الثاني: اتجاهات التفسير.

المبحث الثالث: أساليب التفسير.

الفصل الخامس: مداخل التفسير عند المفسرين وطرق تناوله:

المبحث الأول: اتجاهات مداخل التفسير عند المفسرين.

المبحث الثاني: المنهج الأمثل في تناول التفسير.

أسأل الله أن يجعله علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وجهدًا متقبلًا في خدمة كتابه المجيد، فما كان فيه من حق وخير فبفضل الله ورحمته، وما كان فيه من خطأ وتقصير فمن نفسي والشيطان، والحمد لله على توفيقه وإحسانه.

كتبه العبد الفقير لربه، الغني بفضله

الأستاذ الدكتور: طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة

أم القرى بمكة المكرمة بلد الله

الحرام في غرة محرم ١٤٣٥هـ

مدخل في التعريف بأصول التفسير، وغايته، وأهم المؤلفات

المطلب الأول: التعريف بأصول التفسير.

المطلب الثاني: غاية علم أصول التفسير وفضله.

المطلب الثالث: جهود العلماء في خدمة أصول التفسير.

المطلب الأول

التعريف بعلم أصول التفسير

أ - التعريف بمفردات المركب الإضافي: «أصول التفسير»

علم أصول التفسير مركب إضافي من كلمتين (أصول) و(التفسير).

الأصول في اللغة: جمع أصل، وأصل الشيء أساسه، ومبدؤه، وما ينبني عليه غيره، وقيل ما يُفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى غيره، ورجل أصيل له أصل، ورأى أصيل له أصل، ورجل أصيل ثابت الرأي عاقل[١].

وعرفه الجرجاني رحمه الله اصطلاحًا بأنه: «عبارة عمَّا يُبْنَى عليه غيره، ولا يُبْنى هو على غيره. والأصل: ما يثبت حكمه بنفسه ويُبْنى عليه غيره»[٢].

والتفسير في اللغة: من فَسَرَ: والفَسْرُ: البيان، والتوضيح، والكشف والشرح. فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكسر، ويَفْسُرُه بالضم فَسْرًا وضَّحَه وشرحه وبينه، ومنه لفظ مفسَّر، وفَسَّرَ آيات القرآن شرحها، ووضَّح ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام، والتَّفْسِيرُ مثله؛ والفَسْرُ: كشف المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل، واسْتَفْسَرْتُه كذا أَي سأَلته أَن يُفَسِّره لي، وكل شيء يُعْرفُ به تفسير الشيء ومعناه فهو تَفْسِرَتُه[٣].

وقد عرف التفسير في الاصطلاح بعدد من التعريفات، سوف يأتي الحديث عنها بتفصيل في الكلام عن مصطلحات علم التفسير؛ ولكن من أجمعها: تعريف الزركشي

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة (أصل)، (١١/١٦).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص:٣٢).

(٣) المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون (١/٦٨٨)، والتوقيف على مهمات التعريف، لعبد الرؤوف المناوي (ص:١٩٢).

رَحِمَهُ اللَّهُ: ((علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه))(١).

وهذا - لا شك - على قدر طاقة البشر(٢)، وتمكنهم من العلوم التي تساعد وتعين على فهمه، من علم اللغة، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ونحوه؛ لأن كلام الله تعالى فوق طاقة البشر الإتيان بمثله أو الإحاطة بمعانيها، ولهذا قال بُنْدَارُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْفَارِسِيُّ عند ما سأل عَنْ مَوْضِعِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ: ((الْقُرْآنُ لِشَرَفِهِ لَا يُشَارُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا وَكَانَ ذَلِكَ الْمَعْنَى آيَةً فِي نَفْسِهِ، وَمَعْجَزَةً لِمُحَاوِلِهِ، وَهُدًى لِقَائِلِهِ، وَلَيْسَ فِي طَاقَةِ الْبَشَرِ الْإِحَاطَةُ بِأَغْرَاضِ اللَّهِ فِي كَلَامِهِ وَأَسْرَارِهِ فِي كِتَابِهِ، فَلِذَلِكَ حَارَتِ الْعُقُولُ وَتَاهَتِ الْبَصَائِرُ عِنْدَهُ)) (٣).

ب - التعريف بعلم أصول التفسير في الاصطلاح:

هنالك عدة تعريفات لعلم أصول التفسير اصطلاحًا، وكلها تتفق على أنه علم يهتم ببيان الأصول والمعالم التي يقوم عليها فهم القرآن وتفسيره وفق ما وضعه العلماء من أصول، وكليات، وضوابط، وقواعد، مع معرفة كيفية الأخذ من تفاسير العلماء والتعامل مع اختلافاتهم بما يوفق للحق والصواب، والابتعاد عن الأقوال الشاذة والمنحرفة.

وقد عرفه الأستاذ الدكتور فهد الرومي بقوله: ((هو القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير)). أو هو ((العلم الذي يتوصل به إلى الفهم الصحيح للقرآن ويكشف الطرق المنحرفة أو الضالة في التفسير)) (٤).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣).

(٢) كما أضاف ذلك الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في تعريف التفسير (٢/٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٠).

(٤) بحوث في أصول التفسير (ص:١١).

وعرفه: الأستاذ الدكتور مساعد الطيار بقوله: ((هي الأسس والمقدمات العلمية التي تعين في فهم التفسير، وما يقع فيه من اختلاف، وكيفية التعامل معه)) (١).

فالأستاذ الدكتور فهد الرومي حصر هذا العلم في الأسس والأصول التي يقوم عليها علم التفسير، وأخرج بهذا المقدمات، وكذلك ما يعين من علوم في التعامل مع اختلافات المفسرين، والأستاذ الدكتور مساعد الطيار أضاف المقدمات التي تعين في فهم التفسير، وما يقع فيه من اختلاف وكيفية التعامل معه، وهذا كلام جميل يصدقه الضرورة وواقع المؤلفات التي كتبت في أصول التفسير، ولكن الرومي جعل هذه الأسس يقوم عليها علم التفسير، والطيار جعلها تعين في التفسير، وهي في الحقيقة أصول يقوم عليها علم التفسير، وليس فقط مجرد معينة.

وفي حدود بحثي واطلاعي لم أجد تعريفًا للسلف لمصطلح علم أصول التفسير؛ والذي نختاره هو: ((المقدمات والأسس العلمية التي ينبني عليها فهم وتفسير القرآن الكريم، وكيفية الاستفادة من أقوال المفسرين، والتعامل معها عند الاختلاف)).

فالمقدمات: ليشمل هذا العلم المقدمات التي لا بد منها لدارس علم التفسير، مثل: ((شرف علم التفسير وأهميته، وصعوبات تعلمه، ومصطلحاته، وكيفية توظيف علوم القرآن في التفسير.

والأسس: ليشمل الأسس العلمية التي ينبني عليها فهم القرآن وتفسير القرآن، مثل: دراسة التفسير في القرون المفضلة، وطرق فهم القرآن، ومعرفة أقسام التفسير.

التي ينبني عليها فهم وتفسير القرآن الكريم: لأنه بدون هذه العلوم لن نستطيع التوصل لفهم سليم، وتفسير مستقيم للقرآن الكريم، ونميز كذلك الطرق المنحرفة في التفسير؛

---

(١) فصول في أصول التفسير (ص:١١).

لأن ذلك من لوازم معرفة الطرق الصحيحة، وأدخلنا الفهم لأن هذه الأسس توصل كذلك لفهم سليم وإن لم يسبق ذكره عند المفسرين.

وكيفية الاستفادة من أقوال المفسرين: وذلك بعد معرفة ما بينهم من تباين في مناهجهم، واتجاهاتهم، وأساليبهم، ومداخلهم، وكيفية تناولهم للتفسير، وهذه علوم لا بد منها للاستفادة من أقوالهم بطريقة سليمة.

والتعامل معها عند الاختلاف: أي: كيفية التعامل مع أقوال المفسرين عند اختلافهم، في حالتي اختلاف التنوع والتضاد، وفي الاختيار والترجيح والاستدراك والتعقبات وغيرها.

وكما تباينت أقوال العلماء في تحرير مصطلح أصول التفسير، كذلك تباينت محتويات كتب أصول التفسير في موضوعاته، قديمًا وحديثًا بسبب الاختلاف في أهداف التأليف وما الناس في حاجة إليه، وبسبب اختلاف العلماء في تحرير مصطلح علم أصول التفسير، فبعضهم اكتفي ببعض موضوعات أصول التفسير، وبعضهم أدخل فيه الحديث عن مناهج المفسرين، وبعضهم أدخل فيه كثيرًا من مباحث علوم القرآن، وبعضهم ضمن موضوعاته قواعد التفسير. فنجد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تكلم في كتابه مقدمة في أصول التفسير بصورة بارزة فقط عن نقطتين، الأولى: في اختلافات المفسرين والتعامل معها، والثانية: في أصح طرق التفسير، بينما نجد الأستاذ الدكتور فهد الرومي في كتابه بحوث في أصول التفسير ومناهجه تكلم عن نشأة علم التفسير ومراحله حتى في عهد التدوين، وتكلم عن إعراب القرآن، وغريب القرآن، والوجوه والنظائر، وقواعد مهمة يحتاج إليها المفسر، بما لا يتفق معه أنها تدخل في أصول التفسير بمصطلحه المحرر؛ وذلك إذا أخرجنا الفصل الأخير الذي جعله في أهم المؤلفات في التفسير ومناهجه؛ لأنه تضمنه عنوان الكتاب، ونجد الشيخ

الدكتور محمد لطفي الصباغ في كتابه بحوث في أصول التفسير جمع فيه بين علوم القرآن، وقواعد التفسير، ومناهج المفسرين، وأنا لا أريد تتبع العلماء الأفاضل فيما أدخلوه وأخرجوه وأنصب نفسي حكمًا على أعمالهم؛ لأن لكل واحد منهم وجهة نظره التي بنى عليها محتوى كتابه، ولست مكلفًا بالحكم على جهودهم المباركة، وهي كتب نفع الله بها لا أُقَلِل من شأنها، وقد حازوا التفضيل بسبقهم وتقدمهم، جزاهم الله خيرا؛ لكني حاولت أن استوفي في هذا الكتاب أهم موضوعات أصول التفسير ومكملاتها [(١)] بما ظهر لي بعد الدراسة والتدريس والمراجعة لأكثر من ربع قرن من الزمان، وحاولت فصل هذا العلم في موضوعاته عن مناهج المفسرين، مع ما يلزم أحيانًا من التداخل؛ ولذا تحدثت فقط عن التفسير في القرون المفضلة؛ لأنها تمثل أسسًا ومبادئ هذا العلم، كما أني فصلت قواعد التفسير مع تداخلها لما لها من خصوصية وتميز تحتاج أن تفرد بتأليف خاص، يتضمن القواعد محررة، ومن قال بها، وأدلتها، وتطبيقات العلماء لها، مع العلم أنها من العلوم المهمة في مقدمة دراسة هذا العلم بعد معرفة أصوله، كما أني أخرجت علوم القرآن، واكتفيت ببيان طرق توظيفها بصورة عامة، وفي التفسير بصورة خاصة؛ لأن هذا هو المهم هنا لطلاب العلم، ثم بعد ذلك يتوجه لدراسة علوم القرآن بتفصيل كامل وفق ما جمعه العلماء في كتب علوم القرآن الكريم.

وهذا العمل أراه جهدًا متواضعًا لا أدعي فيه الكمال ولو في نقطة واحدة من مباحثه، مع أني بذلت فيه غاية الجهد، وبَعْدَ أن حررتُ محتوى هذا الكتاب، حكمتُ جزءًا من مباحثه في أقوى وأعرق الجامعات، وعرضته بعد تحريره في كتاب

---

(١) وقلت مكملاتها؛ لأن هنالك مباحث قد لا تكون من صميم موضوعات أصول التفسير، لكنها مكملات لا تتم المادة العلمية للكتاب بصورة مفيدة إلا بالإلمام بها.

كامل على عدد من أهل التميز في هذا الشـــأن، فاســـتفدت جدا من ملاحظاتهم جزاهم الله خيرا، ثم حُكم الكتاب مرة أخرى من الجهة التي تبنت طبعه وإخراجه[١]، جزاهم الله خيرًا، فوجدت من المحكمين الفاضلين كل تأييد وإشادة، مع ما ذكراه من ملاحظات قيمة ودقيقة حاولت قدر الإمكان الاستفادة منها، كل ذلك جهد أخذ مني الكثير من الوقت، رجاء أن يخرج هذا الكتاب (التحرير في أصول التفسير)، محررًا في مصطلحه، وموضوعاته، ومحتوى كل موضوع بصورة مرضية للمختصين، وقد تجنبت التكرار في الموضوعات والأمثلة إلا ما دعت إليه الحاجة في مبحثين، الأول: في كيفية توظيف علوم القرآن الكريم في خدمة التفسير، والثاني: في كيفية تناول التفسير، لضرورة ذلك في بعض النقاط، وحتى ما حدث من تكرار في هذين المبحثين لبعض النقاط؛ إلا أن المحتوى في كل موضع جاء مختلفًا عن الآخر بصورة كبيرة.

وفي الختام: نسأل الله أن يكون هذا الجهد نافعًا مباركًا لكاتبه، وقارئه، والعالمين، خالدًا أثره إلى يوم الدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه. والحمد لله أولًا وآخرًا على توفيقه وتيسيره ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨).

---

(١) وهو كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود للقرآن الكريم وعلومه بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة، زادها الله شرفًا وزاد أهلها طهرًا من عدد من المحكمين ذات التميز في تخصص الدراسات القرآنية.

المطلب الثاني

غاية علم أصول التفسير وفضله

أولًا: غاية علم أصول التفسير:

لكل علم من العلوم أصوله التي ينبني عليها، وغايته التي يهدف إليها، فعلم التجويد مثلًا يهدف إلى: تجويد النطق الصحيح لألفاظ القرآن، وعلم الرسم يهدف إلى: تجويد كتابة ألفاظ الوحي، وعلم اللغة يهدف إلى: عصمة اللسان والبنان من اللحن في لغة القرآن الكريم، وعلم أصول التفسير غايته: بيان أصح الطرق في فهم القرآن الكريم وتفسيره، وفق أسس علمية صحيحة ثابتة، ومنهج سديد راشد، مع بيان المنهج الأمثل للاستفادة من جهود العلماء التي مرت عبر التاريخ في بيان معاني وأسرار هذا الكتاب المجيد.

فمعرفة أصول التفسير التي ينبني عليها المعنى، وتطبيقها بصورة صحيحة هي الغاية من دراسة هذه المادة، وهو الدافع من وراء كل ما كتب في هذا العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمته القيمة في أصول التفسير: ((فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل، فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود))[١].

ولما كان علم أصول التفسير أحد مباحث علوم القرآن المهمة أطلق بعض العلماء على علوم القرآن مسمى ((أصول التفسير)) من باب إطلاق الجزء على الكل، وإظهارًا

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/٣٢٩).

لأهميته وغايته، فهو علم يؤسس طلاب العلم للدخول إلى علم التفسير وفق منهج علمي راسخ، يبصرهم الطريق السليم ويجنبهم الطرق المنحرفة المعوجة.

ثانيًا: فضل علم أصول التفسير:

شرف كل علم بشرف موضوعه، وغايته، وشدة الاحتياج إليه، وعلم أصول التفسير حائز لجميعها، فإن موضوعه هو كلام الله تعالى، خير الكلام وأشرفه وأعذبه وأصدقه، وأعدله وأبينه، وغايته هي فهم القرآن العظيم المشتمل على الهدى والحكمة، والشفاء والرحمة، فهو سبيل رضا الرحمن، والترقي في درجات الكمال؛ إذ كيف يهتدي به من كان لفهم أصوله جاهلًا، وعن مناهج علمائه غافلًا.

وشدة الاحتياج إليه ظاهرة؛ فإذا كان « الصحابة رضي الله تعالى عنهم على علو كعبهم في الفصاحة، واستنارة بواطنهم بما أشرق عليها من مشكاة النبوة كانوا كثيرا ما يرجعون إليه بالسؤال عن أشياء لم يعرجوا عليها، ولم تصل أفهامهم إليها؛ بل ربما التبس عليهم الحال ففهموا غير ما أراده الملك المتعال، كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود، ولا شك أنا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة »[(١)]، لأننا في حاجة ماسة اليوم إلى ما ييسر علينا فهم كتابه، من طرق صحيحة راشدة، وأسس سليمة راسخة، ومنهج على درب الهدى قائم؛ فلذا كان علم أصول التفسير من أشرف العلوم قصدًا، وأكثرها نفعًا.

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١/ ٤).

المطلب الثالث

جهود العلماء في خدمة أصول التفسير

لا يوجد مرجع واحد حوى جميع مباحث مادة أصول التفسير؛ ولكن نجد كتابات العلماء حول موضوعات هذه المادة قد توزعت في ثلاثة أنواع من المصنفات، وهي:

أولًا: كتب التفسير:

جاءت مباحث هذه المادة في عامة كتب التفسير؛ وذلك من خلال مقدمات المفسرين في كتبهم، أو الحديث عن بعض الجزئيات في أثناء التفسير، من هذه الكتب: جامع البيان لابن جرير الطبري، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، وتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وأضواء البيان للشنقيطي، وغيرها كثير.

ثانيًا: كتب علوم القرآن الكريم:

لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن الكريم من الحديث عن مباحث مادة أصول التفسير، التي هي من أهم مفردات علوم القرآن الكريم، من هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر: كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والزيادة والإحسان في علوم القرآن لمحمد بن أحمد بن عقيلة المكي، ومناهل العرفان للزرقاني، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان وغيرها.

ثالثًا: كتب ألفت تحت عنوان مادة أصول التفسير:

هنالك مؤلفات متنوعة جاءت تحت مسمى أصول التفسير، وهي كثيرة ومطبوعة ومنتشرة منها:

١- مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨)، وهي مقدمة جامعة لأصول مهمة تعين على فهم القرآن وتفسيره وبيان معانيه، وترسم المعالم الواضحة في التعامل مع اختلافات المفسرين وتعتبر هي العمدة في الباب.

٢- الفوز الكبير في أصول التفسير ولي الله الدهلوي (ت: .١١٧٦هـ).

٣- الإكسير في أصول التفسير، للشيخ صديق حسن خان القنوجي (ت: ١٣٠٧هـ).

٤- أصول التفسير وقواعده، للشيخ خالد عبد الرحمن العك.

٥- أصول في التفسير، للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

٦- بحوث في أصول التفسير، للشيخ محمد بن لطفي الصباغ.

٧- بحوث في أصول التفسير وقواعده، للشيخ علي البودخاني.

٨- فتح الخبير في أصول التفسير، للشيخ شاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي.

٩- بحوث في أصول التفسير ومناهجه، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي.

١٠- فصول في أصول التفسير، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار.

١١- القول المنير في علم أصول التفسير للقرآن الكريم، للشيخ إسماعيل عنان زين اليمني المكي.

١٢- تفسير القرآن الكريم: أصوله وضوابطه، للشيخ علي بن سليمان بن عبيد العبيد.

١٣- التكميل في أصول التأويل، للشيخ عبد الحميد عبد الكريم بن قربات الفراهي الهندي.

١٤- الدر النثير في أصول التفسير، للشيخ زكي بن خليل بن إبراهيم الحسيني.

١٥- دراسات في أصول التفسير، للشيخ محمد كبير يونس.

١٦- دراسات في أصول تفسير القرآن، للشيخ محسن عبد الحميد.

١٧- التنوير في أصول التفسير، للدكتور عبد السلام مقبل المجيدي.

١٨- دراسات في أصول التفسير ومناهجه أ.د. عمر حمزة.

١٩- دراسات في التفسير وأصوله، للشيخ محيي الدين بلتاجي.

٢٠- علم التفسير أصوله وقواعده، للشيخ خليل رجب حمدان الكبيسي.

وغيرها كثير مما أُلِّف في هذا الباب [١].

---

(١) انظر: دليل الكتب المطبوعة في الدراسات القرآنية، إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي (ص: ٣٩٩).

الفصل الأول: علم التفسير أهميته وصعوبات تعلمه ومصطلحاته

المبحث الأول: شرف علم التفسير وأهميته.

المبحث الثاني: صعوبات في تعلم تفسير القرآن.

المبحث الثالث: التعريف بمصطلحات علم التفسير.

المبحث الأول
شرف علم التفسير وأهميته

المطلب الأول: الاستجابة لأمر الله ﷻ بتدبر كتابه العزيز.

المطلب الثاني: تحقق مقصد القرآن الأول الهداية ونيل الخيرية.

المطلب الثالث: إحياء سنة النبي ﷺ والسلف الصالح مع القرآن.

المطلب الرابع: العصمة من مصائد الشيطان.

المطلب الخامس: السلامة من هجر القرآن الكريم.

المطلب السادس: زيادة الإيمان والهدى.

المطلب السابع: نيل ما ورد في فضل تعلم القرآن من أجر.

المطلب الثامن: تحقيق العلاج الشافي لقضايا الأمة.

المطلب التاسع: تحصيل بركة القرآن بتلاوته وتدبره.

المطلب العاشر: الدخول في شرف خدمة كتاب الله تعالى.

مدخل:

هنالك الكثير من العلوم المهمة في الحياة؛ ولكن أهمُّها على الإطلاق تعلم القرآن الكريم، مصدر الهدى، وآية الرسالة، والعروة الوثقى للباحثين عما به الفلاح الدنيوي، والفوز والنجاة والسعادة الأخروية السرمدية، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل:١-٢].

وعند ما أدركت الأمة فضل القرآن الكريم ظلت تنهل من بحر علومه على مرِّ العصورِ دونَ أن ترتويَ من فيضهِ الزاخر، وينابعه العذبة، مسجلة عجزها من الإحاطة بهداياته الشافية، وعلومه الوافرة، تاركة لذيذ النوم للتمتع بتلاوته وتدبره، ومهاجرة من الأوطان لتعلم جزء من معانيه قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧]، وقال الشعبي رحمه الله: «رحل المسروق إلى البصرة في تفسير آية فقيل له إن الذي يفسرها رحل إلى الشام فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة: في قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١٠٠]، طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب وسيأتي. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ما يمنعني إلا مهابته فسألته فقال هي حفصة وعائشة»[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٧)، وفتح القدير، للشوكاني (١/ ١٤).

ولما كان السبيل إلى تعلم علومه، وفهم دلالاته ومقاصده معرفة تفسيره، اكتسب التفسير أهمية خاصة، ومكانة عالية، فهو أشرف العلوم تعلمًا، وأكثرها نفعًا، وأعظمها أجرًا؛ ويكفي في معرفة فضله أن موضوعه كلام الله، خير الكلام، وغايته فهم مراد الحق المتعالي حسب طاقة العباد، وهو السبيل إلى الحقِّ والهدى والخير والرشاد؛ وهنالك وجوه عديدة تظهر أهمية فهم القرآن وشرف تعلمه من أبرزها ما جاء في المطالب التي ضمها هذا المبحث من خلال مطالبه المتعددة.

المطلب الأول

الاستجابة لأمر الله ﷻ بتدبر كتابه العزيز

أمر اللهُ عبادَه بفهمِ كتابهِ المجيد وتدبره، والأمة آثمة إن لم تستجب لأمر ربها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١-٢]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت:٣]. قال الزركشيُّ رحمه الله: «القرآنُ كلُّه لم ينزله مُنزِّلُه تعالى إلا ليُفْهِمَهُ، ويُعْلَم ويُفْهَم، ولذلك خاطبَ به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون؛ ليدبروا آياتهِ، وليتذكر أولوا الألباب»[1]. وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]. قال القرطبيُّ رحمه الله: «وفي هذا دليلٌ على وجوبِ معرفةِ معاني القرآن» [2]، وقال السَعديُّ رحمه الله: «﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾أي: هذه الحكمةُ من إنزالِه، ليتدبرَ الناسُ آياتِه فيستخرجوا علمَها ويتأملوا أسرارَها وحكمَها، فإنه بالتدبرِ فيهِ والتأملِ لمعانيه، وإعادةِ الفكر فيها مرةً بعد مرة تدركُ بركتُه وخيره، وهذا يدلُّ على الحثِّ على تدبرِ القرآن، وأنه من أفضلِ الأعمال، وأن القراءةَ المشتملة على التدبرِ أفضلُ من سرعةِ التلاوةِ التي لا يحصلُ بها هذا المقصودُ»[3]، وقال ابنُ القيم رحمه الله: «ولهذا أنزلَ اللهُ القرآن ليتدبر، ويتفكر فيه، ويعملُ به، لا لمجردِ التلاوةِ مع الإعراضِ عنه»[4]، وقال في مدارجِ السالكين: «وأما التأملُ في القرآنِ فهو

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص:٧١٢).

(٤) مفتاح دار السعادة، (ص:٢١٥).

تحديقُ ناظر القلبِ إلى معانيهِ، وجمعُ الفكرِ على تدبرِهِ وتعقلهِ هو المقصودُ من إنزالهِ؛ لا مجرد التلاوة بلا فهمٍ، ولا تدبر»[١]، وقال الشوكانيُّ رحمه الله: «وفي الآيةِ دليلٌ على أن اللهَ سبحانه إنَّما أنزلَ القرآنَ للتدبرِ والتفكرِ في معانيهِ؛ لا مجردِ التلاوةِ دونَ فكر»[٢]، وقال الحسنُ البصري رحمه الله: «واللهِ ما أنزلَ اللهُ آيةً إلا أحبَّ أن يُعلمَ فيما أنزلت، وما يَعْنِي بها»[٣]، وقال ابنُ تيمية رحمه الله: «ومن المعلومِ أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فهم معانيهِ دون مجردِ ألفاظهِ، فالقرآنُ أولى بذلك، وأيضًا فالعادةُ تمنعُ أن يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العلمِ كالطبِّ والحسابِ ولا يستشرحوه، فكيفَ بكلامِ الله الذي هو عصمتُهم، وبه نجاتُهم وسعادتُهم، وقيامُ دينهم ودنياهم؟!»[٤].

ولأهميةِ الفهم جاءَت السنة مؤكدة ومبينة على نفس المعنى الذي ذُكِرَ في القرآن الكريم، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِع)[٥] قال النووي رحمه الله: «ينبغي للقارئ أن يكونَ شأنُهُ الخشوعَ والتدبرَ والخضوعَ؛ فهذا هو المقصودُ المطلوب، وبه تنشرحُ الصدور، وتستنيرُ القلوب، ودلائلهُ أكثرُ من أن تحصى، وأشهرُ من أن تذكر»[٦].

فالواجبُ على الناسِ فهم خطابِ الله الموجه إليهم من ربهم، ومعرفةُ الطرقِ السليمةِ

---

(١) (ج١/٤٨٥).

(٢) فتح القدير (٤/٤٣٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٧)، وفتح القدير، للشوكاني (١/ ١٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٣٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن ح رقم ١٣١.

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٢٠).

الموصلةِ لحسن فهمه، وبذلك يتحقق لهم الهدى فلا يضلون، وتكتمل لهم السعادة فلا يشــــقون، كما تحققت للأوائل يوم أن فهموا القرآن وعملوا به، فإن تفريط الأمة في هذا الواجب جر عليها كلَّ بلية وضــــلال، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٤].

المطلب الثاني

تحقق مقصد القرآن الأول «الهداية ونيل الخيرية»

القرآن الكريم قد جمعَ الخيرَ، وهدى في الحياةِ كلِّها للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، فلا يمكن أن ينال هداه وخيريته من كان بعلمه جاهلًا، وعن تدبره غافلًا، ومن اقتصر على الحفظ دون الفهم لم يحقق مطلوبه ومقصوده من تعلم القرآن؛ لأن الفهم السليم سبيل العمل المستقيم، فالمقصدُ الأساس الذي صيغت ألفاظُ القرآن الكريم لأجلِهِ فهم معانيه، ولتهتديَ الأمةُ بهديِهِ في الإيمانِ والعملِ الصالح، للوصولِ لحياةٍ طيبةٍ ونفسٍ مطمئنة. قال ابن تيمية رحمه الله: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، والله سبحانه أعلم»[(١)]، وقال القرطبي رحمه الله وهو يتحدث عمّا ينبغي أن يتصف به أهل القرآن: « ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما قرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا »[(٢)]، وقال ابنُ القيم رحمه الله « فلا شيء أنفع للقلب من قراءةِ القرآنِ بالتدبرِ والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرين وأحوالِ العاملين ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائرِ الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٣/ ٥٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

يزجرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومة؛ والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءةِ القرآن بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبرٍ وتفهم، وأنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصولِ الإيمان وتذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادةَ السلفُ يرددُ أحدُهم الآية إلى الصباحِ، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قامَ بآيةٍ يرددها حتى الصباح وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨][(١)]، فقراءةُ القرآنِ بالتفكرِ هي أصلُ صلاح القلب»[(٢)].

فلا بقاءَ للإسلامِ إلا بفهمِ القرآنِ فهمًا صحيحًا ثم العمل به، فهو أمنُ الأرواحِ وشفاؤها، وغيثُ القلوبِ وربيعُها، ونورُ العقولِ وهداها، وآيةُ الرسالةِ الكبرى، وأساسُ الهدى والرحمة، وبه صلاح الدنيا وفوز الآخرة.

وقد جعلَ الله تدبرَ كتابه من صفاتِ عباده، والإعراضَ عن فهمهِ من صفاتِ أعدائه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان:٧٣]، وقال تعالى عن اليهود: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة:٧٨]. يعني يقرأون الكتاب دون علم بما فيه، قال مجاهد رحمه الله: «إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئًا»[(٣)]، قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، ح رقم ١٣٥٠، والنسائي في سننه ح رقم ١٠٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ٤٩٠٤، والحاكم في المستدرك ح رقم ٨٧٩، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٨٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٣٨١).

وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله هو من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه»[١].

وشبههم الله بالحمار يحمل أسفارا، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]. قال القرطبي رحمه الله: «وفي هذا تنبيه من الله عز وجل لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[٢]، وكانت من صفات الكفار عدم فقه كتابه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ – ٤٦]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٦٤).

المطلب الثالث

إحياءُ سنةِ النبيِّ ﷺ والسلف الصالح مع القرآن الكريم

قد كان هدي النبي ﷺ والسـلف الصـالح مع القرآن الكريم تعلم ما فيه من علم وعمل، فكانوا لا يتجاوزون آيةً إلا بعدَ فهمها؛ بل والعملُ بها. فخيرُ طريقةٍ في التعاملِ مع القرآنِ الكريم ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرام، وما تزال الأمة بخير ما ترسمت هدي نبيّها ﷺ الذي أُمرت بالاقتداءِ به، وقد كان ﷺ يقرأُ القرآنَ بترسلٍ، وتدبرٍ كامل، وكان هذا هو منهج أصحابه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهنَّ والعمل بهن»[(١)]، وجاء عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: كَعُثْمَان بْنِ عفان وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا (أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا)[(٢)]، وعن ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ قال: إَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾؟ قَالَتْ: فَقَالَ: (إِنَّمَا ذَلِك الْعَرْضُ؛ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ)[(٣)]، وعن مسروق رحمه الله قال: «كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة

---

(١) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ص٦١، والطبري في تفسيره (١/٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ١٨٠١، والحاكم في المستدرك (١/٥٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠٨) وفي عدد من المواضع في كتبه، ولم أقف على سنده وتخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب: من سمع شيئًا فلم يفهمه فراجع فيه ح رقم ١٠٠.

النهار)) [١].

وهم قد بيَّنوا منهجهم في تعلمه، وأكدوا عليه في العمل، كما قال ابن مسعود: (لاَ تَهُذُّوا الْقُرْآنَ كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلاَ تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، لاَ يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)[٢]، وعَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: قُلْتُ لاِبْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلاَثٍ. قَالَ: (لأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَأَتَدَبَّرَهَا وَأُرَتِّلَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَهَا كَمَا تَقْرَأُ)[٣]، وعَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ أَلِفًا تَجِدُهُ أَمْ يَاءً (مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أَوْ (مِنْ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ) قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَكُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هَذَا؟ قَالَ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟ إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ)[٤]، ولا يقعُ في القلبِ إلا بفقه معناه، وقال الحسنُ بن علي رضي الله عنهما: ((إن من كان قبلكم رأوا القرآنَ رسائلَ من ربهم فكانوا يتدبرونها

(١) جامع البيان (١/٦٠).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ح رقم ٣٩٠٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ح رقم ٨٨٢٥، قال ابن حجر: " وهذا منقطع بين النخعي والصديق، وأخرج أيضا من طريق إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن الاب ما هو؟ فقال: أي سماء تظلني فذكر مثله. وهو منقطع أيضا لكن أحدهما يقوي الآخر " فتح الباري (٩/ ٤٥٧).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ح رقم ٤٢٣١، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص ٧٤، والآجري في أخلاق حملة القرآن ح رقم ٨٤، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن ص ٢٣٦، وقال محققه أبو إسحاق الجويني: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: ترتيل القراءة واجتناب الهذ وهو الإفراط ح رقم ١٣٥٨.

بالليل، ويتفقدونها في النهار»[١]، وقال مجاهدُ رحمه الله: «أحبُ الخلقِ إلى اللهِ تعالى أعلمُهم بما أنزل»[٢]، وقال الحسن البصري رحمه الله: « أنُزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا»[٣]، وغيرها من أقوال كثيرة جاءت تؤكد منهجهم القائم على العناية بالفهم، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: « إِنَّ الْعَادَةَ الْمُطَّرِدَةَ الَّتِي جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا بَنِي آدَمَ تُوجِبُ اعْتِنَاءَهُمْ بِالْقُرْآنِ - الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِمْ - لَفْظًا وَمَعْنًى؛ بَلْ أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُمْ بِالْمَعْنَى أَوْكَدَ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ أَوْ الْحِسَابِ أَوْ النَّحْوِ أَوْ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ قَرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنَزَّلَ إلَيْهِمْ الَّذِي بِهِ هَدَاهُمْ اللَّهُ، وَبِهِ عَرَّفَهُمْ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ وَالرَّشَادَ وَالْغَيَّ. فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَتَهُمْ فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ أَعْظَمُ الرَّغَبَاتِ؛ بَلْ إذَا سَمِعَ الْمُتَعَلِّمُ مِنْ الْعَالِمِ حَدِيثًا فَإِنَّهُ يَرْغَبُ فِي فَهْمِهِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ مِنْ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ؛ بَلْ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ حُرُوفَهُ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْحُرُوفِ بِدُونِ الْمَعَانِي لَا تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ إذ اللَّفْظُ إنَّمَا يُرَادُ لِلْمَعْنَى »[٤].

والمؤسف حقًا أن كثيرًا من الناس اليوم يقرأ القرآن بلسانه دون أن يعي قلبه معانيه، ويغفلون عن هذه المعاني العظيمة التي مارسها السلف وأكدوا عليها في تعاملهم مع القرآن الكريم.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٢٨).

(٢) تفسير مجاهد (١/ ٣٠)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣٧)، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٢٢).

(٣) مفتاح دار السعادة، (ص: ٢٦٠ -- ٢٦١).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٧).

المطلب الرابع

العصمة من مصائد الشيطانِ

الشـيطان هو عدونا الأكبر في الحياة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٥]، ومن أكبر مصايده صد الناس عن هذا الصراط المستقيم، والهدي القويم كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧]، وقد أضلَّ فرقًا قديمةً وحديثة عن طريقِ فهمِ القرآن الكريم وتفسيرِه، فمنهم من شغلهم بحروفه عن معانيه، ومنهم من جعلهم يحملون معانيه إلى ما يوافقُ أهواءهم؛ لأنَّ القرآنَ لا يستطيعُ أحدٌ أن يغيرَ أو يبدلَ في ألفاظهِ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، ولكن يقعُ التبديلُ والتحريفُ والتغييرُ في فهمِ المعاني، فإنَّ الخوارجَ وأهلَ الأهواءِ ما ضلوا إلا من سوءِ فهمهمِ لمعاني القرآن الكريم، كما جاء في حديث جابر بن عبدالله ﷺ قال: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ. قَالَ: (وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ: (مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)[1]. وفي رواية حذيفة (لا تعيه قلوبهم). قال الإمام النووي ﷺ: «قال القاضي فيه تأويلان: أحدهما: معناه: لا تفقهه قلوبهم، ولا ينتفعون بما تلوا منه، ولا لهم حظ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به، رقم ٦٨٨٠، ٤٠٠٤، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم ١٧٦١، ١٧٦٢.

سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق؛ إذ بهما تقطع الحروف. والثاني: معناه: لا يصعد لهم عمل، ولا تلاوة، ولا يتقبل»[(١)].

فمن هنا تظهرُ أهميةُ المنهجِ القويم الذي كان عليه السلفُ الصالحُ في فهمِ القرآن الكريم دونَ إفراطٍ يُحَمِّلُ النصوصَ ما لا تحتمل، أو تفريطٍ في فهمِ المعاني التي جاءت فيه؛ وذلك من خلال معرفةِ منهج العلماء الراسخين في هذا المجال، وما قعَّدوه من أصولٍ وقواعد وضوابط. ومن رسخت قدمه في فهم القرآن على نهج السلف الصالح كان له ذلك عصمة ووقاية من شياطين الجن والإنس؛ لأنه منبع كل علم هادٍ، وأصل كل حكمة عادلة، وفي القرآن الكريم الشفاء الكامل لكل داء يضعه الشيطان في قلب المؤمن من أمراض الشبهات أو الشهوات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]، قال ابن القيم رحمه الله: «إن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد، والنبوات، ورد النحل الباطلة، والآراء الفاسدة مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانا، فهو الشفاء على الحقيقة من داء الشبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار... وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/١٤١).

الحكمة والموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة »[١].

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٦٥،٦٦).

المطلب الخامس

السلامةُ من هجرِ القرآن الكريم

إنَّ من أعظمِ الذنوبِ التي حذرنا الله منها هجر القرآن والأعراض عنه، ومن أعظمِ أنواعِ هجرِه هجرِ تدبره، وتفهمِ معانيه؛ لأنَّ المقصودَ من تلاوتِه فهمه؛ لأن الفهمَ قائدُ العمل، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾[طه: ٩٩ -١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠]، قال ابن القيم رحمه الله: ((هجرُ القرآن أنواع، ذكر منها: هجرُ تدبرِه وتفهمه، ومعرفةِ ما أرادَ المتكلم به منه))[1]، وقال الشنقيطي رحمه الله: ((إن كلَّ من لم يشتغل بتدبرِ آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحِها، وتفهمها، وإدراكِ معانيها، والعمل بها، فإنه معرضٌ عنها، غيرُ متدبرٍ لها، فيستحقُ الإنكارَ والتوبيخَ المذكور في الآياتِ إن كان اللهُ أعطاه فهمًا يقدرُ به على التدبر، وقد شكا النبيُّ ﷺ إلى ربهِ من هجرِ قومه هذا القرآن، فإن من تلاه بدون فهم فهو واقع في هجرانه؛ لأنه لم يتلُه حق تلاوته التي لا تكتمل إلا بالفهم والعمل، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:١٢١]. فهذه الآياتُ المذكورة تدلُّ على أن تدبرَ القرآن، وتفهمَه، وتعلمَه، والعملَ به أمرٌ لابدَ منه للمسلمين، وأن المشتغلين بذلك هم خيرُ الناس... وإن إعراضَ كثيرٍ من الأقطارِ عن النظرِ في كتابِ الله، وتفهمِه، والعملِ به وبالسنةِ الثابتةِ المبينةِ له، من أعظمِ المناكرِ وأشنعِها، وإن ظنَّ فاعلُوه أنهم على هدى، ولا يخفى على عاقلٍ أن القولَ بمنعِ العملِ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولهﷺ اكتفاءً عنهما بالمذاهبِ المدونةِ وانتفاءَ الحاجةِ إلى تعلمِهما لوجود ما يكفي عنهما من مذاهبِ الأئمة من أعظمِ الباطل،

---

(١) الفوائد (١/ ٨٢).

وهو مخالفٌ لكتابِ الله وســـنة رســـوله وإجماعِ الصـــحابة، ومخالفٌ لأقوالِ الأئمة الأربعة »[١]، فجانب الفهم مهم؛ لأن بدونه يقل ثواب التلاوة، ويؤدي إلى بقية أنواع الهجر، خاصة هجر الإيمان به والعمل بأحكامه.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥٧).

المطلب السادس

زيادةُ الإيمان والهدى

من أعظم أســـباب زيادة الإيمان والهدى تعلم معاني القرآن الكريم والقربِ من بركتهِ وأنواره التي محا الله بها ظلماتِ الجاهلية، قال تعالى في صــفات عباده: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]؛ ولذا قال شـــيخُ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله في قوله ﷺ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[١]. «تعلم حروفهُ ومعانيه، بل تعلم معانيه هو المقصــودُ الأول من تعلم حروفه، وذلك الذي يزيد الإيمان»[٢]. وقال ابن القيم رحمه الله: « فليس شيءٌ أنفعَ للعبدِ في معاشـهِ ومعادِه، وأقربَ إلى نجاتهِ: من تدبرِ القرآن، وإطالةِ التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلعُ العبدَ على معالِم الخيرِ والشـرِ بحذافيرها، وعلى طرقاتهما، وأســبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز الســعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في القلب، وتشـــيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صــورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضــره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصـره مواقع العبر، وتشـهده عدل الله وفضـله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصـفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضـه، وصراطه الموصل إليه، وما لسـالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصـفاتها، ومفسـدات الأعمال ومصـححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النـار، وأعمـالهم وأحوالهم وســـيماهم، ومراتـب أهـل السـعادة وأهل الشـقاوة، وأقسـام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وتعطيه فرقانًا يفرق به بين الهدى والضـلال، والغي والرشـاد، وتعطيه قوة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح رقم ٤٦٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٤).

في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا، وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر...فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه...وتهديهِ في ظلمِ الآراءِ والمذاهبِ إلى سواءِ السبيل، وتصدُّه عن اقتحامِ طرقِ البدعِ والأضاليل... وتثبت قلبَه عن الزيغِ والميلِ عن الحق.. وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره...إلى أن قال: وفي تأملِ القرآن وتدبرِهِ وتفهمِهِ أضعافَ أضعافَ ما ذكرنا من الحكمِ والفوائد»(١).

فهو يزيد الإيمان الذي يتحقق معه زيادة الهدى علمًا وعملا؛ لأن المسلم يقف من خلال تدبره على عظمةِ كلامِ الله وجمالِهِ وحسنه، بصورةٍ تجعله لا يفرحُ قلبُه إلا في رياضِهِ، ولا تطمئنُ نفسُه إلا في حياضِهِ، وصدقَ الحقُ إذ يقول عن الجن عندما سمعوا القرآن وفهموه: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن:١-٢].

(١) مدارج السالكين (١/٤٨٥ ـ ٤٨٧).

المطلب السابع

نيلُ ما ورد في فضل تعلم القرآن الكريم من أجرٍ وثواب

تعلم القرآن الكريم من أعظم القربات لله تعالى، وينال العبد من تعلمه من الأجر والثواب ما لا يجده في تعلم غيره؛ لأنه تعلم لخير العلوم وأزكاها وأرفعها وأنفعها، فهو سببٌ لكلِّ خيرٍ وصلاحٍ، ولا يَكْتَمل ذلك الأجر الذي ورد في أحاديث كثيرة إلا بعد فهم معانيه، كما جاء عَنْ عُثْمَان ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[١]، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلا قَطْعِ رَحِمٍ)؟ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ:(أَفَلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الْإِبِلِ)[٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[٣]، قال الشوكاني ﷺ: «واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدا ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه؛ فإن ذلك هو الثمرة من القراءة »[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح رقم ٤٦٣٩.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب: قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه ح رقم ١٩٠٩.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ح رقم ٤٨٦٧.

(٤) فتح القدير (١/ ١٣).

المطلب الثامن

تحقيقُ العلاجِ الشافي لقضايا الأمة الفردية والجماعية

القرآن الكريم جعله الله شفاء دائما لمشكلات وقضايا أمتنا المتجددة عبر الزمان من خلالِ فهمه وتدبره؛ ومعرفةِ حكمه، والوقوفِ على أسراره، والعملِ بأحكامه، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]. قال ابن القيم رحمه الله: ((فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط؛ أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن))[١]، ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: ((في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة. فهو يصل القلب بالله فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة؛ والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزعات الشيطان.. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير، فهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه منتجا ومأمونا، ويعصمه من الشطط والزلل، وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليما معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي

---

(١) التفسير القيم، لابن القيم (٢/ ٣١).

وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين»[1]. فهو كتابٌ لا تنقضـــي علومه وأســـراره، ولا تنقطع بركته، ولا يخبو نوره، فهو كتابُ الزمانِ مع تجددِه، والمكانِ على امتدادِه، والشـــفاءِ لكلِّ داءٍ مع تنوعهِ على مرِّ العصـــور، قال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٧-٥٨]، فالحاجةُ للقرآن الكريم مع تطور الحياة اليوم وتعقدها من خلال مزيد الفهم لمعانيه مستمرة، بل وزائدة، فهو نور وشفاء ورحمة لا تستغني عنه الأمة في يوم من الأيام، ولا يمكن التوصـلُ لنوره وهداه وشـفائه وخيرِهِ وبركتهِ إلا من خلال فهمه، قال تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩]، قال مجاهد ﵀: «الحكمةُ: فهمُ القرآن»[2]. وقال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ۝١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[النساء:١٧٤-١٧٥]. فهذه أدلة قاطعة في بيان أثر القرآن في هداية الأمة وإنقاذها مما هي فيه، فلا طريقَ للفلاحِ بسـواه، ولا وصـولَ إلى دارِ السـلام إلا على هداه؛ ولذا حثَّ اللهُ كلَّ مســـلمٍ على تدبرِ معاني القرآن الكريم، وتعقلِ دلالاته وهداياته، فهو علم الحاجة إليه اليوم كبيرة لإصلاح واقعنا وحياتنا الفردية والجماعية.

(١) في ظلال القران (٥/٤٣).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/٣٤٠).

المطلب التاسع

تحصيل بركة القرآن بتلاوته وتدبره

قد نص الله تبارك وتعالى في أربعة مواضعَ في كتابه على بركة القرآن، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. وهذا الوصف للقرآن يدل على الخير الكثير، والزيادة، ودوام النفع الحسي والمعنوي بما لا يحصيه العدد، قال أبو حيان رحمه الله ((وبركة القرآن بما يترتب عليه من النفع والنماء، بجمع كلمة العرب به، والمواعظ والحكم، والإعلام بأخبار الأمم السالفة، والأجور التالية، والشفاء من الأدواء، والشفاعة لقارئه، وعده من أهل الله، وكونه مع المكرمين من الملائكة، وغير ذلك من البركات التي لا تحصى))(١).

وقال الرازي رحمه الله: ((قوله تعالى﴿ مُبَٰرَكٌ ﴾ قال أهل المعاني كتاب مبارك أي كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية، وأقول: العلوم إما نظرية، وإما عملية، أما العلوم النظرية، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب، وأما العلوم العملية، فالمطلوب، إما أعمال الجوارح، وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق، وتزكية النفس، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه، والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة... ثم قال: وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية،

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٤/ ٢٠٨).

فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم))[(١)].

ويقول سيد قطب رحمه الله: ((هو كتاب مبارك.. وصدق الله.. فإنه والله لمبارك.. مبارك بكل معاني البركة.. إنه مبارك في أصله، باركه الله وهو ينزله من عنده، ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل.. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير.. ومبارك في حجمه ومحتواه. فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر؛ ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه، وعند غيره من بني البشر؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير، إن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية، وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعافه - عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئا متفردا لا نظير له في كلام البشر.. وإنه لمبارك في أثره، وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابا مباشرا عجيبا لطيف المدخل؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل. ذلك أن به من الله سلطانا، وليس في قول القائلين من سلطان! ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب. وما نحن ببالغين لو مضينا شيئا أكثر من شهادة الله له بأنه

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٦).

(مبارك) ففيها فصل الخطاب! »[١].

فهذه البركة التي نص الله عليها وبين العلماء أنه لا يحصيها العد؛ لأنها بركة توصل لكل خير في الدنيا والآخرة، وتعصم من كل شر في الدنيا والآخرة، ففيه ما يصلح الجسد، ويطهر الروح، ويهدي العقل، ويصلح الفرد والجماعة، ويجمع الكلمة، ويحقق العدل، فعقيدته خير عقيدة، وأحكامه أتم الأحكام، وآدابه أعظم الآداب، وأخباره أصدق الأخبار، وخطابه ألطف خطاب وأحكمه وأبينه؛ ولذا فهو يوصل لأكمل الأحوال في الدنيا والآخرة، بركاته كثيرة لا تحصى. وهي بركة ينالها كلُّ من آمن به، وفهمه، وعمل بهديه في حياته، وتلاه تعلمًا وتعبدًا.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ٩٧).

المطلب العاشر

الدخول في شرف خدمة كتاب الله تعالى

ومن فوائد تعلم التفسير نيل الخيرية في الدين التي نص عليها النبي ﷺ في قوله: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)، وفي رواية أخرى قال: (إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[(١)]، فتعلم القرآن الكريم حفظًا وفهمًا؛ تعلم لأفضل العلوم، وأزكاها، وأرفعها، وأنفعها؛ لأنه يؤهل للدخول في سلسلة العلم بين النبي ﷺ وبين عباد الله في تبليغ الوحي، ونشر نور كتابه في القلوب، مع نيل بركة دعائهم وترحمهم، فمهمة النبي ﷺ الأولى تعليم القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:١٦٤]، وهي مهمة المصطفين من عباده من بعده ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[فاطر:٣١، ٣٢].

وفي الختام أقول: يكفي في شرف التفسير وأهميته أنه أفضل صناعة يتعاطها الإنسان كما قال الإمامُ الأصفهاني رحمه الله: «إنَّ أشرفَ صِناعَةٍ يتعاطاها الإنسانُ: تفسيرُ القرآن؛ بيانُ ذلك أن شرفَ الصِّنَاعَةِ إِمَّا بِشَرَفِ مَوْضُوعِهَا... وَإِمَّا بِشَرَفِ غَرَضِهَا مِثْلَ صناعةِ الطبِّ... لأن غرضَهُ إِفَادةُ الصحةِ... وإما لشدةِ الحاجةِ إليها: كالفقهِ فإن الحاجةَ إليه أشدُّ من الحاجة إلى الطب؛ إذ ما من واقعة من الكون... إلا وهي مفتقرةٌ إلى الفقهِ لأنَّ بِهِ انتظام صلاحِ أحوالِ الدنيا والدين، بخلافِ الطبِّ، فإنَّهُ يحتاجُ إليهِ بعضُ النَّاسِ في بعضِ الأوقاتِ: إذا عُرِفَ ذلك فصناعةُ التفسيرِ قد حازتِ

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح رقم ٤٦٣٩.

الشرفَ من الجهاتِ الثلاثِ:

أما من جهةِ الموضوعِ: فلأن موضوعه كلامُ الله تعالى الذي هو يَنبُوعُ كلِّ حكمةٍ ومعدنُ كل فضـــيلةٍ، فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَكمْ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكمْ، وحُكمُ ما بَيْنَكمْ، لا يَخلَقُ على كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُهُ.

وأما من جهة الغرض: فلأن الغرضَ منه هو الاعتصــامُ بالعروةِ الوُثقى والوصــولُ إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأما من جهة شِــــدَّةِ الحاجةِ: فلأن كلَّ كمالٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ عاجلٍ أو آجلٍ مفتقرٌ إلى العلومِ الشرعيةِ والمعارفِ الدينيةِ وهي متوقفةٌ على العلمِ بكتابِ اللهِ تعالى)) [١].

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (٢/٤٦٥)، لم أجده فيما لدي من كتبه.

المبحث الثاني
صعوبات في تعلم تفسير القرآن الكريم

المطلب الأول: عزة وكرامة الكلام المُفسر.

المطلب الثاني: صعوبات من جهة المصادر المُفَسِّرة.

المطلب الثالث: صعوبات من جهة أدوات المُفَسِّر.

رسم بياني يوضح صعوبات تعلم التفسير



مدخل:

تعلمُ ودراسة التفسير، والتخصصُ في علوم الكتاب المصون ليسَ بالأمرِ السهل، بل ربما كان من أعظم المطالب، قال الحسن البصري ﵀: «علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال»[1]؛وذلك لعدةِ أسباب، تتلخص في الجملة في ثلاثة محاور:

المحور الأول: متعلق بالمصدر المُفَسر.

والثاني: بالمصادر التي فسرت القرآن الكريم.

والثالث: بالأدوات التي لابد أن يمتلكها المفسر.

وهي جوانب العلم بها مهم لطلاب علم التفسير، الذين يريدون أن يهبوا حياتهم لهذا العلم العظيم، أحببنا أن نذكرها ضمن مباحث أصول التفسير التي هي تهدف إلى بناء الأسس المهمة لطلاب التفسير حتى يضعوها نصب أعينهم فيشمروا في طلبهم العظيم، ويعبروا إلى هدفهم السامي عبر هذه الصعوبات بيسر، فإليك بيان هذه المحاور من خلال المطالب الثلاثة التي جاءت في هذا المبحث.

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٣٤٠).

المطلب الأول

عزة وكرامة الكلام المُفَسر

هنالك صعوبات ملازمة للمفسر مهما كان علمه وتجربته في علم التفسير؛ وذلك لعزة وكرامة المصدر المفسر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت:٤١]، فهو كتاب عزيز: لغلبة حجته؛ ولأنه غالب بالفضل لما سواه من الكتب، ولكثرة نفعه وانعدام نظيره، فقد عجز الخلق عن الإتيان بمثله، وعزيزٌ لعزة من تكلم به، وعزة القرآن عنده، ولعزته على من أنزل عليه، وأنزل إليهم؛ إذ فيه هداهم وشفاؤهم، وعزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا أو تحريفًا، أو تغييرًا، من إنسي وجني وشيطان مارد(١).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] أي: عظيم المنافع، كثير الخير، غزير العلم، شريف القدر، كرمه الله تعالى ورفعه على سائر الكتب، وجمع فيه أمهات الحكم والأحكام، وكريم لما حوى لكل ما يحمدُ ويستحسنُ، كريم بمصدره، وكريم بذاته، وكريم باتجاهاته(٢).

قال أبو حيان رحمه الله: «وكريم: وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به »(٣). وعزة وكرامة كلام الله المفَسر ترتبط صعوبته في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: عظمة الكلام المُفَسر:

فهو كلام الله عز وجل، خير الحديث، وأحكمه، وأبينه، فعظمته مأخوذة من عظمة من

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٢١/٤٧٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٦٧)، والبحر المحيط (٧/٤٧٩)، وفتح القدير، للشوكاني (٤/٥١٩)، والتحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٤).

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٨/١٥١)، وفتح القدير، الشوكاني (٥/١٦٠)، تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٩٨).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٢١٣).

تكلم به، فلا أعظم من الله ﷻ، ولا أجل ولا أعظم ولا أقدس من كلامه سبحانه، قال تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه:٤ – ٨]، فهو كلام قد بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الصدق والعدل تمامهما، وفي العلوم شمولها، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

فهو كتابٌ منيعُ الجناب، عالي المكانة، محكمُ الكلمات، واسعُ الهدى، عظيم الأثر، فريد الأسلوب، فهو نور الرسالة وبرهانها، لو لم ييسره اللهُ لعبادهِ ما طاقت ألسنتُهم تلاوتهُ، ولا صدورُهم حفظه، ولا عقولُهم هديه، ولا جوارحُهم تحمُّلَ معانيه، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١]، فهو كلام «لا يتسنى العروج إلى معارجه الرفيعة، ولا يتأتى الرقي إلى مدارجه المنيعة؛ كيف لا وأنه مع كونه متضمنًا لدقائق العلوم النظرية والعملية، ومنطويًا على دقائق الفنون الخفية والجلية، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية، ومحيطًا بمناط الدلائل الأصلية والفرعية، منبئًا عن أسرار الحقائق والنعوت، مخبرًا بأطوار الملك والملكوت، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه يستند معرفة الأشياء، كما هو قد نسج على أغرب منوال، وأبدع طراز، واحتجبت طلعته بسبحات الإعجاز، طويت حقائقه الأبية عن العقول، وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول، يرد عيون العقول سبحانه، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه»(١)، والكلام في هذا يطول، ولا تحتويه السطور، ويكفي في بيان عظمته قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (١ / ٤).



الوجه الثاني: سعة علوم القرآن الكريم:

المفسر يدرس في كلام الله فهو يدرس في كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا تحيط العقول بعلومه، قال ابن أبي الدنيا رحمه الله: ((وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له))[1]، فهو ليس يتعلم في علم اكتملت فصوله، ودونت مباحثه، بل هو علم دوِّن فيه الكثير من المؤلفات التي يحتاج فهمها إلى صبر عظيم، ووقت طويل من العمر، وما زالت هنالك كنوز وأسرار لم تظهر، ومعان لم تستفتح، ودقائق لم تستنبط، وحكم لم تكتشف، وأوجه إعجاز لم تبرز، ولم يفصح بها عالمٌ أو إمام، فهو كتاب وارف الظلال، عذب الينبوع لا ينضب معينه، ولا يمكن الإحاطة بجميع معانيه على وجه الكمال والتمام، قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: ((لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة))[2].

ومن هنا جعل الله تدبره واستخراج علومه مفتوحةً لكل الأجيال فتأخذ من علومه الواسعة بحسب وسعها وما يتيسر لها؛ ولذا عدَّ العلماء كل ما استخرجه الناس من بعد النبي ﷺ والصحابة والتابعين من علوم التفسير ومعانيه.

الوجه الثالث: عِظم القول في القرآن بغير علم:

الكلامُ في تفسير القرآن الكريم هو الروايةُ عن اللهِ المحذر عباده من القول بغير علم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٣٨).

(٢) المصدر السابق (١/٩).

مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظمًا لهذه الشهادة، خائفًا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠] »(١).

وقد نقلت روايات كثيرة عن السلف الصالح في تهيب التفسير، والخوض فيه بدون علم؛ لأنه الرواية عن الله، فمن ذلك: ما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»(٢)، وما جاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله: «أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنا لا نقول في القرآن شيئا»(٣)، وما جاء عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع »(٤)، وعن الشعبي عن مسروق رحمه الله قال:« اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله»(٥).

قال ابن جرير رحمه الله بعد سرد هذه الروايات التي وردت عن السلف وغيرها في مقدمة تفسيره: «معنى إحجام مَن أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من علماء

(١) تفسير القرآن، محمد بن صالح العثيمين (١/ ٢٢).
(٢) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (١/٩٢)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٦٣).
(٣) المصادر السابقة نفسها.
(٤) المصادر السابقة نفسها.
(٥) انظر: جامع البيان (١/٩٢)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٦٣).

السَّلف؛ إنما كان إحجامه عنه حِذارًا أن لا يبلغ أداءَ ما كلِّف من إصابة صوابِ القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوبٌ عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم»[(١)]، وقال الزركشي رحمه الله: «وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي وغيرهما، يعظمون القرآن ويتوقفون عنه تورعًا واحتياطًا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم»[(٢)]، وقال ابن كثير رحمه الله: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه.

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد...» [(٣)].

(١) فتح القدير، الشوكاني (١ / ١٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١ / ٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١ /٦٠).

المطلب الثاني

صعوبات من جهة المصادر المُفَسِّرة

هنالك صعوبات كثيرة تواجه المفسر اليوم، بسبب ما كتب في التفسير عبر القرون، من أبرزها ما يلي:

أولًا: كثرة المأثور في التفسير من غير إسناد وتصحيح:

تفسير القرآن الكريم بالروايات المنقولة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين أمر ضروري ومهم وطيب؛ لأن ما أثر عنهم غنيمة وثروة لا استغناء عنه؛ ولكن ضمت كتب التفسير الكثير من الأحاديثِ والآثارِ الضعيفةِ والموضوعةِ، وبعضُها ذُكرَ بدون سندٍ وتخريج، وبعضُها نقلَ في سببِ النزول الكثير من الرواياتِ بدون تمحيصٍ، مما يتطلب معالجة كبيرة من المفسر «وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة، كبعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند، كما يذكر الحديث في كتب الفقه، ولكن يعزى إلى مخرجه»[١] حتى كانت هذه الروايات عقبة عن تدبر وفهم القرآن، يقول محمد رشيد رضا ﵀: «إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير بالمأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سندًا ولا موضوعًا »[٢]. ولما كان جُل ما ورد عن النبي ﷺ، وما ورد عن أصحابه مفسرًا لآي القرآن لم يصح سنده، قال الإمام أحمد ﵀: « ثلاثةٌ ليس لهَا إِسْنِاد: التفسير والملاحم والمغازي »[٣]. يقصد بذلك أن

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ١٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٣).

(٣) هذه الرواية عن الإمام أحمد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٤٦/١٣)، وقال: ويروى ليس لها أصل أي اسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل ".

الضعيف والمنكر والموضوع أضعاف ما ذكر من الصحيح[١].

والصحيح من الروايات في التفسير المأثور فيه اختلاف وتباين، بعضه من اختلاف التنوع الذي يحتاج إلى فقه في جمعه وتوفيقه، وبعضه من اختلاف التباين والتعارض الذي يحتاج إلى دراسة يتم من خلالها الترجيح والاختيار حتى يكون خادمًا للتفسير.

ثانيًا: تنوعُ مشاربِ الفرقِ والعلماءِ الذين كتبوا في التفسير:

كل فرق الإسلام لها كتابات في التفسير حتى أصبحت كتبُ التفسير تضمُ كلَّ عقائدِ الأمة وأفكارِها من معتزلةٍ ورافضةٍ وأشاعرةٍ ومتصوفةٍ وغيرِهم ممن كتبوا في التفسير، وحاولوا أن يستدلوا بالقرآن على بدعهم وانحرافاتهم العقدية حتى تُقْبَل دعوتهم، مستخدمين في ذلك طرقًا ملتوية في التفسير، منهم من كان واضحًا في مسلكهِ، ومنهم من دسَّ عقيدتَه دسًا حتى أتعبَ العلماءَ في استخراجِها، كما فعل الزمخشري ﵀ قال سراج الدين البلقيني ﵀ وقد صنف الكشاف على الكشاف: «استخرجت من الكشاف اعتزالًا بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أيُّ فوز أعظم من دخول الجنة؟! أشار إلى عدم الرؤية »[٢]، وقال ابن تيمية ﵀ محذرًا من هذا: « ومِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ فَصِيحًا وَيَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلَامِهِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ كَصَاحِبِ الْكَشَّافِ وَنَحْوِهِ، حَتَّى إنَّهُ يُرَوِّجُ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لا يَعْتَقِدُ الْبَاطِلَ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ. وَقَدْ رَأَيْت مِنْ الْعُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ وَكَلامِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ مَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمْ الَّتِي يَعْلَمُ أَوْ يَعْتَقِدُ فَسَادَهَا وَلَا يَهْتَدِي

---

(١) المصدر نفسه (٩/ ٩٠٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/٦٠).

لِذَلِكَ))[١].

ثالثًا: تنوعُ اهتمامات العلماءِ الذين كتبوا في التفسيرِ:

كتابات العلماء في التفسير تنوعت في اتجاهاتها، وهذا التنوع مع ما فيه من إيجابيات لكنه – أبعد التفسيرَ – أحيانًا عن مقاصدهِ، وصعَّب على طلابِ العلم نيلَ مرادهم منه، بسبب ما جاء في كتبِ التفسير من تفريعاتٍ صرفت همَّ الناسِ عن هدايات الآيات من ذلك: منهم من اعتنى بأسلوب القرآن وبلاغته كالزمخشري في كشافه وفرَّع وفصَّل فيه، ومنهم من اعتنى بالإعرابِ وما يحتملُه اللفظُ من وجوهٍ نحويةٍ حتى كأن القرآنَ نزلَ لهذا كما فعلَ الزجاجُ في تفسيرِهِ ((معاني القرآن))، والواحدي في ((البسيط))، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره ((البحر المحيط))، ومنهم من وجه عنايتَه إلى أخبارِ وقَصَصِ الأممِ السالفة وتوسعَ في ذلك، ونقلوا الصحيح والسقيم، وأدخلوا إسرائيلياتٍ كثيرة في التفسيرِ كما فعلَ الثعالبي والخازن.

ومنهم من توسع في الأحكامِ الشرعيةِ من عباداتٍ ومعاملاتٍ حتى أخذ التفسيرُ طابع الفقه كابن العربي والقرطبي وغيرهما، ومنهم من توسعَ في علمِ الكلامِ وأصولِ الاعتقاد والردِ على المنحرفين الزائغين ومحاجةِ المخالفين وملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما فعلَ الرازي، ومن هنا تضخمت كتب التفسير، وصَعُبَ على الطالبِ نيلَ مرادهِ في الوصولِ لهدايات النص القرآني. يقول الأستاذُ محمد رشيد رضا رحمه الله: ((كان من سوءِ حظِّ المسلمين أن أكثرَ ما كُتبَ في التفسيرِ يشغلُ قارئَه عن هذهِ المقاصدِ العالية، والهداياتِ السامية، فمنها ما يشغلُه عن القرآنِ بمباحثِ الإعراب وقواعدِ النحو ونكتِ المعاني ومصطلحاتِ البيان، ومنها ما يصرفُه عنه بجدلِ المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطاتِ الفقهاءِ المقلدين وتأويلاتِ المتصوفين،

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣/ ٣٥٨).

وتعصبِ الفرقِ والمذاهبِ بعضُها على بعض، وبعضُها يلفته عنه بكثيرِ الروايات، وما مزجت به من خرافاتِ الإسرائيليات، وقد زادَ الرازيُّ صارفًا آخر عن القرآنِ هو ما يورده في تفسيرِهِ من العلومِ الرياضية والطبيعيةِ وغيرِها من العلومِ الحادثة في الملةِ على ما كانت عليه في عهده»[(١)].

رابعًا: كثرةُ الاختلافاتِ الموجودةِ في كتبِ التفسير:

اختلفت أقوال العلماء كثيرًا في الأحكام والهدايات المستنبطة من الآية، منها ما هو من اختلافِ التنوع الذي يحتاجُ إلى فقهٍ في فهمِهِ والتعاملِ معه، ومنه ما هو من اختلاف التضاد الذي يحتاجُ إلى ترجيحٍ واختيارٍ بعدَ موازنةٍ ونظرٍ وتحقيقٍ وأخذٍ وردٍّ، يتطلب ذلك صبرا جميلًا، ودربة على نَفَسِ العلماءِ في التحقيقِ والتقصي، مع تجرد وإخلاص وعفة في المناقشة لا يوفق إليه كل أحد، إضافة إلى دراسة اختلافات المفسرين أسبابها وأنواعها وفقه التعامل معها قبل الخوض في التفسير، وهو من الأمور الضرورية التي لا غنى لدارس التفسير عنها؛ لمعرفة المنهج القويم في التعامل مع الأقوال المتعددة المتنوعة التي وردت في كتب التفسير، وقد فصل العلماء في مؤلفات خاصة في ذلك تفصيلًا قيمًا ينبغي الرجوع إليها، والإفادة منها، وبينوا كيف يؤدي عدم إدراك ذلك إلى التخبط في التفسير[(٢)].

خامسًا: كثرة الدخيل في كتب التفسير:

فقد ضمت كتب التفسير كثيرًا من الإسرائيلياتِ القادحة التي تساهلَ العلماءُ في نقلها، وبعضُهم فتحَ المجالَ واسعًا للتفسيرِ بالرأي بدونِ ضوابط فجاءت كتبُهم محتويةً على الكثيرِ من الأقوالِ الشاذةِ والأفكارِ المنحرفة والاجتهاداتِ غيرِ الموفقة لمخالفتِها

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا (١٣/١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٣٣/١٣)، واختلاف المفسرين للدكتور سعود بن عبد الله الفنيسان.

لبعضِ الأدلة أو اللغةِ خاصـــة التي وردت عن بعض أهل الأهواء مما يحتاجُ إلى قراءة واعية مع تدبرٍ عميق، قال ابن القيم رحمه الله: «كثير من المفسرين يأتون بالعجائب التي تنفر عنها النفوس ويأباها القرآن أشـد الإباء... ثم قال بعد ذكر عشـرات الأمثلة: وأضـعاف أضـعاف ذلك من التفاسـير المستنكرة المستكرهة التي قصـد بها الإغراب والإتيان بخلاف ما يتعارفه الناس... مما لو تتبع وبين بطلانه لجاء عدة أسـفار كبار»[1]، وقد اعتنى بعض العلماء ببيان الأقوال الشـاذة والخاطئة في التفسـير ومن الدراسـات المفيدة في ذلك: بدع التفاسـير للشـيخ عبد الله محمد الصـديق الغماري، والاتجاهات المنحرفة في تفسـير القرآن الكريم: دوافعها ودفعها للدكتور محمد حسـين الذهبي، والأقوال الشـاذة في التفسـير نشـأتها وأسـبابها وآثارها للدكتور عبد الرحمن بن صالح الدّهش، فقد جاء فيها ما يجعل الدارس يكون فطنًا في هذا الجانب.

سادسًا: الأساليبُ التي كتبت بها التفاسيرُ المختلفة:

كُتِبت التفاسـير عبر العصـورِ الممتدة بأسـاليب متنوعة من حيثُ اللغة والأسـلوبُ وكيفيةُ العرضِ والتناولُ بما يتناسب مع أهل كل عصر، ويسهل عليهم فهمها، والذين صاغوها في كل عصر ومصر علماء ملكوا ناصية البيان، وانفردوا على أهل زمانهم في العلم والفقه وتقرير وتحرير الأحكام، فأصبحت بعضُ العباراتِ والمصطلحات مشكلةً اليوم تحتاجُ إلى تفسـيرٍ وبيان، وبعضُ الأسـاليب ربما كانت جافة على أذواقِنا ومسـامعِنا، وبعضُـها يحتاجُ إلى دربةٍ للتعودِ عليها، فمنهم من اختصـر حتى اكتفى بتفسيرِ الغريب، ومنهم من غاصَ في الدقائقِ والعميق التي أشكلت حتى على العلماء، ومن أراد أن يعايش ذلك فليقرأ فقط في مقدمة الطبري أو الزمخشـري، أو أبي حيان الأندلسـي، أو القرطبي، أو البيضـاوي، أو أبي السـعود، أو الألوسـي، أو ابن عاشـور

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/ ٦٩٦).

ليعلم البون الشاسع بيننا وبينهم علمًا وهمة، مما يتطلب على دارس التفسير الإلمام بمصطلحات هذا العلم، والتدرب على قراءة هذه المؤلفات العظيمة، التي جمعت دررًا عظيمة، وتركوا فيها آثارًا جميلة، تقر بها العيون، وتتشنف لها الآذان، وتنشرح لها الصدور، ولكن الوصول إلى فهم ذلك ليس متيسرًا لكل العقول.

سابعًا: توقف التفسير عند بعض المفسرين في الوسائل:

غاية التفسير الوصول لهدايات القرآن الكريم، ولكن المؤسف حقًّا في واقع بعض كتب التفسير جعل بعضهم الوسائل غايات أو صرف جل اهتمامه في الأدوات والوسائل، فوقفت جهود بعض المفسرين عند إعراب الكلمات، وبيان الاستعارات التي هي وسائل لتذوق جماليات القرآن وتدبره، بل ضخمت حتى صارت موانع وحواجز بين المسلم وفهم كتاب الله تعالى، وهذا ما جعل محمد رشيد رضا ﷺ يقول: ((التفسير قسمان: أحدهما: جافٌّ مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرًا، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

وثانيهما: وهو التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس، على أنه فرض كفاية. وهو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغاياتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام. على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله ((هدى ورحمة)) ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كلِّ تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن))[١].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٢٥، ٢٦).

المطلب الثالث

صعوبات من جهة أدوات المُفَسِّر

المفسر يقوم بأعظم مهمة علمية على وجه الأرض، فهو يقوم مقامَ الأنبياء فيعلم الناس كلام الله الباهر الذي حوى كل العلوم، قال الزركشي رحمه الله: «وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان»[(١)]، فدراسة التفسير تحتاج إلى مؤهلات علمية وعملية عالية، خاصة لمن أراد التوسع في هذا العلم، مما لا يتوفر إلا في القليل النادر من الناس، فهو يحتاج أن يكون ملمًا بالعلوم الخادمة للقرآن أو التي دل عليها، مثل علوم اللغة، وعلوم القرآن، وعلم العقيدة، وعلوم السنة، وعلم الفقه وأصوله، وعلم البلاغة، وتكون له ملكة الاستدلال، ودقة الفهم، والقدرة على الترجيح والجمع بين الأقوال، مع تجرد من الهوى، وإخلاص في القول، واستقامة في التدين، وغيرها من شروط أكثر من ذكرها العلماء، وفي ذلك يقول الزركشي رحمه الله: «اعلم أنه لا يحصُلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي ولا يظهرُ له أسرارُهُ وفي قلبه بدعةٌ، أو كبرٌ، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو وهو مُصِرٌّ على ذنبٍ، أو غير متحققٍ بالإيمانِ، أو ضعيفُ التحقيقِ، أو يعتمدُ على قولِ مُفَسِّرٍ ليس عنده علمٌ، أو راجعٌ إلى معقولِهِ، وهذه كلُّهَا حُجُبٌ وموانعُ بعضُها آكدُ من بعض»[(٢)]، ويقول الزمخشري رحمه الله وهو يتحدث عن مؤهلات المفسر: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بَزَّ أهل

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٨٠، ١٨١).

الدنيا في صـــناعة الكلام، وحافظ القصـــص والأخبار، وإن كان من ابن القِرّية [(١)] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحســن البصــري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سـيبويه، واللُّغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصـدى منهم أحد لسـلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شـيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصـين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حُجَّة الله، وحرص على استيضـاح معجزة رسـول الله بعد أن يكون آخذًا من سـائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رَجَعَ زمانًا ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارسًـــا في علم الإعراب، مقدَّمًا في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسـترسـل الطبيعة منقادها، مشـتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، درًّا كاللمحة وإن لطف شـأنها، منتبهًا على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزًّا جاسـيًا، ولا غليظًا جافيًا، متصرفًا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرتِّب الكلام ويُؤلِّف، وكيف يُنظِّم ويُرصِّـف، طالما دفع إلى مضـايقه. ووقع في مداحضه ومزالقه» [(٢)].

ويقول البيضـاوي رحمه الله: «فإن أعظم العلوم مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسـها ومبنى قواعد الشـرع وأسـاسـها لا يليق لتعاطيه والتصـــدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصـــولِها وفروعِها، وفاق في

---

(١) هو: أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة بن ســلمة بن جشــم بن مالك، ينتهي إلى عدنان، المعروف بابن القرية – بكسـر القاف وتشـديد الراء والياء آخر الحروف – والقرية جدته، كان أعرابيًا أميًا، وهو معدود من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، يضرب به المثل في البلاغة، قتله الحجاج سنة ٨٤هـ. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٣/ ٣٤٤)، الأعلام لخير الدين الزركلي (٢/ ٣٧).

(٢) الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (١/ ٤٢).

الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها»[١]، وغيرها من كلام كثير يطول به النقل.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (١/ ١).

المبحث الثالث
التعريف بمصطلحات علم التفسير

مدخل:

المدخل لدراسة أي علم من العلوم معرفة مفرداته التي يتناولها علماء ذلك العلم من خلال كتبهم ومؤلفاتهم التي أصبح لها معان محددة متعارف عليها بينهم، تحولت فيما بعد إلى مصطلحات يتفقون في أكثر الأحوال على غالبها، ويختلفون في تحديد بعضها أو في بعض أجزاء مصطلحاته.

ومصطلحات علم التفسير من المصطلحات التي تباينت فيها تعريفات العلماء في بعضها واتفقوا في البعض الآخر؛ ولذا سوف أنقل أحيانًا عددًا منها، وفي بعضها سوف أكتفي بما أراه هو الراجح والمناسب، وهو ما زال موضع نظر العلماء في التحرير والتنوير خوفًا من الإطالة، وميلًا للإيجاز الذي هو من طبيعة علم المصطلحات.

وقد تناولت من خلال هذا المبحث أهم المصطلحات التي تناولها علماء التفسير وعلوم القرآن القديمة منها والحديثة، بما يعين طلاب العلم في التعامل معها، ويبقى هذا المبحث مجالًا مفتوحًا أمام الدارسين ينمو حسب تمكنهم من هذا العلم وكثرة مطالعاتهم في كتبه، وإنما هدفنا فتح نافذة للدارسين.

والمصطلحات التي تناولها العلماء في كتبهم كثيرة تحتاج إلى مؤلف خاص، ولكن سوف نتناول هنا أهم هذه المصطلحات وأكثرها تداولًا، أو التي تحتاج إلى تعريف وتوضيح لكثرة التباين حولها، والمصطلحات التي تكلمت فيها من خلال هذا الكتاب بتفصيل أعرضت عنها في هذا المبحث، وبعضها جاء مبسوطًا في كتب علوم القرآن الكريم ذكرتها باختصار.

سائلين الله التوفيق والسداد، والعون والرشاد.

المطلب الأول

مصطلحات في فهم القرآن الكريم

حث الله تبارك وتعالى على فهم القرآن الكريم من خلال بيانه أنه أنزله وفصله لقوم يعلمون ويعقلون ويفقهون، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[فصلت:٣]، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨]،وقال تعالى: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنعام:٩٨]، و«فهم الأمر إذا أحسن تصور معناه المراد من لفظ المخاطب، وأدرك مراميه ومقاصده، وقيل: قدرة الذهن على حسن الاستنباط والإدراك لمرامي الألفاظ وغاياتها»(١).

ومما يحث على فهم القرآن الكريم وصفه تعالى للكفار والمنافقين بأنهم لا يفقهون، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾[المنافقون:٧].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمات معينة في الدلالة على فهم معاني القرآن الكريم، واستنباط حكمه وأسراره، وإدراك مقاصده وغايته، وهي التي استعملها العلماء في مصطلحاتهم العلمية للدلالة والحث على معرفة معاني القرآن الكريم، وهي: «التفسير، والتأويل، والتدبر، والاستنباط، ويعبر العلماء عن ذلك بقولهم: « تفسير الآية كذا، واختلفوا في تأويلها على كذا، ومن تدبر الآية الكريمة فهي تدل على كذا، ويستنبط من الآية كذا، فإليك بيان معاني هذه المصطلحات في النقاط الآتية:

(١) معجم مصطلحات أصول الفقه، للدكتور قطب مصطفى سانو (ص:٣٢٥).

أولًا: تعريف التفسير:

أ/التفسير في اللغة:

اختلف علماء اللغة في مرجع كلمة التفسير إلى رأيين:

الرأي الأول: قيل هي من « الفَسْرُ » بمعنى البيان والكشف والتوضيح، وفَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكسر، ويَفْسُرُه بالضم، فَسْرًا وضَّحَه، وشرحه، وبينه، ومنه لفظ مفسَّر، وفَسَّرَ آيات القرآن شرحها، ووضَّح ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام[١]، والتَّفْسِيرُ مثله؛ والفَسْرُ: كشف المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل، واسْتَفْسَرْتُه كذا أَي سأَلته أَن يُفَسِّره لي، وكل شيء يُعْرفُ به تفسير الشيء ومعناه فهو تَفْسِرَتُه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٣]. ومنه الفَسْر والتفْسِرة وهي: البول الذي يستدل به على المرض، وانظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل... وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته [٢].

الرأي الثاني: قيل: هو مقلوب من «سَفَر» بمعنى كشف، يقال: سَفَرت المرأةُ سفورًا إذا ألقتْ خِمَارَها عن وجهها وهي سافرة، وأسفر الصبح أضاء وأشرق»[٣]، ولهذا سمي السير سفرًا لأنَّه يسفر أي يظهر أخلاق الرجال.

ولكن القول الثاني اعترض عليه بعض العلماء أن يكون مرجع الكلمة إليه؛ لأن الأصل أن تكون للفظة ترتيبها، ودعوى القلب خلاف الأصل الذي وردت عليه،

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (١/ ٦٨٨)، والتوقيف على مهمات التعريف (ص:١٩٢).

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور مادة (فسر)، (٥/٥٥٥)، مختار الصحاح (١/٢١١)، وتهذيب اللغة للأزهري (١٢/٤٠٧).

(٣) القاموس المحيط، للفيروز أبادي مادة " السفر " (٢/١١٣)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/١٤٨).

قال الألوسي رحمه الله «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه »[١]، والصحيح أنهما لفظان متغايران لمعنيين متقاربين، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله « الفَسْرُ » و « السَّفْرُ » يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جُعِلَ الفسرُ لإظهار المعنى المعقول.. وجعل السَفرُ لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح، وسفر العمامة عن الرأس، وسَفْرُ البيت كنسه بالمِسْفر أي المكنس»[٢].

وقد اشتهرت لفظة التفسير مقرونة بالقرآن الكريم، حتى أصبحت هذه اللفظة إذا أطلقت فقيل التفسير أريد به العلم الموضح لمعاني القرآن الكريم، وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل تفسير، ولهذا يقال «تفسير الرُؤيا وتأويلها، قال تعالى ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٣] »[٣].

ب/ التفسير في الاصطلاح:

تعددت أقوال العلماء في تعريف التفسير اصطلاحًا بين مختصر في تعريفه على توضيح المعاني، ومعرفة مراد الله تعالى من خلال كلامه، وبين متوسع في التعريف حتى أدخل ضوابطه، ومهمة المفسر كذلك، نذكر بعضًا من هذه التعريفات:

عرفه ابن جُزَيّ رحمه الله (ت: ٧٤١هـ) قال: «معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه، أو إشارته، أو نحوهما »[٤].

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١/٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٣٩).

(٣) المفردات للراغب (ص:٣٨٢).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزى (١/٦).

وعرَّفَهُ أبو حيان الأندلسي رحمه الله (ت:٧٤٥ هـ) في مقدمة تفسيره بقوله: «علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامِها الإفرادية والتركيبيَّةِ، ومعانيها التي تُحملُ عليها حالَ التركيبِ، وتتمات ذلك »[(١)].

ثم قال شارحًا لهذا التعريف: فقولنا: «علم»: هو جنس يشمل سائر العلوم. وقولنا: «يبحث فيه عن كيفيَّة النطق بألفاظ القرآن»: هذا علم القراءات. وقولنا: «مدلولاتها» أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم. وقولنا: «وأحكامها الإفرادية والتركيبية » وهذا يشمل علم الصرف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع.

«ومعانيها التي تحمل عليها حال التَّركيب» شمل كل ما يدل عليه النص ظاهرًا أو إشارة.

وقولنا: «وتتمات ذلك» وهو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضيح ما أبهم في القرآن ونحو ذلك »[(٢)].

وعرفه الإمام الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤ هـ) في البرهان بقوله «علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[(٣)].

وعرفه الجرجاني رحمه الله (ت: ٨١٦ هـ) في التعريفات بقوله: «توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة »[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (١/٢٣).

(٢) المصدر السابق (١/٢٣، ٢٤).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/١٣).

(٤) التعريفات، لأبي الحسين علي بن محمد الجرجاني، (ص: ٦٧).

وعرفه الكَافِيجِيُّ رحمه الله (ت: ٨٧٩ هـ) بقوله: «وأما التفسير في العرف فهو كشف معاني القرآن وبيان المراد»[(١)]، وكشف المعاني لا شك أنه يشتمل اللغوية والشرعية، والإفرادية والتركيبية.

وعرفه الزرقاني رحمه الله في كتابه المناهل بقوله «علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[(٢)].

وعرفه ابن عاشور رحمه الله بقوله: التفسير في الاصطلاح: «هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع»[(٣)].

فالراجح: «أن علم التفسير علم يُبيِّن معاني القرآن الكريم، وما فيه من أسرار وحكم، على قدر طاقة البشر».

وقد أدخل أبو حيان رحمه الله علم القراءات في علم التفسير، وعلى الرغم من أهميته للمفسر؛ لأنّ فهم بعض المعاني متوقف على معرفة اختلاف أوجه بعض القراءات، والمعنى قد يختلف كثيرًا من قراءة لقراءة وإن كانا لا يتعارضان كقراءة «تبينوا» و «تثبتوا»، وكقراءة «وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا ومُلْكًا» بضم الميم وإسكان اللام، فإنَّ معناها مغاير لقراءة من قرأ «مَلِكًا كبيرًا» بفتح الميم، وكقراءة (حتى يطهرن) بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ «يطهّرن» بالتشديد[(٤)]، لكن هنالك جزء من اختلاف القراءات لا علاقة له بالتفسير، وهو ما يتعلق الخلاف فيه بجانب الأداء اللفظي من إدغام وإخفاء وإمالة وروم ونحو ذلك، وليست من مهمة المفسر بيان كيفية النطق بألفاظ القرآن الذي هو من مهمة المقرئ، وإنما مهمته بيان معاني

---

(١) انظر: التيسير في قواعد التفسير للكافيجي (ص: ١٢٤، ١٢٥).

(٢) انظر: مناهل العرفان (٢/٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣).

(٤) انظر: التفسير والمفسرون في العصر الحديث، لعبد القادر محمد صالح (ص: ٨٢).

القرآن، قال ابن عاشور: «وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه، وبهذه الحيثية خالف علم القراءات؛ لأن تمايز العلوم -كما يقولون- بتمايز الموضوعات، وحيثيات الموضوعات»(١)، فاخرج ابن عاشور بتعريفه هذا علم القراءات من علم التفسير، وهو داخل من حيث ما يرتبط بالمعاني، غير داخل في علم التفسير فيما كان الاختلاف منحصرًا فقط في كيفية الأداء اللفظي.

ثانيًا: تعريف التأويل وبيان الفرق بينه وبين التفسير:

أ/ التَّأويل في اللغة:

التأويل في اللغة مأخوذ من الأول: أي الرجوع إلى الأصل، ومنه المؤْئِلُ للموْضِع الذي يُرْجَعُ إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلًا، ففي العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧]، وفي العمل قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، «تأويله» أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه»(٢).

«وأوّل الكلام وتأوَّله: دَبَّره وقدَّره، وفسَّره ورجع به إلى مراد المتكلم». وقيل التأويل من الإيالة وهي: السِّيَاسَة التي تُرَاعِي مآلها، فكأن المؤّول للكلام ساسه ووضع المعنى في موضعه»(٣).

وهو في الاصطلاح العام: هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه عِلْمًا كان أو عملًا».

---

(١) التحرير والتنوير (٣/١).

(٢) المفردات (ص:٤٠).

(٣) انظر: المفردات (ص:٤٠)، مختار الصحاح (١٣/١)، لسان العرب مادة (أول) (٣٢/١١، ٣٢).

تأويل علمي: هو ردُّ الكلام إلى حقيقته العلمية أي إعادة الكلام إلى أصـــله ودلالته وحسن فهمه.

وتأويل عملي: ردُّ الكلام إلى حقيقته العملية؛ وذلك بأدائه وفعله))[١].

ب/ مفهوم التأويل عند السلف:

السلف ـ رحمهم الله ـ يطلقون التأويل ويريدون به واحدًا من معنيين:

أولًا: يريدون به التفســير: التفســير من أوَّله وتأوَّله: فسَّــره، وكشــف عن معانيه ودلالاته، على أنهما لفظان مترادفان لمعنى واحد، وهذا هو الشـــائع في اســـتعمال الســـلف، قال أبو العباس أحمد بن يحيى:((التأويل والمعنى والتفســير واحد))[٢]. وعلى هـذا يحمـل دعـاء النبي ﷺ لعبـد الله بن عبـاس ((اللهم فقهـه في الـدين وعلمـه التأويل))[٣]، وقول مجاهد عن التفســـير: ((الراســـخون في العلم يعلمون تأويله))[٤]، وقول ابن جرير في تفســـيره: ((القول في تأويل قوله تعالى كذا))[٥]، وقوله ((واختلف أهل التأويل في هذه الآية))[٦]، فإن المراد هنا من أهل التفســـير؛ ولذا قال عدد من العلماء: التفســير والتأويل بمعنى واحد، وقال ابن تيمية: ((التأويل هو تفســير الكلام ســواء وافق ظاهره أو لم يوافقه، وهذا هو معنى التأويل في اصــطلاح جمهور المفســرين وغيرهم))[٧].

---

(١) التفسير والتأويل في القرآن، د. صلاح الخالد (ص: ٣٥).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٧٣/١).

(٣) جامع البيان للطبري (٢٠٣/٦).

(٤) الدار المنثور للسيوطي (٢ /٤٢٠).

(٥) جامع البيان (١/ ٣٣٣).

(٦) المصدر السابق (١/ ٢٣٧).

(٧) الفتوى الحموية ص٢١.

ثانيًا: يريدون به الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فإذا كان الكلام خبرًا كان تأويله وقوع المخبر به، كأن يقول: جاء أحمد، فتأويل هذا الكلام مجيء أحمد بنفسه، وإذا كان الكلام طلبًا «أي أمرًا أو نهيًا، كان تأويله أن يفعل هذا الطلب.

وبهذا المفهوم وردت كلمة التأويل في القرآن الكريم؛ من ذلك ما ورد من تأويل الرؤى في سورة يوسف [١]، ومن ذلك قوله تعالى بعد كشف الغطاء عن قصة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال تعالى في آخر قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، يريد أن يخبره حقيقة ما رأى من الأمور العجيبة.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، وهو بمعنى الحقائق التي أخبر بها من الثواب والعقاب.

وقد ورد هذا المعنى في السنة، من ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تحت تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[النصر: ٣] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن)[٢]، تعني بقولها: يتأول القرآن، يعمل ويطبق ما أمر الله به من التسبيح والتحميد.

---

(١) في ثمانية مواضع وهي الآيات: ٦، ٢١، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠، ١٠١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود ح رقم ٧٩٦، ومسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود ح رقم ٧٧٥.

وعلى هذا استطاع بعض العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله أن يجمعوا بين الأقوال المختلفة للسلف رحمهم الله في الواو في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ هل هي عاطفة أم استئنافية:

فمن جعل الواو عاطفة والوقف على «والراسخون في العلم» حمل معنى التأويل على التفسير، أي تفسير يعلمه الراسخون في العلم.

ومن جعل الواو استئنافية، والوقف على لفظ الجلالة من قوله « وما يعلم تأويله إلا الله » يكون التأويل بمعنى ما تؤول إليه حقيقة الأشياء مما استأثر الله بعلمه من كيفيات تتعلق بذاته العلية، أو الجنة أو النار ونحو ذلك، مما أخبر عنه الله عز وجل في كتابه من أخبار يوم القيامة وأشراطها أو غيرها من المغيبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله « أما لفظ التأويل في التنزيل فمعناه الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب، وهي نفس الحقائق التي أخبر الله عنها، فتأويل ما أخبر به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه هو نفسه المقدسة الموصوفة بصفاته العلية، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فيثبتون العلم بالاستواء وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يتدبر ويعقل وينتبه، ويقولون الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو»[(١)].

فهذه هي معاني التأويل التي وردت في الكتاب والسنة وسار عليها سلف هذه الأمة من مفسرين وفقهاء ولغويين وغيرهم، ولم يرد عنهم غير هذين المعنيين، ثم جاء

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/٣٨٢).

مصطلح حادث عن بعض المتأخرين، لطائفة من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، فعرفوا التأويل **بمفهوم آخر، وهو:**

صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح لقرينة تدل عليه، وهو تعريف حادث، ظهر فساده بصورة بينة حينما حاولوا تأويل صفات الله، وما ورد عن بعض الأمور الغيبية عن المعنى الثابت الذي عليه عقيدة أهل السنة والجماعة، كتأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واليد بالقدرة، والميزان بالعدل، ونحو ذلك مما هو معروف عند أئمة السلف بتحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسمائه وصفاته.

فالتأويل منه ما هو صحيح إذا كان دليله صحيحًا، ومنه ما هو باطل إذا كان دليله باطلًا، ومنه ما هو لعب إذا لم يكن له دليل أصلا، كتأويلات الباطنية، قال الشنقيطي رحمه الله: «وحاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدل على ذلك، وهذا هو التأويل المسمى عندهم بالتأويل الصحيح، والتأويل القريب كقوله ﷺ الثابت في الصحيح: (الْجَارُ أَحَقُّ بِصَقَبِهِ)، فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفعة للجار، وحمل الجار في هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق وضربت الحدود، فلا شفعة.

الحالة الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلا وليس بدليل في نفس الأمر، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد، والتأويل البعيد، ومثل له الشافعية، والمالكية، والحنابلة بحمل الإمام أبي حنيفة رحمه الله المرأة في قوله ﷺ: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، باطل) على المكاتبة، والصغيرة،

وحمله أيضا رحمه الله لمسكين في قوله: ستين مسكينا على المد، فأجاز إعطاء ستين مدا لمسكين واحد.

الحالة الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلا، وهذا يسمى في اصطلاح الأصوليين لعبا، كقول بعض الشيعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً ﴾، يعني عائشة رضي الله عنها»[1].

ج/ الفرق بين التفسير والتأويل:

إذا عرفنا أن التفسير يتعلق ببيان المعنى في الغالب، وأن التأويل له مفهومان صحيحان أحدهما يوافق معنى التفسير، والآخر يراد به ما تؤول إليه حقيقة الشيء، فتكون الفروق التي ذكرها العلماء يقبل منها ما يرجع إلى هذه المعاني الصحيحة ويرد ما يخالفها، كما ينبغي أن تفهم كل نقطة في الفرق بينهما على أنها جزء من الفرق، بمعنى أنها تقبل هي وغيرها، لا حد فاصل بينهما.

وقد ذكر العلماء فروقًا كثيرة ننتقي منها الآتي:

١- أن التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في التراكيب والجمل. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: « التفسير أعمّ من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجُمَل؛ كتأويل الرؤيا، وأكثر ما يستعمل - يعني التأويل - في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها »[2].

٢ - أن التفسير: بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل: توجيه لفظ متوجّه إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة. قال الماتريدي: «التفسير: القطع

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣،٤/٤).

(٢) مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني (٤٠٢ – ٤٠٣).

على أن مراد الله من اللفظ هذا، والشـــهادة على الله أنه عَنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه، والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله))[١].

٣- التفسـير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية، قال الخازن في تفسـيره: ((الفرق بين التفسـير والتأويل، أن التفسـير يتوقف على النقل المسـموع، والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح))[٢]، مثال التفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، هما الأوس والخزرج، وكقوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، هما اليهود والنصارى، وكقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧] هو صـــهيب، وكقوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧]، وهو أبو بكر الصديق ﵁ ونحو ذلك.

ومثال التأويل قوله تعالى:﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة:٤١] قيل: المراد منفردين أو مجتمعين، وقيل: نشاطا وكسالى، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: شبابا وشيوخا، وقيل: رجالا وفرســانا، وقيل: من لا عيال له ومن له عيال، وقيل: من يســبق إلى الحرب كالطلائع ومن يتأخر كالجيش، وقيل: غير ذلك...فهذا من التأويل، وكله مقبول ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني؛ لأن القصــد من الآية الحث على النفر على كل حال تصعب أو تسهل))[٣].

٤ – وقيل: علم التفســير للخلق، وعلم التأويل للحق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، وهذا يرجع إلى أن التأويل هو حقيقة ما تؤول إليه المعاني.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١١٧٥/٤).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (١٠/١).

(٣) انظر: فتح القدير (٢ /٥٢٧)، والمفردات في غريب القرآن (٢١١/١).

وقيل: التفسير قبل الوقوع، والتأويل بعد الوقوع وامتثال الأمر.

والراجح - والله تعالى أعلم - أن التأويل أعم من التفسير، فكل مؤوِّل مفسِّر وليس العكس، وهما مرحلتان في فهم كلام الله ﷻ، فيكون التفسير مرحلة أولى، والتأويل مرحلة ثانية، تذهب إلى ما هو أبعد من التفسير، وهي رد الكلام إلى حقيقته العلمية والعملية.

ثالثًا: تعريف تدبر القرآن الكريم:

حث الله تعالى في كتابه على تدبر القرآن، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

أ - التدبر في اللغة: «من تَدَبَّرَ الأمْرَ إذا ساسه ونظر في عاقبته، وتدبرتُ الأمر تدبيرًا فعلته عن فكر ورَوِية»[(١)]. هو عبارة عن: «النظر الثاقب المتأني في عواقب الأمور وفي مآلاتها؛ وذلك قبل الحكم عليها بإيجاب أو سلب»[(٢)]، وقال الجرجاني رحمه الله: «وهو قريب من التفكرُّ، إلا أن التفكر تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرفه بالنظر في العواقب »[(٣)].

قال الألوسي رحمه الله: «وأصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[(٤)].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (١/٣٧٠)، والمصباح المنير لأحمد محمد علي الفيومي(ص:٧٢)، ومختار الصحاح (ص:٩٣).

(٢) معجم مصطلحات أصول الفقه، للدكتور قطب مصطفى سانو (ص:١٢٧).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص:٧٦).

(٤) روح المعاني (٥/ ٩٢).

ب – التدبر في الاصطلاح: تعريف المفسرين للتدبر في الاصطلاح جاء متوافقًا مع تعريف الكلمة في اللغة. قال الزمخشري رحمه الله: «تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[١]. وقال أيضًا: «وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحصل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها»[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن الميداني رحمه الله: «التدبر هو: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»[٣].

ومن هنا كان تدبر القرآن يراد به من وجهة نظري: «البحث العميق في دلالات الكلمة القرآنية، ومراميها البعيدة للوصول إلى دقائق هداياتها من خلال منطوقها ومفهومها ومقاصدها، بما لا يظهر بغير تأمل».

رابعًا: الاستنباط عند المفسرين:

أ – الاستنباط في اللغة: «النون والباء والطاء كلمةٌ تدلُّ على استخراج شيء. واستنبَطْتُ الماءَ: استخرجتُه»[٤] ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] أي: يستخرجونه، واسْتَنْبَطَ الفَقيهُ: اسْتَخْرَجَ الفِقْهَ الباطِنَ بفَهْمِه واجْتهادِه[٥]، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار

---

(١) الكشاف (١/٥٧١).

(٢) المصدر السابق (٤/٩٢).

(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل (ص:١٠).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٣٨١).

(٥) القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص:٨٩٠).

العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[١]، وقال ابن القيم رحمه الله: «فإن الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد »[٢].

ب – الاستنباط في الاصطلاح: هو استخراج معنى أو حكم خفي لا يظهر لغير المفسر من الآية أو الآيات بطريق صحيح. أو هو استخراج المعاني الخفية من الآيات والسور، قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين:« إن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفي على غير مستنبطه »[٣].

والاستنباط من العلوم المكملة لبيان المعنى؛ لأننا متعبدون بما دل عليه القرآن بمنطوقه ومفهومه، وفق الضوابط التي وضعها العلماء، فعلم التفسير يهتم بالمعنى الظاهر بصورة أكبر، والاستنباط يهتم بالمعنى الباطن الخفي بصورة أوسع، وهما من حيث الممارسة والكتابة متداخلان؛ لأنهما من علوم التفسير « وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه »[٤].

ج – العلاقة بين الاستنباط والتدبر:

المتأمل في كلام العلماء، ودلالات الآيات القرآنية يجد هنالك علاقة وثيقة بين التدبر والاستنباط، وأن التدبر طريق للاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه، إلا أننا نجد القرآن فتح التدبر للناس جميعًا للوصول لهدايات القرآن العامة، وجعل الاستنباط خاصًا بالعلماء، أي من امتلكوا مقومات زائدة، وهو الظاهر من القرآن، وبين أن سبب إعراض الكفار عدم تدبرهم لهداياته التي تقود للإيمان، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]،

---

(١) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن (٨/٥٧١).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ١٠٣).

(٣) (١/ ٢٦٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/١٢).

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٣ – ٢٤]، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٢ –٨٣].

ومن هنا يظهر لنا أن بين التدبر والاستنباط عمومًا وخصوصًا، فالتدبر اتجاه الأول نحو المقاصد والكليات التي هدى إليها القرآن الناس للتي هي أقوم، وتقودهم للخير، وهي معانٍ لا تخفى على من له معرفة باللسان العربي، وله قدرة على الذوق والفهم، بينما اتجاه الاستنباط نحو المعاني الخفية والدقيقة من وراء الكلمات، تحتاج إلى مقومات ونظر، قال ابن عاشور رحمه الله: ((فمعنى ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق))(١).

د – العلاقة بين الاستنباط والتفسير:

هنالك علاقة وثيقة بين الاستنباط والتفسير؛ لأن المفسر ليستنبط يحتاج أولًا معرفة معاني الآية، ولكن مع ما بينهما من تداخل فإن بينهما تباينًا، من ذلك:

- أن التفسير يهتم بتوضيح وبيان المعاني، بينما علم الاستنباط يهتم باستخراج ما وراء المعاني من هدايات وأسرار وحكم خفية.

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

- أن المعتمد عليه في الاستنباط القريحة الذهنية والرأي والاجتهاد، بينما معتمد المفسر الأول في التفسير على التفسير بالمأثور، ومعرفته باللغة، ثم الرأي والاجتهاد.
- أن باب الاستنباط سيبقى أمام العلماء طودًا شامخًا يشمخ المفسر فيه بقدر ما يضيفه من هدايات، بينما علم التفسير تظهر فيه قدرة المفسر على حسن التزامه بأحسن طرق التفسير، وقوته في الترجيح والاختيار ونحو ذلك.

خامسًا: أحكام القرآن:

العلماء تعارفوا على إطلاق أحكام القُرْآن على أحكام القرآن العملية الفرعية، المعروفة بالفقهية.

فالمراد بآيات الأحكام - عند الإطلاق -: «هي الآيات التي تُبيّن الأحكام الفقهية وتدل عليها نصًا، أو استنباطًا»، هذا هو المشهور والمعروف عند التصنيف والدراسة والإطلاق؛ ولكن هنالك من العلماء من جعل أحكام القرآن ليست خاصة بالجانب الفقهي، بل أدخل مع الأحكام الفقهية الأحكام الاعتقادية والسلوكية والأخلاقية، وفي هذا يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «وأحكام القرآن العظيم هي: «ما تضمنته الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية». وتفاسير آيات الأحكام، أو التَفْسِيْر الفقهي: «هو التَفْسِيْر الذي يُعنى ببيان الأحكام الشرعية العملية، والتنبيه عليها، سواء بالاقتصار عليها، أو العناية الخاصة بها »[١].

---

(١) انظر: تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، للدكتور علي بن سليمان العبيد (٢٥/١) -رسالة جامعية-، وآيات الأحكام في المغني، للدكتور فهد العندس (٢٢/١) - رسالة جامعية.

المطلب الثاني

مصطلحات علوم القرآن المتعلقة بالتفسير

أولًا: المحكم والمتشابه في القرآن الكريم:

فقد وصـــف الله ﷻ كتابه العزيز كله بأنَّه محكم في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، كما وصف الله تعالى كذلك كتابه كله بأنَّه متشابه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم من جهة، وبعضه متشابه من جهة أخرى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]. ومن هنا قسم العلماء مصطلح المحكم والمتشابه إلى قسمين:

الأول: الإحكام العام والتشابه العام.

والثاني: الإحكام الخاص والتشابه الخاص.

أ - المحكم والمتشابه في معناهما العام:

١ - الإحكام العام: قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله: «فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصـــدق من الكذب في أخباره، وتمييز الرشـــد من الغي في أوامره، والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان»[١]، فالقرآن الكريم بهذا المعنى كله محكم، أي متقن ممتنع عن الخلل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في غاية من الإحكام ونهاية في الانتظام. أخباره صدق، وأحكامه عدل، وأوامره خير، ونواهيه صلاح وإصلاح للفرد والجماعة.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٦٠).

٢ – التشـــابه العام: هو تماثله في الجودة، وترابطه في المعنى، بحيث يصـــدق بعضــه بعضًـــا، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضـــه في موضـــع آخر؛ بل يأمر به أو بنظيره، أو بملزوماته، وإذا نهى عن شـــيء لم يأمر به في موضـع آخر؛ بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نســـخ، وهو ضـــد الاختلاف المنفيِّ عنه في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] (١).

فالمحكم والمتشـــابه في معناهما العام لا ينافي ولا يناقض أحدهما الآخر، بل تشـــترك فيهما جميعًا آيات القرآن، فالقرآن كله محكم بمعنى متقن لا يتطرق إليه خلل، تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، ومتشـابه يصـدق بعضـه بعضًـا دون اختلاف أو تضـاد، ويشبه بعضـه بعضـا بلاغة وحسنًا، حتى لا يستطيع الإنسـان أن يفاضـل بين حروفه وكلماته، فهما معنيان متفقان على القرآن حكمًا ووصفًا.

ب – المحكم والمتشابه في معناهما الخاص:

الإحكام الخاص ضد التشابه الخاص، وهو الذي ذكره الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧]. فالآيات المحكمات واضـــحة الدلالة على مراد الله، ليس فيها اشـــتباه أو إشـــكال، ولا تقبل تأويلًا أو احتمالًا، والآيات المشتبهات: هي التي لا يتضح معناها مباشرة، ويشبه لفظها غيرها، وتشـــتبه معانيها أحيانًا مع آيات أخرى، فهي مأخوذة من المعنى العام للتشـــابه، وهو

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٦٠).

مشابهة الشيء لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر، فالآيات المتشابهات هي التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة معنيين أو أكثر، خلافًا للآيات المحكمات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التشابه الخاص هو مشابهة الشيء لغيره من وجه، مع مخالفته له من وجه آخر؛ بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله، وليس كذلك. والإحكام هو الفاصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر، وهذا التشابه إنَّما يكون بقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما»[(١)].

ثانيًا: غريب القرآن الكريم:

الغريب من الكلام لغة: هو الغامض البعيد من الفهم، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، ويقابله المشهور، قال الخطَّابي رحمه الله (ت ٣٨٨هـ) أن الغريب - من الكلام - يقال به على وجهين: أحدهما: أن يُراد به: بعيد المعنى، غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بُعد، ومعاناة فكر. والآخر: أن يراد به: كلام من بَعُدت به الدار، من شواذِّ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم: استغربناها! وإنما هي كلام القوم وبيانهم. ويزيد الزجّاجي رحمه الله (ت٣٧٧هـ) أمر الغريب اللغوي وضوحًا، حين يُعرِّفه بأنه: «ما قل استماعه من اللغة، ولم يَدُرْ في أفواه العامّة، كما دار في أفواه الخاصّة، كقولهم: صَمَكْتُ الرجُل، أي: لَكَمْتُه، وقولهم للشمس: يُوحُ»[(٢)].

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٦٣).

(٢) انظر: معاجم معاني ألفاظ القرآن الكريم (ص: ٥).

وغريب القرآن: الكلمات القرآنية التي تبدو عند بعض الناس غامضة قليلة الاستعمال بعيدة المنال من ذهنه وفهمه، يحتاج فهمها إلى من يفسرها، بما جاء في لغة العرب، وكلامهم[١].

ومن هنا نعرف أن المراد بالغريب في القرآن ليس أن الكلمة شاذة أو منكرة، كما عند علماء البيان، فكلام الله منزه عن ذلك بلا ريب؛ وإنما اللفظة الغريبة هي لفظة في غاية الحسن التام والجمال، ولكن في فهمها يتفاوت أهل اللسان، وهو أخص من عموم مفردات القرآن التي تشمل الغريب وغيره من ألفاظ القرآن.

وقد جمعها العلماء وأفردوها بالتأليف، وخصوها بالتصنيف، ومن أقدمها ما يعرف بمسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس، وكتب معاني القرآن، وكتاب المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، وكتاب غريب القرآن لأبي بكر السجستاني، وغيرها[٢].

ثالثًا: مبهم القرآن الكريم:

فالمبهم في القرآن الكريم هو: مالم يُنص على ذكره باسمه العَلَم أو عدده أو زمنه أو مكانه، أو هو ما أبهم من أسماء الأعلام والأماكن، والأزمان، والأعداد الواردة في القرآن الكريم، فلم يعين اسمه، أو يحدد مكانه أو زمانه أو عدده.

عرفها السُّهيلي (ت ٥١٨هـ) بقوله: «ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذِكرٍ من لم يُسَمِّه الله فيه باسمه العَلَم من نبي، أو وليّ، أو غيرهما، آدمي، أو مَلَك، أو بلد، أو كوكب، أو شجر، أو حيوان له اسم عَلَم، قد عُرف عند نقلة الأخبار، وغيرهم من العلماء الأخيار»[٣].

(١) انظر: المصدر السابق (ص: ٧).

(٢) معجم مصطلحات علوم القرآن (ص: ١٠٥).

(٣) التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن، عبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عبد الله النقراط، (ص:٥٠).

وزاد ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) على تعريف السهيلي رحمه الله: «أو عَدَدٍ لم يُحدد، أو زمنٍ لم يُبين، أو مكانٍ لم يُعرف، وغيرها»[١].

رابعًا: مشكل القرآن الكريم:

المشكل عند علماء التفسير وعلوم القرآن هو: الآيات التي التبس معناها واشتبه على كثير من المفسرين، فلم يعرف المراد منها إلا بالطلب والتأمل[٢].

خامسًا: عادة القرآن:

هو ورود لفظ أو تركيب أو أسلوب في القرآن الكريم يراد به غالبًا معنى معين، نحو عادة القرآن: استعمال لفظ « العباد » يراد به المؤمنون، وغالب استعمال القرآن للفظ الصلاة يراد به الحقيقة الشرعية، الخروج عن العادة يكون لدليل، ولا ينقض ذلك العادة القرآنية، وتسمى - أيضًا - بعرف القرآن الكريم، ومعهود القرآن [٣].

---

(١) غرر البيان لمبهمات القرآن، لابن جماعة (ص: ٣٨).

(٢) انظر: مشكل القرآن الكريم، لعبد الله بن حمد المنصور (ص: ٦٨).

(٣) معجم مصطلحات علوم القرآن (ص: ١١١).

المطلب الثالث

مصطلحات في ترتيب ونظم القرآن الكريم

أولًا: تعريف المناسبة في القرآن الكريم:

هو: البحث عن علل الترابط بين كلمات وجمل وآيات وســــور القرآن الكريم، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني؛ ولذا عرفه العلماء بقولهم:((علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن))(١).

ثانيًا: تعريف التناسق الموضوعي في السورة:

هو: البحث عن موضـــوعات الســـورة، ووجه علل الترابط والتلاؤم بينها بما يظهر عظمة القرآن وأوجه إعجازه الموضـوعي. فهو يعتني بموضـوعات السـورة، وعلل التتابع والترتيب بين الموضوعات، وفي داخل الموضوع الواحد(٢).

ثالثًا: تعريف الوحدة الموضوعية في السورة:

هو: البحث عن الموضــوع الكلي الذي يربط بين موضــوعات الســورة ويجمع بينها، ويمثل هدفها ومقصـــدها البارز، الذي تنتظم حوله آيات وموضــوعات الســـورة حتى تصير ((من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد))(٣).

فالمناسبات هي المدخل للتناسق الموضوعي، والتناسق الموضوعي هو السبيل للوصول للوحدة الموضوعية.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٦/١)، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ١٤٢).

(٢) هذا المصطلح هو الذي توافقنا عليه في مشروع التناسق الموضوعي لسور القرآن الذي تبناه قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي (١٣/ ٤٠١)، ومعجم مصلحات علوم القرآن (ص: ٨٨).

رابعًا: دلالة السياق:

هي مراعاة ســـابق الكلام ولاحقه في فهم معنى الآية. وعرفه بعضـــهم بأنه: ((تتابع المعاني وانتظامها في ســـلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضـــوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال[(١)].

خامسًا: نظام القرآن الكريم:

النَّظم في اللغة: التأليفُ، وضَـمُّ شـيء إلى شـيءٍ آخَرَ، ونَظَمَ اللُّؤْلُؤَ يَنْظِمُهُ نَظْمًا ونِظامًا ونَظَّمَهُ: أَلَّفَهُ وجَمَعَهُ في سِلْكٍ فانْتَظَمَ وتَنَظَّمَ))[(٢)].

والفرق بين التأليف والترتيب والتنظيم ((أن التأليف يســـتعمل في ما يؤلف على اســـتقامة أو على اعوجاج، والتنظيم والترتيب لا يســـتعملان إلا في ما يؤلف على استقامة، ومع ذلك فإن بين الترتيب والتنظيم فرقا، وهو أن الترتيب هو وضع الشيء مع شـــكله، والتنظيم هو وضـــعه مع ما يظهر به، ولهذا اســـتعمل النظم في العقود والقلائد؛ لأن خرزها ألوان يوضع كل شيء منها مع ما يظهر به لونه))[(٣)].

وفي الاصـــطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناســـبة الدلالات على حســـب ما يقتضـــيه العقل. وقيل الألفاظ المترتبة المســـوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل))[(٤)].

وفي مصـــطلح علماء القرآن هو:((ارتباط آي القرآن بعضـــها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني))[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (١٣/ ٤٠١).

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ١٥٠٠).

(٣) الفروق في اللغة (ص: ١٢٦).

(٤) التعريفات للجرجاني (ص:٣١٠).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦).

فإنَّ السـورة مهما تعددت قضـاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد [(١)].

فالذين يتحدثون عن نظام القرآن يقصـدون جميع المصـطلحات السـابقة التي هي تبحث في ترتيب كلمات وآيات وموضـوعات وسـور القرآن الكريم حتى يظهر وجه تناسق المعاني وانتظام المباني.

(١) انظر: إمعان النظر في نظام الآي والسور، للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني (ص:٢٤).

المطلب الرابع
مصطلحات عامة في علم التفسير

أولًا: مقاصد السورة:

أ – المقصد لغة:

يرجع إلى مادة (ق ص د) وهي تدور على معنى التوجه والنهوض نحو الشـيء. قال ابن جني: أصـل مادة «ق ص د» ومواقعها في كلام العرب: التوجه والنهوض نحو الشيء، هذا أصله في الحقيقة»[(١)].

ب – اصطلاحًا:

هي الأهداف التي تتوجه نحوها آيات وموضـوعات السـورة وترجع إليها. فمثلًا مقصود سورة الإخلاص: تقرير وحدانية الله تعالى وكماله، وأهداف سورة المسد بيان عاقبة أذية النبي ﷺ. فموضـوعات السـورة هي المعاني الظاهرة في السـورة التي تحدثت عنها، وأما المقاصـد فهي المعاني الخفية التي تجمع تلك الموضـوعات، أو جاءت الموضوعات لتحقيقها.

من هنا فقد عرفها الفراهيدي: «جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصـول والمقصـود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسـري فيه كالروح والسـر، والكلام شرحه وتفصيله، وإنتاجه وتعليله، وربما يحسن إخفاؤه، فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه»[(٢)] وقد يعبر عنه: بغرض السورة، وهدف السورة.

---

(١) لسان العرب، (٣/٣٥٣).

(٢) دلائل النظام (ص:١٦).

ثانيًا: مقاصد القرآن:

هي الأهداف والغايات الكبرى التي نزل القرآن الكريم لبيانها وتحققها، كالتعريف بالمعبود الحق جل وعلا، وبيان طريق عبوديته، وعاقبة من عبده ومن عصاه.

ثالثًا: الكليات التفسيرية:

هي تفسير لفظ أو أسلوب ورد في القرآن الكريم على معنى مطرد أو أغلبي. كقولهم: كل زعم ورد في القرآن الكريم فقد ذم القائلون به، وقولهم: «الخير» حيث وقع في كتاب الله فهو المال(١).

رابعًا: الاختيار عند المفسرين:

هو الاقتصار على قول واحد في معنى الآية من الأقوال المحتملة والإعراض عن غيره، أو تمييزه عن غيره بتقديم أو بتعليل مختصر بنحو هو الأولى، أو الأظهر ونحو ذلك.

خامسًا: الترجيح عند المفسرين:

هو دراسة الأقوال في معنى الآية ثم الترجيح بينها وفق قواعد معتبرة بعد دراسة أدلة كل قول.

سادسًا: الاستدراك عند المفسرين:

الاستدراك في اللغة: «استدرك ما فات تداركه بأصلح خطأه، أو أكامل نقصه، أو أزالت لبسه »(٢).

وهو عند المفسرين: ذكر أقوال المتقدمين في تفسير الآية، ثم تعقبها بالمناقشة والتصحيح.

---

(١) معجم مصطلحات علوم القرآن (ص: ١٢٥).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٨١).

ويمكن تعريفه أيضًا بأنه: « اتْبَاعُ المفسر قولًا يذكره في بيان معنى في القرآن بقول آخر يصلح خطأه، أو يكمل نقصه، أو يبين لبسه »(١).

سابعًا: ملح التفسير:

وتسمى: «لطائف التفسير» و «نكت التفسير» وهي طرائف ولطائف تفسيرية لبعض الآيات القرآنية ليست من متين العلم ولكنها من لطائفه ودقائقه.

ولا يخلو منها تفسير، فمن مقل ومن مكثر، ومن المفسرين المعتنين بها: الزمخشري، والرازي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور...وغيرهم.

ومن أمثلة ذلك:

١- ورود لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ في كل آية من آيات سورة المجادلة.

٢- سورة طويلة ليس فيها أمر ولا نهي، ولا تحليل ولا تحريم، هي سورة يوسف.

٣- ثلاث سور متواليات ليس فيها لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ وهي سورة القمر، والرحمن، والواقعة.

٤- آية واحدة حوت جميع حروف الهجاء كلها هي آية [٢٩] من سورة الفتح والآية الأخيرة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩]، وكذا الآية (١٥٤) من سورة آل عمران: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٥- سبع آيات متواليات في آخر كل منهما اسمان من أسماء الله تعالى، هي قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٩] إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥].

(١) انظر: استدراكات السلف في التفسير، لنايف الزهراني (ص: ٩).

٦- تسع آيات متوالية تبدأ كل آية بحرف القاف، وتختم بحرف النون في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣١].

٧- آية جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين وذلك في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] (١).

ثامنًا: بدع التفسير:

هي الأقوال البدعية والخاطئة في تفسير الآيات القرآنية التي لا يسندها دليل من نقل أو عقل أو لغة (٢).

تاسعًا: الدخيل في التفسير:

هو مصطلح متأخر يراد به: ما دخل على التفسير من الروايات الضعيفة والموضوعة والآراء الباطلة(٣).

عاشرًا: غرائب التفسير:

هي الأقوال الغريبة في التفسير التي لا يسندها نقل ولا عقل أو دليل. كتفسير القلب بالصديق في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: صديقي (٤).

---

(١) انظر: معجم مصطلحات علوم القرآن، للدكتور محمد عبد الرحمن الشايع (ص: ١٤١).

(٢) المرجع السابق (ص: ٥١).

(٣) المرجع السابق (ص: ٨٧).

(٤) المرجع السابق (ص: ١١١).

الحادي عشر: الموازنة في التفسير:

هي المقابلة بين آراء المفسرين وأقوالهم، للوقوف على أوجه التماثل والتباين، والائتلاف والاختلاف.

الثاني عشر: المقارنة في التفسير:

هي دراسة آراء المفسرين وأقوالهم في معنى الآية ومناقشتها في ضوء المنهج العلمي، لاعتماد القول الراجح استنادًا على الأدلة المعتبرة شرعًا وعقلًا.

الفصل الثاني
التفسير في القرون المفضلة

المبحث الأول: التفسير النبوي للقرآن الكريم.

المبحث الثاني: تفسير الصحابة ﭫ للقرآن الكريم.

المبحث الثالث: تفسير التابعين للقرآن الكريم.

مدخل:

الكلام هنا عن التفسير في القرون المفضلة نحن هنا لا ندرسه من حيث بيان المعنى؛ وإنا ندرسه باعتباره أصل قام عليه علم التفسير من جهة، وهو يعتبر النواة لكل قاعدة انطلق منها العلماء في هذا العلم، فكل من يبحث في علم التفسير دون الرجوع إلى البيان النبوي، وما جاء عن أهل القرون المفضلة في العلم والعمل من الصحابة والتابعين يضل عن سواء السبيل، وقد كان العلماء ينكرون على من يريد فهم القرآن بتجاوز فهم النبي عليه السلام والصحابة والتابعين، ويعتبرون ذلك من مسلك أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إن الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن كما بلغوهم ألفاظه، ونقلوا هذا كما نقلوا هذا؛ لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون، وهم مبطلون في ذلك »(١)، فكل من يحاول فهم القرآن دون الرجوع للسنة وما جاء عن أهل القرون الفضلة فقد سلك الطرق المنحرفة في فهم القرآن الكريم التي سوف تنتهي به إلى الضلال.

فخير بيان نرتكز عليه في فهم القرآن، هو بيان الذي كلف ببيانه للناس، والذين بين لهم الرسول ﷺ ما يحتاج إلى بيان، ونقلوا إلينا بيانه، وبينوا ما احتاجه لبيان من بعده، ممن لم يبينه النبي ﷺ، بما لهم من خصوصية ترفعهم في العلم والعمل، وسوف يأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى، ثم الذين تتلمذوا على أيدي أصحاب النبي ﷺ.

وقد قمت بدراسة التفسير في القرون المفضلة، بما يوضح قيمة تفسيرهم، ومميزاته، والمصادر التي حوته، والأئمة الذين كانوا مرجع الأمة في تلك القرون المباركة، وكيفية

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧/ ٤١٥).

الاستفادة منه في فهم القرآن الكريم، بما يمثل أصولًا وقواعد ينطلق منها أي مسلم في فهم القرآن بطريقة سليمة صحيحة، ليس فيها عوج وانحراف، والله الهادي إلى سواء الصراط.

المبحث الأول
التفسير النبوي للقرآن الكريم

المطلب الأول: قيمة التفسير النبوي وأهميته للمفسر.

المطلب الثاني: أدلة بيان النبي ﷺ للقرآن، ومقداره.

المطلب الثالث: أوجه البيان النبوي للقرآن الكريم.

المطلب الرابع: أنواع التفسير النبوي للقرآن الكريم.

المطلب الخامس: مميزات التفسير النبوي، ومصادره.

المطلب الأول

قيمة التفسير النبوي وأهميته للمفسر

أكرم الله نبيه الكريم بإنزال القرآن الكريم على قلبه ليكون للعالمين نذيرا، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ثم أكرمه بأن جمع له القرآن في قلبه، وأطلق لسانه في تلاوته، وفتح قلبه لفهم معانيه، كما قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٦ -١٩]؛ ولذا كان النبي ﷺ مصدر الأمة في البلاغ والبيان، والمترجم لمعانيه من خلال سنته القولية والعملية والتقريرية، وصفاته الخُلْقِيَّة، فعن أبي الدرداء قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه)[(١)]، فهو المبين الأول له كما أمره الله ﷻ في قوله ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤]، والميسر لتلاوته وحفظه وفهمه بعد تيسير الله ﷻ له، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم:٩٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨]، والمنفذ الأول لأحكامه كما قال تعالى مادحًا له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وجعله للناس قدوة في تطبيق أحكامه، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، قال ابن تيمية رحمه الله: ((قد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر

---

(١) رواه أحمد في المسند ح رقم ٢٤٧٣٦، والطبراني في الأوسط ح رقم ٧١، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ١٤٠٦، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، وفي صحيح وضعيف الجامع ح رقم ٤٨١١.

أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه، وتدل عليه وتعبر عن مجمله، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر))(١).

من المصادر الأساسية لفهم القرآن الكريم التفسير النبوي للقرآن، وتظهر قيمة هذا التفسير من وجوه عدة أبرزها:

١. **أن النبي ﷺ أعلم الثقلين بالقرآن الكريم:** وهو فوق كل أحد في العلم والعمل بالقرآن الكريم، وقد تكفل الله له ببيانه وكشف معانيه، فهو أعرف الناس بالقرآن ولغته.

٢. **أن النبي ﷺ معصوم في أقواله:** التي هي بيان للقرآن؛ لأنها وحي، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

٣. **أن النبي مكلف ببيان معاني القرآن الكريم للناس:** من خلال أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، فلا عجب أن يكون أعلم الناس به، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤]، وقال ابن أبي حاتم رحمه الله في مقدمة كتابه: ((فإن الله عز وجل ابتعث محمدًا رسول الله ﷺ إلى الناس كافه، وأنزل عليه الكتاب تبيانًا لكل شيء، وجعله موضع الإبانة عنه، فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٦٤]، فكان رسول الله ﷺ هو المبين عن الله عز وجل أمره، وعن كتابه معاني ما خوطب به الناس، وما أراد الله عز وجل به وعني فيه، وما شرع من معاني دينه وأحكامه وفرائضه وموجباته وآدابه ومندوبه وسننه التي سنها وأحكامه التي حكم بها وآثاره التي

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٣٢/١٧).

بثها))[١]، فالسـنة((راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصـيل لمجمله، وبيان لمشكله، وبسط لمختصره؛ وذلك لأنها بيان له، فلا تجد في السنة أمرًا إلَّا والقرآن قد دلَّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصـيلية))[٢]، وقد قام النبي ﷺ بهذا البيان الذي أمر به على أكمل وجه، فكان من الواجب الرجوع إليه والاهتداء ببيانه.

٤. **أن الله ﷻ أمرنا بالالتزام ببيانه:** ولا يجوز التخلف عنه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧]، فليس بعد بيان الله ثم بيان رسوله بيان، وإنَّما بيان من بعده فيما لم يرد فيه بيانهما، فما صـح عن الرسـول ﷺ يجب الأخذ به، لأنَّه لا أحد أعلم بأحكامه وأفهم لمعانيه منه؛ لذا أمرنا بالرجوع إليه عند الاختلاف، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، من هنا قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: ((ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم))[٣].

٥. **أنه أصـح الطرق في فهم القرآن الكريم:** هو ما بينه النبي ﷺ باتفاق العلماء، قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: ((فإن قال قائل: فما أحسـن طرق التفسـير؟ فالجواب: إن أصـح الطرق في ذلك أن يفسـر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر،

---

(١) الجرح والتعديل، لعبد الرحمن الرازي (١/١، ٢).

(٢) الموافقات، للشاطبي (٤/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٢٧).

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»[١].

٦. **أن فهم القرآن دون الرجوع إلى السنة ضلال مبين:** لا يمكن فهم القرآن في كثير من جوانبه إلا بالرجوع إلى السنة، قال الشاطبي رحمه الله: «إن الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم، خارجين عن السنة إذ عولوا على ما بنيت عليه من أن الكتاب فيه بيان كل شيء فاطرحوا أحكام السنة فأداهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله»[٢]، قال الطبري رحمه الله: «فقد تبين ببيان الله جلَّ ذكره أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ؛ وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره – واجبه ونَدْبِهِ وإرْشاده–، وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمَّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ بتأويله بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها، دالَّةٍ أمَّتَه على تأويله »[٣].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (٢/٣٧).

(٢) الموافقات (٤/١٧).

(٣) جامع البيان (١/٩٠).

المطلب الثاني

أدلة بيان النبي ﷺ للقرآن الكريم ومقداره

أولًا: أدلة بيان النبي ﷺ للقرآن الكريم:

ومما يدل على بيان النبي ﷺ للقرآن الكريم، وأنه كلف ببلاغه وبيانه، وقد قام بذلك خير قيام أدلة كثيرة من ذلك:

الدليل الأول: الآيات الصريحة التي تبين أن مهمة الرسول كما هي البلاغ كذلك من مهمته البيان، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]. فالرسول وظيفته بلاغ ما أنزله الله إلى الناس، وبيانه لهم، والآيات السابقة نص في أن الرسول ﷺ قد أمره الله تبارك وتعالى ببيان القرآن الكريم للناس، وقد قام بذلك قبل موته حق القيام.

والقرآن الكريم من هذا الوجه لا يستغني عن السنة بحال، وهي صنو له في البيان، وكل ما بينه الرسول عليه السلام بينه بأمره جل وعلا وإذنه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ:(أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ...)[١].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم، وأبو داود في سننه ح رقم ٤٦٠٤، وابن ماجة في سننه ح رقم ١٢، والحاكم في المستدرك، وقال: " صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه "ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

الدليل الثاني: ما جاء عن الصحابة في أنهم كانوا يتعلمون القرآن ويتعلمون معانيه، كما جاء عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: كَعُثْمَانِ بْنِ عفان وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا)؛ وفي رواية قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[1]. فهذا الدليل يبين أن الصحابة رضوان الله عليهم تعلموا تفسير القرآن من الرسول ﷺ، إذ لا يعقل أن الرسول ﷺ يلقنهم ويحفظهم آيات القرآن الكريم وهم لا يعقلون معناها، هذا ليس بمعقول! وَلِهَذَا كَانُوا يَبْقَوْنَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ. وَقَالَ أَنَسٌ: كَانَ الرَّجُلُ إذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَلَّ فِي أَعْيُنِنَا))، يعني: عَظُم... وَأَقَامَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى حِفْظِ الْبَقَرَةِ عِدَّةَ سِنِينَ قِيلَ: ثَمَانِ سِنِينَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ[2]؛ لأن طريقتهم في القراءة والحفظ كانت طريقة مربوطة بالعلم والعمل، فإذا ما قرأ الرجل سورة البقرة فمعنى ذلك أنه حفظها وعرف معانيها وتفسيرها وما فيها من الأحكام والعلم وعمل به؛ ولذلك كانوا إذا قرأوا القرآن وأرادوا حفظه يأخذون مددًا طويلة لأنهم يراعون في حال الحفظ معرفة المعنى، وهذا هو الهدي الذي رباهم عليه النبي ﷺ.

الدليل الثالث: ما جاء في القرآن الكريم من الأمر بالتدبر والتعقل والفهم للمعنى، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]. كيف يسمع

---

(١) رواه الطبري في تفسير (١/ ٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ١٨٠١، والحاكم في المستدرك(١/ ٥٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٣١).

الصـــحابة رضـــوان الله عليهم هذه الآيات الكريمات التي فيها الأمر بالتدبر ثم هم لا يتدبرون القرآن؟! هل يستطيع الإنسان أن يتدبر في شيء وهو لا يعرف معناه؟ وقوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام:٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]؟ وَعَقْلُ الْكَلَامِ مُتَضَـمِّنٌ لِفَهْمِه. فإذا كان الصـحابة عقلوا القرآن فهذا دليل على أنهم فهموه وعرفوا تفسيره وكشفوا معانيه وتبينوا مراده سبحانه وتعالى بحسب ما علمهم إياه رسول الله ﷺ.

الدليل الرابع: لا يعقل ولا يتصـــور أنهم تلقوا من النبي ﷺ ألفاظًا بدون فهم: قال شـيخ الإســلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصـود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك. وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟»[١].

فإذا قرأ الرسـول ﷺ على الصـحابة كلام الله، فلابد أن يكونوا قد فهموا معانيه، إما بحسب لغة العرب التي عرفوها، ويكون إقرار الرسولﷺ لفهمهم سنة تقريرية، وإما أن يكون بأحد طرق البيان التي فهموها من النبي ﷺ، ولا بد أن يكونوا قد ســألوه ما لم يفهموه.

وهذا كلام صحيح، فإننا لو كنا مثلًا نقرأ كتابًا في الطب أو في الكيمياء بدون فهم، فإننا لن نســتفيد أبدًا، فلقد جرت العادة المؤكدة أنه لا يمكن أن نقرأ أي كتاب إلا ونستشرحه، بأن نطلب من يشرحه لنا، وإلا صارت قراءتنا له عبثًا.

الدليل الخامس: قلة الاختلاف بين الصـــحابة في تفســير القرآن الكريم؛ بل يكاد يكون معدومًا، فلا يوجد اختلاف إلا في قضـايا هي من باب الناسخ والمنسوخ، أو

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

قضايا محتملة للأوجه في الغالب، يدل على أن مصدرهم في هذا التفسير واحد، وأنهم تلقوه عن النبي ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولِهَذَا كَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ قَلِيلًا جِدًّا وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الصَّحَابَةِ فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى مَنْ بَعْدَهُمْ»(١). فهذه الأدلة وغيرها تبين بيان النبي ﷺ إضافة للروايات الكثيرة التي تنقل لنا ما بينه لأصحابه.

ثانيًا: مقدار التفسير النبوي للقرآن الكريم:

هناك خلاف بين أهل العلم رحمهم الله في مقدار بيان النبي ﷺ للقرآن الكريم إلى قولين:

القول الأول: إن النبي ﷺ بين لأصحابه ﷺ جميع معاني القرآن:

واستدلوا على قولهم بما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤]، ووجه الدلالة أن البيان يتناول الألفاظ والمعاني معًا.

٢. حديث أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما: (أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم والعمل جميعا)(٢). فهذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلّموا من رسول الله ﷺ معاني القرآن كلها كما تعلموا ألفاظه.

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٣٣٢).

(٢) جامع البيان الطبري (١/ ٩٥)، والإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤٦٨).

٣. أنَّ كل كلامٍ المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وأن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون قد بلغ ألفاظه دون أن يبين لهم معانيه، والله تعالى خاطبه بقوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

القول الثاني: إن النبي ﷺ لم يبين إلا ما احتاج إلى بيان:

فلم يبين إلا ما احتاج إلى بيان كتفصيل المجمل أو تقييد مطلق، أو تخصيص عام، أو تعريف مبهم، أو دفع إيهام وإشكال، ونحو ذلك من المعاني التي لا يمكن التوصل إليها من خلال اللغة والاجتهاد، وإنما يحتاج الناس فيها إلى بيان وحي السنة، مثال ذلك: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً. ثُمّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسّمًا. فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (أُنْزِلَتْ عَلَيّ آنِفًا سُورَةٌ). فَقَرَأَ: {بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر:١ – ٣] ثُمّ قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟) فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (فَإِنّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبّي ﷻ. عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. آنِيَتُهُ عَدَدُ النّجُومِ. فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ. فَأَقُولُ: رَبّ، إِنّهُ مِنْ أُمّتِي. فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ)(١)، واستدلوا على قولهم بما يأتي:

١- قالوا: إن قوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا نص في توضيح ما يحتاج إلى بيان، وأما ما هو بيّن فكيف يبينه كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، فإنه لا يفهم منه غير ما هو متبادر، وكقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، فلا يفهم منه سبعين أو تسعين.

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة ح رقم ٦٣٥.

٢- قالوا: لو بين النبي ﷺ كل القرآن لفظة لفظة لنقل إلينا بيانه، ولما كانت هنالك فائدة من نزوله بلسان عربي مبين، وقد كان الكفار يسمعون القرآن ويفهمونه دون شرح وتفسير من النبي ﷺ، وأسلم بعضهم بمجرد ما استمع إلى بعض ألفاظه؛ لما كان لها من الأثر العظيم في نفسه.

٣- وقالوا: لو كان النبي ﷺ بيَّن كل شيء لما أمر الله بتدبره، ولما دعا النبي ﷺ لابن عباس بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)؛ ولأنه بمقتضى ذلك يكون الناس على حد سواء في تأويله، فما الفائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء؟

قالوا: ما رواه أبو عبد الرحمن السلمي يفيد بأنهم ما كانوا يتجاوزون الآيات حتى يفهموها، وذلك من خلال تدبرها، أو من خلال الرجوع إلى النبي ﷺ لتوضيح ما يشكل عليهم.

القول الراجح:

ومن خلال النظر إلى القولين وأدلتها نجد الراجح أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه الكثير من معاني القرآن، فبين لهم كل ما احتاج إلى بيان، مما أجمل أو أشكل ونحوهما، وترك ما هو معلوم بالنسبة لهم، أو ما لا فائدة من بيانه كلون كلب أصحاب الكهف، وطول عصا موسى، أو من أي الشجر كانت، وأنواع الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ونحو ذلك؛ كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن؛ لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس – رضي الله عنهما –بقوله: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء من كلامها، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[١].

(١) جامع البيان، لأبي جعفر الطبري (٢/ ١١٧).

وبدهي أن رســول الله ﷺ لم يفســـر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفســـر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته، وهو الذي لا يعذر أحد بجهله؛ لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجري مجرى الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه، وإنما فسّـر لهم رسـول الله ﷺ بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسّر لهم ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم: كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضــيح المشــكل، وما إلى ذلك من كل ما خفي معناه والتبس المراد به. قال الزركشـي رحمه الله: ((ينقسـم القرآن العظيم إلى: ما هو بين بنفسـه بلفظ لا يحتاج إلى بيان منه ولا من غيره وهو كثير... وإلى ما ليس ببين بنفســـه فيحتاج إلى بيان، وبيانه إما فيه في آية أخرى أو في السنة لأنها موضوعة للبيان))[1].

وإن مما يؤيد أن النبي ﷺ لم يفسّـر كل معاني القرآن، أن الصـحابة رضـوان الله عليهم أجمعين وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، ولو كـان عندهم فيه نصّ عن رســـول الله ﷺ لما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص، إذ ثبت من ناحية النقل أن رسول الله ﷺ لم يفسّر القرآن كله.

وأما من ناحية العقل، فالعقل يتسـاءل: إذا كان الرسـول قد فسّـر القرآن كله، فأين هذا التفسـير؟ والباحـث يعلم أن كل أقوال النبي ﷺ وحركاته ضـبطت في كتب السـيرة والسنة والأحـاديث الشريفة، ولم ينقل لنا أحد تفسيرًا كاملًا عن النبي ﷺ.

وهنالك حكمة أخرى ذكرها العلماء من عدم بيان النبي ﷺ لكل القرآن الكريم، قال الزركشي رحمه الله- وهو يتحدث عن الحكمة من أن النبي ﷺ لم يفسّـر القرآن كله -: ((إن

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٣).

الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه، فلم يأمر نبيه على التنصيص على المراد»[١].

فالآية التي تحدث عن بيانه للقرآن، أشارت إلى التفكر في معانيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤]، قال الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «فحثنا على التفكر فيه، وحرضنا على الاستنباط والتدبر، وأمرنا بالاعتبار لنتسابق إلى إدراك أحكامه، وننال درجة المستنبطين والعلماء الناظرين»[٢].

(١) البرهان في علوم القران للزركشي (١/ ١٥).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٤).

المطلب الثالث

أوجه البيان النبوي للقرآن الكريم

بيان الرسـول ﷺ للقرآن الكريم له أوجه متنوعة، قال ابن القيم رحمه الله: «البيان من النبي ﷺ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًا.

الثاني: بيان معناه وتفسـيره لمن احتاج إلى ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشـرك، وأن الحسـاب اليسـير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرى عند سـدرة المنتهى هو جبريل، كما فسـر قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشـمس من مغربها، وكما فسـر قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة، وكما فسـر قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل من ربك وما دينك...

الثالث: بيانه بالفعل كما بيَّن أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سـئل عنه من الأحكام التي ليسـت في القرآن، فنزل القرآن ببيانها كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تمضخ بالخلوق فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسـل أثر الخلوق... إلخ ما ذكر من أنواع»[1].

---

(١) إعلام الموقعين (٢/٢٩٥، ٢٩٦).

فبيان النبي ﷺ للقرآن الكريم في مجمله ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: بيان من عنده ﷺ:

وهذا يرجع إلى سنته القولية والعملية والتقريرية، والسنة في أساسها هي بيان للقرآن الكريم، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام، قال ابن القيم رحمه الله: «والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه، أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه ولا تخرج عن هذه الأقسام»[1]، وإليك تفاصيل هذه الأوجه الثلاثة:

الوجه الأول: ما جاء في السنة بيانًا للقرآن الكريم:

وبيان السنة للقرآن له أوجه متعددة من ذلك:

١- **بيان المجمل:** فقد أمر الله في كتابه ببعض الفرائض أمرًا مجملًا يحتاج إلى بيان آخر لا تجده إلا من خلال بيان النبي ﷺ في سنته، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣]، فجاءت السنة ووضحت مواقيت الصلاة وعدد ركعاتها وكيفيتها، وبينت مقادير الزكاة، ووضحت كذلك مناسك الحج تفصيلًا لا تجده في القرآن الكريم؛ ولذا قال النبي ﷺ وهو يوضح الصلاة والحج من خلال سنته القولية والعملية والتقريرية (وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي

---

(١) إعلام الموقعين (٢/٣٠٧).

أُصَلِّي)[١]، وقال جابر رضي الله عنه: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ:(لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ)[٢].

٢- بيان المبهم: كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ [آل عمران:٩٣]، فجاءت السنة فوضحت أن تحريمه كان للإبل ولحومها وألبانها، وكقوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فقد جاء عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: ((شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ مَلأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا))، ثُمَّ صَلاَّهَا بَيْنَ الْعِشَائِينِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ)[٣].

ومثل آيات القصاص في النفس، فقد جاءت مجملة بينتها السنة، قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢]، صرح في هذه الآية الكريمة أنه كتب على بني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ولم يتعرض هنا لحكم من قتل نفسًا بنفس، أو بفساد في الأرض، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، فبين أن قتل النفس بالنفس جائز، في قوله: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾[المائدة:٤٥]، وفي قوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة:١٧٨]... ثم قال: واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السنة))[٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة ح رقم ٦٢٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الحج، باب: استحباب رمي العقبة يوم النحر راكبًا ح رقم ٢٢٨٦.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ح رقم١٠٣٠.

(٤) أضواء البيان (٣٧٢/١).

٣ – **بيان تقييد المطلق:** في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المائدة:٣٨] فوضحت السنة أن اليد التي تقطع هي اليد اليمنى، ومن مفصل الكف. وكقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾ [البقرة:١٩٦]، فالآية جاء فيها الصيام والصدقة والنسك مطلقة، وقيد ذلك في السنة، الصيام بثلاثة أيام، والصدقة بستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، والنسك بذبح شاة تفرق على الفقراء، كما في حديث عَبْد اللَّهِ بْنَ مَعْقِلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ – فَسَأَلْتُهُ عَنْ فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ، فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي، فَقَالَ: (مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاةً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً وَهْيَ لَكُمْ عَامَّةً) (١).

٤– **بيان تخصيص العام:** كقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[النساء:١١]، فهي تعطي كل أولاد الميت حظ الميراث، إلا أن السنة خصصت من ذلك أولاد الأنبياء كما جاء عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: قوله (فمن كان مريضا أو به أذى ح رقم ٤٥١٧، ومسلم في كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم ح رقم ١٢٠١.

اللَّهِ ﷺ: (لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَــــدَقَةٌ)[١]، والكافر من أبناء الميت لقوله ﷺ: (لا يَرِثُ الْمُسْـلِمُ الْكَافِرَ، وَلا الْكَافِرُ الْمُسْـلِمَ)[٢]، وقاتل مورثه لقوله: (لَيْسَ لِقَاتِلٍ مِيرَاثٌ)[٣].

وكقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة:٣] مع قوله ﷺ عن ميتة البحر: (هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ)[٤]، وتخصيص عدة المتوفى عنها زوجها في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾ [البقرة:٢٣٤]، فخصصته السنة لغير الحامل، فإن عدتها وضع حملها كما جاء عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْـعُودٍ أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُـبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الأَسْـلَمِيَّةِ، فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا، وَعَمَّا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ أَنَّ سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ ابْنِ خَوْلَةَ، وَهُوَ فِي بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَهْيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب: قول النبي ﷺ ح رقم ٦٢٣٣، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، حكم الفيء ح رقم ٣٣٠٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم ح رقم ٦٢٦٧، ومسلم في كتاب الفرائض ح رقم ٣٠٢٧.

(٣) رواه ابن ماجة ح رقم ٢٦٣٦، وأحمد في المسند ح رقم ٣٢٩، ومالك في الموطأ ح رقم ١٦٣٦.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الطهارة، باب: ما جاء في ماء البحر أنه طهور، ح رقم ٦٤، وقال حسن صحيح، والنسائي كتاب الطهارة، باب: ماء البحر، ح رقم ٥٩، ٣٣٠، ٤٢٧٥، وأبو داود رقم ٧٦.

فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ- فَقَالَ لَهَا مَا لِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً، لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ، إِنَّكِ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي)[1]. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: « فَلاَ أَرَى بَأْسًا أَنْ تَتَزَوَّجَ حِينَ وَضَعَتْ وَإِنْ كَانَتْ فِي دَمِهَا غَيْرَ أَنْ لاَ يَقْرَبُهَا زَوْجُهَا حَتَّى تَطْهُرَ).

٥- بيان معنى للفظة أو جملة: كقوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ)[2].

وعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَذَكَرَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنْ الْكَلالَةِ مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: يَا عُمَرُ أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ)[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا ح رقم ٣٧٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها ح رقم ٢٨٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة ح رقم ٤٦٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الفرائض، باب: ميراث الكلالة ح رقم ٣٠٣٥.

وكما جاء عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)(١). وبيان معنى جملة كتفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى(٢)، وتفسير الصلاة الوسطى بالعصر، كما جاء عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ مَلأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا». ثُمَّ صَلاَّهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ(٣).

٦ – بيان الغيب: سواء كان يتعلق بما مضى وسلف، أو فيما هو آتٍ مما لا سبيل لعلمه إلا عن طريقه، وقوله فاصل في النزاع، كقوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾[الفجر:٢٣]، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)(٤)، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم:٧١]، فقد أخبر النبي ﷺ عن تفاصيل ذلك في قوله: (يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ح رقم ٥٠٥٥.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وحسَّنه وابن حبان عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ الصَّلاَةُ الْوُسْطَى هِيَ صَلاَةُ الْعَصْرِ ح رقم ١٤٥٧.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ، ح رقم ٥٠٧٦.

عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيُخْرَجُونَ مِنْ النَّارِ)[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤] فقال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها: أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا) قال: (فهذه أخبارها)[٢].

٧ - بيان النسخ: في مثل قول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، قال شُرَحْبِيل بْنُ مُسْلِمٍ الْخَوْلانِيُّ: سَمِعت أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ)[٣].

الوجه الثاني: ما جاء في السنة مؤكدًا لما في القرآن الكريم:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالي (وجوه يومئذ ناضرة) ح رقم ٦٨٨٥، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية ح رقم ٢٦٧.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح رقم ٧٤٦٨، والحاكم في المستدرك ح رقم ٢٩٤٥، وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي في سننه ح رقم ٢٤١٢، وقال حديث حسن غريب صحيح، وصححه الألباني في الجامع الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذي ح رقم ٢٠٩٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع، وأبو داود في سننه ح رقم ٢٥٠١وابن ماجه في سننه ح رقم ٢٧٠٩.

فالوجه الثاني من البيان النبوي أن يأتي بيان السـنة مؤكدًا ومقررًا لما ورد في القرآن الكريم من أحكام وحكم وقصص وأخبار ومواعظ، وهذا كثير جدًا في السنة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ويقول النبي ﷺ: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)(١).

وكقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:١٩]، مع قوله ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (٢).

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لاَ يَفْرِكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ آخَرَ)(٣). الْفَرْكُ: الْبُغْضُ.

وكقوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فجاءت السنة مؤكدة على ما في الآية كما في حديث أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّصِ(٤) فَقَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، ولا صَلاَةَ بَعْدَهَا

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ح رقم ٥٦٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف ح رقم ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: النكاح، باب: الوصية بالنساء ح رقم ٤٧٨٧، ومسلم في كتاب الرضاعة، باب: الوصية بالنساء ح رقم ٢٦٧١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء ح رقم ٢٧٥٠.

(٤) قال النووي: " هو بميم مضمومة وخاء معجمة ثم بميم مفتوحة وهو موضع معروف " شرح صحيح مسلم للنووي (١٩/ ٢١٩).

حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ وَالشَّاهِدُ النَّجْمُ) [(١)]، ومثله ما جاء في المحرمات والمنهيات كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥١]، فتأتي السنة مؤكدة لهذه المعاني، كما جاء في حديث أَنَس بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ) [(٢)].

الوجه الثالث: ما جاء في السنة بيانًا زائدًا على القرآن:

من أوجه بيان السنة أن تأتي بأحكام زائدة على ما جاء في القرآن كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلا عَلَى خَالَتِهَا)[(٣)]، وهو قد جاء بما يزيد على ما نص عليه في القرآن في المحرمات في النكاح، وكتحريم الحُمُر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد[(٤)]، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحصن. وعلاقة هذا بالتفسير أنه لا بد عند بيان الآية أن نوضح ما أضافته السنة من زيادة حتى يكتمل المعنى. فهو وجه له ارتباطه القوي بالتفسير.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها ح رقم ١٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الديات، باب: قوله الله تعالى ومن أحياها ح رقم ٦٣٦٣.

(٣) أخرجه البخاري كتاب: النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها ح رقم ٤٧١٧، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ح رقم ٢٥١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٥٠).

القسم الثاني: بيان متوقف على معانٍ أشكلت:

فالقسم الثاني يتعلق بمعان أشكلت على بعض الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه ﷺ فوضح لهم ما أشكل عليهم، وهذا له أمثلة كثيرة، فمن ذلك:

١-ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله رضي الله عنه قال: لَمَّا نزل قولــه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] قَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣])[1].

٢-وعن نَافِعِ أن ابْنَ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ) قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴾ [الانشقاق:٧-٨] قَالَتْ: فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ)[2].

٣-وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: (لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم:٢٨]، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير، باب: " ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " ح رقم ٤٦٢٩.

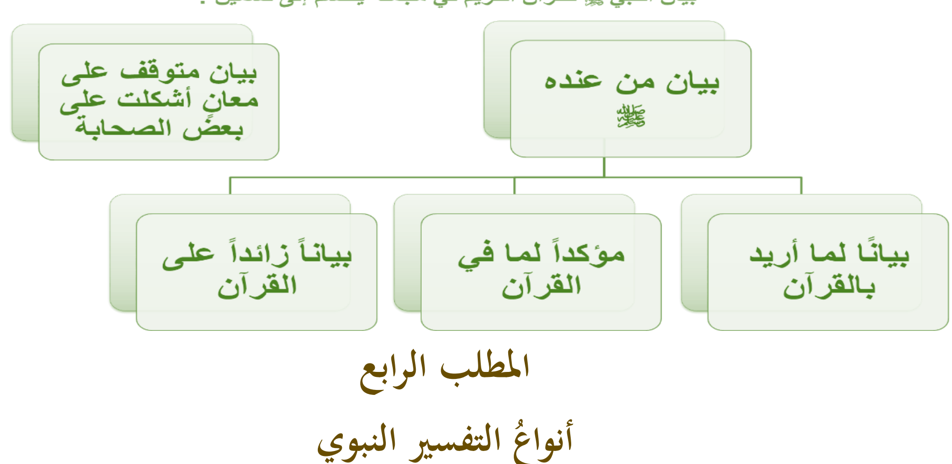
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: العلم، باب: من سمع شيئًا فلم يفهمه فراجع فيه ح رقم ١٠٠، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: إثبات الحساب ح رقم ٥١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء ح رقم ٤٠٧٥.

٤-وروى الترمذي في السنن عن علي ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر، فقال: (يوم النحر) (١).

٥-وكما ورد في الصحيحين عن عدي بن حاتم ﵁ لما نزلت: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[البقرة: ١٨٧]، فقد جاء عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﵁ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلا يَسْتَبِينُ لِي فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: (إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ) (٢).

صورة بيانية لخلاصة ما ذكر عن أوجه البيان النبوي:



المطلب الرابع

أنواعُ التفسيرِ النبوي

أولًا: أنواع التفسير النبوي:

---

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح، أبواب الجمعة، أبواب الحج عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في يوم الحج الأكبر ح رقم ٩١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم، باب: قوله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبن ح رقم ١٧٨٣.

التفسير النبوي كما له أوجه متعددة، فكذلك ينقسم إلى نوعين من حيث كيفية البيان وطريقته:

النوع الأول: بيان صريح في معنى الآية:

وهو الذي يكون قصدُ بيان معنى الآية واضحًا من خلال أقواله كما بيَّنا سابقًا، أو من خلال أفعاله، وتقريراته، ولا تفهم الآية فهمًا صحيحًا إلا به.

مثال بيانه بالفعل: ما جاء في حديث جابر الطويل في وصف حجة النبي ﷺ: (حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَصَلَّى الْفَجْرَ - حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ - بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ)(١)، فهي بيان فعلي لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨]، ولهذا قال الشنقيطي: «أفعاله في حجته تفسير لآيات الحج»(٢).

ومثال تقريراته ﷺ في التفسير: ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنْ الْيَهُودِ فَقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَعَلَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَضْحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا وَتَصْدِيقًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) ح رقم ١٦٧٠، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) ح رقم ٣٠٠٩.

(٢) أضواء البيان (٤/٤٩٦).

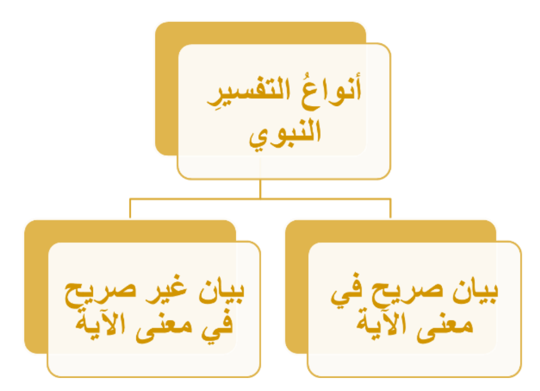
لِقَوْلِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧])[١]فهذا تقرير نبوي لمعنى الآية، وكل هذه الأوجه الصريحة هي بيان للقرآن بالسنة، وهي أعلى أنواع التفسير وتنزل في منزلة بيان القرآن للقرآن.

النوع الثاني: بيان غير صريح في معنى الآية:

وهذا النوع شامل لعموم السنة النبوية من أقوال وأفعال وتقريرات، وهو النوع الذي حاول العلماء الاجتهاد فيه بحمل ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث والاستفادة منها في بيان الآيات، بسبب التشابه مع الآية في بعض الألفاظ، أو في الموضوع ونحو ذلك، والمعول فيها اجتهاد العالم وقدرته العلمية والذهنية في توظيف السنة في بيان القرآن. ومن هنا اختلفت فيه مذاهب العلماء في القلة والكثرة، وفي الكيفية، وأمثلته متوفرة في كل كتب التفسير بالمأثور، خاصة جامع البيان لابن جرير، ومعالم التنزيل للبغوي، وتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، والذي يلاحظ في منهجهم عدم التوسع في تفاصيل الأحكام بما يخرج التفسير عن مقصوده، وهو بيان وتوضيح النص القرآني، تاركين بقية ما جاء في السنة من تفصيل بما يتناسب مع البسط في تفاصيل العلوم الأخرى من عقيدة وفقه ونحوهما، وهذا هو بيان القرآن بالسنة، وهو يلي بيان القرآن بالقرآن وبيان السنة للقرآن وهو محل أخذ ورد؛ لأنه اجتهاد علماء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة ح رقم ٧٥١٣، ومسلم في كتاب التوبة، باب: في صفة القيامة والجنة والنار ح رقم ٧٢٢٤.


أنواعُ التفسيرِ النبوي
بيان صريح في معنى الآية
بيان غير صريح في معنى الآية

المطلب الخامس

مميزات التفسير النبوي ومصادره

أولًا: مميزات التفسير النبوي:

١- لم يفسر النبي ﷺ من القرآن الكريم إلا ما احتاج إلى بيان، أو ما أشكل فهمه على بعض الناس على الراجح، فالتفسير الصريح لم يشمل كل القرآن.

٢- تفسير النبي ﷺ للقرآن هو أعلى أنواع التفسير بعد تفسير القرآن الكريم بالقرآن؛ لأن أقواله في التفسير وحي يجب الأخذ بها، ولا يجوز تقديم قول أحد عليها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣ -٤]، وكل ما جاء عنه من بيان لا يستغني عنه مسلم.

٣- كان تفسيره ﷺ سهلًا واضحًا بعبارات بليغة وجيزة دون استطراد إلى ما لا صلة له بالتفسير؛ لأنه قد أوتي جوامع الكلم.

٤- كان بيانه ﷺ للقرآن الكريم بقوله وفعله، ويتأول القرآن فيعمل به، ومثال ذلك: ما جاء عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِانظر مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو

لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَــائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[(١)].

٥- كل ما فسره النبي ﷺ نقل إلينا بالروايات الصحيحة الثابتة الموجودة والمنتشرة في كتب السنة، وكتب التفاسير المسندة، فتفسيره موثق في مصادره المعروفة.

ثانيًا: مصادر التفسير النبوي:

بتتبع ما جاء في أمهات الكتب تبين أن أهم مصادر التفسير النبوي هي:

١ - كتب الأحاديث الشريفة الصحاح، والسنن والمسانيد والمعاجم.

٢ - كتب التفسير: وخاصة المشهورة المسندة، وأهمها: التفسير، لعبد الرزاق الصنعاني (ت: ٢١١)، وجامع البيان، لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧).

كما يرجع إلى كتب التفسير الجامعة للتفسير بالمأثور غير المسندة: كـــ « معالم التنزيل للبغوي (ت:٥١٦)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ت: ٧٧٤)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (ت:٩١١)، وغيرها.

٣ - كتب التاريخ والسير والمغازي: ولعل أهمها السيرة النبوية لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الأمم والملوك للطبري وغيرهم.

٤ - كتب علوم القرآن وأســباب النزول: مثل كتاب البرهان للزركشـــي، والإتقان للسيوطي، وأسباب النزول للسيوطي، وأسباب نزول القرآن للواحدي، والعجاب في بيان الأســباب لابن حجر، والصــحيح المســند في أســباب النزول لمقبل بن هادي الوادعي، وغيرها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، سورة البقرة، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك ألن جانبك، ح رقم: ٤٤٩٦.

ولكن الذي ينبغي أن يراعى في التفسـير النبوي التثبت من صـحة إسـناده إلى النبي ﷺ، بتخريجه، والنظر في أقوال العلماء في الحكم عليه، وتوجيهه في الفهم.

المبحث الثاني

تفسير الصحابة ﭫ للقرآن الكريم

المطلب الأول: قيمة التفسير المأثور عن الصحابة ﭫ.

المطلب الثاني: تفاوت فهم الصحابة لمعاني القرآن وأسبابه.

المطلب الثالث: منهج الصحابة في التفسير ومميزاته.

المطلب الرابع: أشهر المفسرين من أصحاب النبي ﷺ.

المطلب الخامس: الموقف من تفسير الصحابة ﭫ.

المطلب الأول

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة[١] ﵃

الصحابة رضي الله عنهم هم أعلم الناس بالقرآن الكريم وتفسيره ومقاصده من بعد النبي ﷺ، وأقوالهم في تفسير القرآن الكريم لها أهمية ومنزلة خاصة، وقيمة عالية، وهي مقدمة على أقوال غيرهم من الناس؛ بل جعلها العلماء من أهم مصادر التفسير، وذلك للآتي:

أولًا: التعلم على يد معلم القرآن الأول الرسول ﷺ: فهم الذين علمهم النبي ﷺ الوحي ورباهم عليه، وبين لهم معانيه، وفصل لهم أحكامه حتى فهموها ووعوها على أكمل صورة، فنالوا بركة الصحبة، وفضل التعلم بين يديه، على أفضل طريقة في التعلم والبيان، وأقوم منهج في الرعاية والاهتمام، وقد فتح لهم النبي ﷺ المجال واسعًا ليرجعوا إليه في كل ما أشكل عليهم، أو خفي معناه عندهم، وطبق لهم ما أنزله الله عليه سلوكًا ومنهجًا في حياته وحياتهم، ورباهم على نهجه خير تربية، وتلقوه على مكث بين يديه، كما قال تعالى:﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦]، ومنهم من دعا له الرسول ﷺ بالفقه في الدين وتعلم التأويل، كما جاء عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: (اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ)[٢].

وهم الذين تلقوا الوحي الرباني من النبي ﷺ بدون واسطة، وبتجرد تام، وإيمان كامل، وتسليم مطلق من غير حرج وتردد. يصور لنا ذلك الإمام اللالكائي (ت: ٤١٨هـ)

---

(١) عرف ابن حجر بقوله:" الصحابي من لقي النبيﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام" انظر: نزهة السامعين في رواية الصحابة عن التابعين(ص:١١١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ اللهم علمه الكتاب، ح رقم ٧٣.

رحمه الله فيقول:((فأخذوا الإسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة، من غير واسطة، ولا سفير بينهم وبينه واصلة، فجاولوها عيانا، وحفظوا عنه شفاها، وتلقنوه من فيه رطبا، وتلقنوه من لسانه عذبا، واعتقدوا جميع ذلك حقا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا... فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، والدعوة لهم من الله بالمغفرة؛ فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه، فحري أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته، وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه، ومعولها عليهم فيما يختلف فيه من أموره))[١].

ثانيًا: عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل: فعرفوا زمان نزوله ومكانه وأحواله، وناسخه ومنسوخه، ومتقدمه ومتأخره، وهذا أورثهم مزيد فهم لا يشاركهم فيه غيرهم. قال ابن تيمية رحمه الله:((وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة وأحوال الرسول ﷺ لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مراده ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك))[٢]. ومن الأمثلة على ذلك: ما فهمه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه من قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] لما حمل رجل يوم القسطنطينية على العدو فقال الناس: مه، لا إله إلا الله؛ يلقي بنفسه إلى التهلكة... فذكر أبو أيوب سبب نزولها، وقال: فالإلقاء إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد)[٣]، كما جاء عن شَقِيق بْن سَلَمَةَ قَالَ:

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٢، ٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/٢٠٠).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩ / ٩٩) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

خَطَبَنَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ:(وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُــورَةً، وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْــحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ، قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي الْحِلَقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ)(١).

ثالثًا: أنهم أعلم الناس بلغة القرآن الكريم: فقد نزل القرآن بلســـانهم ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ جريا على معهودهم في الكلام وعـاداتهم في الخطـاب، من غير تعلم لغة ولا مدارسة ولا اكتسـاب لأساليبها، ولا يعلم أحد أفصح لسـانا وأسدَّ بيانا وأقوم خطابًا من أهل القرون الأولى المفضلة، وأولاهم في هذا السبق صحابة رسول الله ﷺ.

ولا شـك أن الجهل باللسـان العربي من أكبر أسباب سوء الفهم للنصوص الشرعية، ولذلك قال الإمام الشـــافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لســـان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»(٢).

ثم إن اللغة التي تعد مرجعًا في تفســير القرآن وفهم نصــوصــه هي اللغة التي كانت متداولة في عصــر التنزيل دون الالتفات إلى اللغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصــور التاليـة من دلالات الألفـاظ، مما لا ينبغي تحكيمـه في فهم القرآن الكريم. قـال ابن تيميه رحمه الله:« من لم يعرف لغة الصــــحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ، وعاداتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه...»(٣).

رابعًا: علو مكانتهم في العلم والعمل: وقد ثبت الثناء عليهم في الكتاب والسـنة من الله ورسـوله في علمهم، وعملهم، وصـدقهم، وإخلاصـهم بصـورة يندر لها مثيل، وما أمرنا بالاقتداء بهم وإتباع منهجهم إلا لما لهم من فهم صائب، وعمل صالح، فهم خير

---

(١) أخرجه البخاري في صـحيحه كتاب فضـائل القرآن، باب: القراء من أصـحاب النبي ﷺ ح رقم ٤٦١٦، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل عبد الله بن مسعود ح رقم ٤٥٠٢.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١/٢٤٣).

هذه الأمة علمًا وعملًا، وأبرها قلوبًا، وأكثرها تقوى؛ بل هم الذين ألزموا كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح:٢٦]؛ ولذلك جعل الله علمهم ينبوعًا من الحكمة، وأنوارًا من الهدى، ورزقهم فرقانًا فرقوا به بين الحق والباطل، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، فزمانهم أشرف، وعصرهم أبرك، وعلمهم أغزر، وحرصهم على طلب العلم والعمل به أعظم، والخطأ عنهم أبعد من غيرهم. قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: «من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا... قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد، كانوا على الهدى المستقيم»[(١)]. قال الشافعي رحمه الله: «وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به، آراؤهم أحمد وأولى بنا من آرائنا لأنفسنا»[(٢)]. فهم أصحاب النبي ﷺ وحواريوه، كما قال النبي ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)[(٣)]. وهم الذين جمعوا بين الإيمان والعلم والعمل، كما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما،

(١) حلية الأولياء (١/٣٠٥).

(٢) مناقب الشافعي للرازي (ص: ٤٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان ح رقم ١٨٨.

أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشـــر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا »[1].

خامسًا: حث الكتاب والسنة على اتباعهم في العلم والعمل: وذلك من خلال ما ثبت من الثناء عليهم علمًا وعملًا، مما يدل على وجوب تقديم فهمهم والرجوع إليه عند التنازع، واعتبارهم الفيصل في فهم أدلة الكتاب والسنة، ومراد الله ورسوله منهما، ومن هذه الأدلة الكثيرة قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠] فالآية صريحة في الثناء على المتبعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصـــار، وهم أئمة الســـلف الصـــالح وقادتهم ﷺ، والاتباع شـامل للاعتقاد والعمل المبني على صـحة الفهم، وهذا المدح يتضـمن صـحة ما كانوا عليه من ذلك. كما دلت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك. وقد احتج الإمام مالك بهذه الآية على وجوب اتباع الصـــحابة ﷺ[2]. ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة:١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٣]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح رقم ٩٩٧٨، والفريابي في فضائل القرآن (ص: ١٦٩).

(٢) إعلام الموقعين (١٢٣/٤) وقد فصل في ست صفحات دلالة هذه الآية على وجوب اتباعهم ﷺ يراجع لمزيد الفائدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩]، فكل هذه الأدلة – وغيرها كثير – تؤكد منزلة ومكانة منهج وقول أصحاب النبي ﷺ.

سادسًا: دلالة الإجماع على اتباع منهجهم: قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم »(١).

لما كان ذلك مستقرًا عند العلماء ردوا من خالف منهجهم، قال الإمام الشاطبي في رده على بعض أقوال سهل التُّستري التفسيرية رحمه الله الذي جاءت على نهج التفسير الإشاري مخالفة لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء:٣٦]:«وأما باطنها؛ فهو القلب، ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء:٣٦] النفس الطبيعي، ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ [النساء:٣٦] العقل المقتدي بعمل الشرع، ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النساء:٣٦] الجوارح المطيعة لله، عز وجل». فقال في رده: «وهو من المواضع المشكلة في كلامه، ولغيره مثل ذلك أيضًا، وذلك أن الجاري على مفهوم كلام العرب في هذا الخطاب ما هو الظاهر من أن المراد بالجار ذي القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء، وغير ذلك لا يعرفه العرب، لا من آمن منهم ولا من كفر، والدليل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثله أو يقاربه، ولو كان

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/١٥٨).

عندهم معروفًا لنقل؛ لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم »[١].

سابعًا: ما يترتب على التزام منهجهم من فوائد عديدة:

الالتزام بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة له ثمرات يانعة وآثار نافعة تحفظ المرء في عقيدته وعبادته، وتعصمه بإذن الله من الأهواء والمفاهيم الشاذة والأفكار المنحرفة، وتورثه الطمأنينة والأمن النفسي القاطع لشوائب الاحتمالات المقدرة، الرافع للإشكالات المتوهمة. فمتى علم المتفقه وطالب العلم أن فهمه للدليل موافق لفهم السلف الصالح كان ذلك حاسما للترددات، شاهدا صادقا على صحة الاستدلال بالدليل مصدقا له.

وما سلت السيوف وأزهقت الأرواح، وسفكت الدماء، وانتهكت الحرمات، وكُفِّرَ المسلمون، وفرقت جماعتهم إلا بسبب التأويل الباطل المبني على الفهم السقيم للنصوص الشرعية المخالف لفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، فاتباع منهج الصحابة هو السبيل الوحيد لمعرفة مراد الله تعالى ومراد رسوله على وجه لم يدخله تحريف ولا تبديل، فهم تمسكوا بمنهج النبي ﷺ علمًا وعملًا، ولم يغيروا أو يبدلوا أو يحدثوا، بصورة شهد الله لهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقد جاء في حديث العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَوْلُ النبي ﷺ في موعظته البليغة التي ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ: (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ

(١) الموافقات في أصول الفقه للشاطبي (٤/ ٢٤٨).

فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَـــلَالَةٌ)[١].فكل هذه الآيات تؤكد اتباع منهج أصحاب الرسول ﷺ علمًا وعملًا. فأسعد الناس وأسدَّهم رأيًا في جميع أمور الدين وما يقرب من رب العالمين هو من تلقى من ((مشـــكاة الوحي المبين، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المتهوكين وتشـــكيكات المشـــككين، وتكلفات المتنطعين، واستمطر دين الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين؛ فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفت وجمعت وفَرَقت وأوضحت وبينت وحلت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن))[٢]. ثم إن ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم إلى صراط العزيز الحميد. ولا شك أن أعلم الناس بهذا الصراط وأحرصهم على الهداية إليه هم صحابة رسول الله ثم أتباعهم من أئمة السلف الصالح. ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((إذا لقيتم الذين يتبعون المتشابه فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى))[٣].

ففهمهم هو العاصـــم من التفرق والاختلاف المذموم. قال عمر لابن عباس رضي الله عنهم: ((كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيمن نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن

---

(١) رواه الترمذي في ســـننه ح رقم ٢٦٠٠، وأبو دود ح رقم ٣٩٩١، وابن ماجة ح رقم ٤٣، وأحمد في المسند ح رقم ١٦٥٢١، وابن حبان في صحيحه ح رقم ٧٠٢٣٥، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ح رقم ٢٩٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) شفاء العليل (١/١٨).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه ح رقم ١٢١، والآجري في الشريعة ح رقم ٩٣.

ولا يدرون فيمن نزل، فيكون لهم منه فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا))[١].

وفهمهم كما هو السبيل لمعرفة الحق، فهو السبيل لحسم مادة الابتداع والإحداث في الدين؛ لأن المبتدعة عادة ما يتعلقون ببعض النصـــوص ويتأولونها على غير تأويلها ويفهمونها على غير مراد الله ومراد رسوله. وفهم السلف هو الفيصل في هذه المسألة، وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فكل دين وعبادة لم يكنا معروفين عند الســـلف فهو ليس من الدين في شـــيء، بل هو الابتداع والإحداث في الدين، لذلك كله ينبغي الحذر من طرح ينادي بإعادة النظر في فهم النصوص الشرعية فهما جديدا متنكبا لفهم السلف الصالح، مهما ألبس هذا الطرح بلبوس التجديد أو الإصـــلاح أو التغير أو مواكبة العصـــر أو التخلص من التحجر والجمود، أو الانفتاح والعصـرنة والتنوير، أو غير ذلك من المسـميات البراقة. فإن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئا. وقد قال فرعون لقومه: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]، وقـال المنـافقون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة:١١]قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢]

فلهذه الأسـباب وغيرها اعتنى العلماء بتفسـير الصـحابة ﷺ للقرآن الكريم، وجعلوا أقوالهم في التفسير بعد أقوال النبي ﷺ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه ﵀: ((إذا لم نجد التفســير في القرآن ولا في الســنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصــحابة فإنهم أدرى بذلك لما شـــاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصـــوا بها، ولما لهم من الفهم التام،

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع ح رقم ١٥٨٧ (٢/١٩٤).

والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين مثل ((عبد الله بن مسعود... ومنهم الحبر عبد الله بن عباس...))[١].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٦).

المطلب الثاني

تفاوت فهم الصحابة لمعاني القرآن الكريم وأسبابه

أولًا: تفاوت فهم الصحابة لمعاني القرآن الكريم

لم يكن الصحابة ﷺ على درجة واحدة في فهم معاني القرآن الكريم، بل كانوا على درجات متفاوتة، فمنهم الملم بفهم ألفاظه العارف لأسباب نزوله، الخبير بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ونحو ذلك، كعبدالله ابن مسعود ﷺ الذي كان يقول: (وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْه)(١)، وكعبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي يقول «أنا ممن يعلم تأويله»(٢)، ومنهم من عرف الكثير منه وخفيت عليه جوانب من معانيه، فقد خفي على عمر رضي الله عنه - مع علمه - معنى الأبّ في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، كما خفي عليه معنى التخوف في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٤٧]، حتى قال له شيخ: التخوف التنقص في لغة هذيل(٣).

كما خفي على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - مع علمه وقدره - معنى كلمة «فاطر»، كما ورد عنه أنه قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول أنا ابتدأتها »(٤).

---

(١) البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ ح رقم ٤٦١٨، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ح رقم ٤٥٠٣.

(٢) جامع البيان، الطبري (٣ / ١٧٩).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٤٨٧).

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري (٣٢/ ٢٨٣)، والدر المنثور، للسيوطي (٣/ ٢٥٥).

ومنهم من كانت تخفى عليه معانٍ لا تخفى على غيره، كما خفي على عدي بن حاتم فهم المراد بالخيط الأسود من الخيط الأبيض في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[البقرة: ١٨٧]، وكما خفي على عائشة رضي الله عنها مفهومه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق ٧، ٨]، فرجعت للنبي ﷺ فبين لها ما أشكل عليها كما جاء ذلك في الأثر الصحيح؛ ولذا فقد كان فهم الصحابة في القرآن متفاوتًا، وقد كان يشكل على بعضهم ما لا يشكل على البعض الآخر، ولو تساوت العقول في فهم معانيه لبطل التنافس وضعفت الهمم.

ثانيًا: أسباب تفاوت فهم الصحابة لمعاني القرآن الكريم:

هنالك أسباب كثيرة أدت إلى تفاوت فهم الصحابة للقرآن، ومن ذلك:

١- تفاوتهم في ملازمة الرسول ﷺ وحضور مجالسه:

فمن الصحابة من كان ملازمًا للنبي ﷺ لا يكاد يفارقه، مثل أبي هريرة رضي الله عنه، حيث قال: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ، أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ أَنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ، فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ)[(١)]، ومنهم من كان

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى: فإذا قضيت الصلاة ح رقم ١٩٥٩.

يلازمه يومًا ويغيب يومًا كعمر بن الخطاب ﷺ، كما جاء عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ)[(١)]. ومنهم من لم يحظ إلا بالقليل من مجالسته، خاصة الذين أرسلهم النبي ﷺ لبعض المهام المهمة، ومنهم الذين أسلموا متأخرين.

٢- تفاوتهم في معرفة لغة العرب:

فقد كان إلمام الصحابة بلغة العرب متفاوتًا، على حسب تفاوت الناس في البيئة التي يعيشون فيها، لأن اللغة العربية - وإن أحاط بها مجموع أهلها - فإنها لا يمكن أن يحيط بها كل فرد منهم، ولذا كانت تخفى معانٍ منها على بعضهم أو تستشكل، بما لا يخفى على غيرهم، خاصة وأن لغات العرب كانت متباينة في بعض الكلمات تباينًا أدى إلى نزول القرآن على سبعة أحرف حتى يكون القرآن عربيًا مستوعبًا لما بين القبائل من تباين.

٣- تفاوتهم في الإلمام بأحوال نزول القرآن:

معرفة أسباب نزول الآيات والسور كان فيه تباين بينهم، ولذا كانت تشكل بعض المعاني على من لا يعرف أسباب النزول، بما لا تشكل على من ألمَّ بأحوال نزول الآيات، كما حدث ذلك لعروة بن الزبير في آية السعي بين الصفا والمروة وغيره.

٤- تفاوت قدراتهم العقلية:

الصحابة كغيرهم من البشر كان بينهم تفاوت في قدراتهم العقلية، وقد يوجد عند الصغير أحيانًا ما لا يوجد عند الكبير، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: التناوب في العلم ح رقم ٨٩.

رضـــي الله عنهما قال: كَانَ عُمَرُ ﷺ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْــيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُــهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[النصر: ١ - ٢] حَتَّى خَتَمَ السُّــورَةَ؟ فَقَالَ بَعْضُـهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْـتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِـرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُـــهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُـــهُمْ شَــيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا بْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُــولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾. فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾. قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ) [(١)].

٥ – تنوع اهتمامات الصحابة:

فقد تنوعت اهتمامات الصــحابة، فمنهم من عني بالجهاد كخالد بن الوليد، ومنهم من اعتنى بالتفســير كابن مســعود، وابن عباس، ومنهم من اعتنى بالفرائض كزيد بن ثابـت، ومنهم من اعتنى بالحلال والحرام كمعـاذ بن جبـل، ومنهم من اعتنى بروايـة الحديث كأبي هريرة ﷺ أجمعين، كما جاء عن أنس بن مالك، قال: قال رســول الله ﷺ: (أرْحَمُ أُمَّتِي بأمتي أبو بَكْرٍ، وأشَــدُّهُمْ في أمْرِ الله عُمَرُ، وأصْـدَقُهُمْ حياءً عُثْمانُ، وأقْرَؤهُمْ لِكِتابِ الله أُبَيُّ بن كَعْبٍ، وأفْرَضُــهُمْ زَيْدُ بنُ ثابَتٍ، وأعْلَمُهُمْ بالحَلاَلِ والحَرامِ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ، ولِكُلِّ أُمَّةٍ أمِينٌ، وأمِينُ هذِهِ الأُمَّةِ أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ)[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح رقم ٤٣ ٠ ٩.

(٢) أخرجه الترمذي في ســننه ح رقم ٣٨٠٩، هذا حديث حســن صــحيح، وابن ماجه ح رقم ١٥٣، وابن حبان في صــحيحه ح رقم ٧٢٣٨، والحاكم في المســتدرك على الصــحيحين ح رقم ٥٧٧٦، وقال: صــحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

٦ – تفاوتهم في درجات الإيمان:

الصحابة ﵃ كان بينهم تفاوت كبير في درجات الإيمان وزكاة النفوس، التي بسبب تقواها وصلاحها تزكو الأرواح وتتفتح العقول، ويرى الإنسان بنور بصيرته من أسرار الكتاب ودقائق حكمه ما لا يراه أو يدركه غيره من الناس، وتظل معاني القرآن تفعل في قلبه من الإيمان فعل الماء النازل من السماء على الأرض الطيبة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فكلما كان القلب أصفى عقيدة وتسليمًا، والتدين أنقى من البدع والخرافة كلما فتح الله على صاحبه من الحكمة ما الله به عليم، قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].



المطلب الثالث

منهج الصحابة في التفسير ومميزاته

أولًا: منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير:

التزم أصحاب النبي ﷺ أحسن الطرق في تفسير القرآن الكريم، ونجد ذلك واضحًا فيما يلي:

أولًا: فسروا القرآن بالقرآن:

ومثال ذلك تفسير عمر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ [التكوير: ٧] فقال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة أو النار، وقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ [الصافات:٢٢]، قال: ضرباءهم[(١)]، وفسر عليٌّ رضي الله عنه السقف المرفوع في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ [الطور:٥] بالسماء[(٢)]، وقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فجعلوا القرآن الكريم مصدرهم الأول في التفسير.

ثانيًا: تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية:

فإنهم التزموا في تفسيرهم ما فسره النبي ﷺ، فرووه كما سمعوه في تفسير الآية كما ذكر، فقد جاء عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: « أنزلت علي آنفا سورة » فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ [الكوثر: ١ – ٣] ثم قال: (أتدرون ما الكوثر؟) فقلنا

---

(١) جامع البيان، للطبري (٢٦/ ٩٠).

(٢) المصدر السابق (٢٢/ ٤٥٧).

الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير) [١]، فرووا كل ما وضحه النبي ﷺ، وأمثلة ذلك كثيرة، وقد سبق ذكر بعضها.

ثالثًا: تفسير القرآن بالرجوع إلى بعضهم:

كما سأل ابن عباس عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ فأخبره أنهما حفصة وعائشة.

وعَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ الماءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي، فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [سورة المائدة: ٦]؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لَأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الماءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الماءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا، فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ) [٢].

رابعًا: تفسير القرآن وفق الاجتهاد:

كما فعل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير سورة النصر، وهم أولى الناس بالاجتهاد؛ وذلك لمعرفتهم بلغة القرآن الكريم وأحوال نزوله، ومعرفتهم الواسعة بعادات العرب وأخلاقهم وأحوال غيرهم، وهذا يعين دون شك على فهم ما يتعلق بما جاء في

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة ح رقم ٦٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التيمم باب: التَّيَمُّمُ ضَرْبَةٌ ح رقم٣٤٧، ومسلم في كتاب الحيض، باب: التيمم، ح رقم ٣٦٨.

إصلاح عاداتهم وتهذيب سلوكهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧]، ونحو ذلك مما لا يفهم المراد منه اجتهادًا إلا من كان عارفًا بعادات العرب وتقاليدهم في الجاهلية.

خامسًا: فهم القرآن بالرجوع لأهل الكتاب:

فسر بعض الصحابة بعض الآيات بالرجوع إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وذلك لأن القرآن يتفق مع التوراة والإنجيل في بعض المسائل، وبالأخص في قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة، غير أن القرآن يخالفهما في منهج العرض فلا يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على مواضع العبر فقط. ولما كانت العقول دائمًا تميل إلى التفاصيل والاستقصاء، رجع بعض الصحابة إلى من دخل في الإسلام من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما من علماء اليهود والنصارى[(١)].

ثانيًا: مميزات التفسير المأثور عن الصحابة ﷺ:

١- الاختصار: كان تفسيرهم مقتصرًا على توضيح بعض المفردات الغريبة والمعاني المشكلة، أو بيان ما يتعلق بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد ونحو ذلك، ولم يكن تفسيرًا شاملًا لكل القرآن الكريم؛ وذلك لأنهم كانوا عربًا خلصًا يفهمون المعنى دون شرح، إضافة إلى إلمامهم الواسع بأحوال نزول الآيات ومعرفة أسباب النزول وزمانه ومكانه، مما يعين على فهم المعنى؛ ولذا فإنَّ أقوالهم في التفسير جاءت في أمور مهمة لا يمكن لأحد من بعدهم أن يستغني عنها «لأنهم كانوا أهل اللسان الذي خاطبهم الله به؛ ولذا لما فسد اللسان، وكثرت

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي (١/ ٤٣).

العجمة، ودخل في دين الإسـلام أجناس الأمم المختلفة، والألسـنة المتباينة، وتناقص الإدراك احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التركيب، وانتزاع المعاني، وإبراز النكت البيانية؛ حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، فإن ذلك كان مركوزًا في طباعهم، يدركون تلك المعاني كلها من غير موقف ولا معلم؛ لأن ذلك هو لسانهم وخطهم وبيانهم»[١].

٢- الوضوح وعدم التكلف: اعتمدوا في تفسيرهم على الكلمات الجامعة والعبارات الواضحة التي تدل على المعنى دون استطراد إلى ما لا صلة له بالتفسير أو لا فائدة كبيرة في الخوض في تفاصيله. وهم كذلك لم يكونوا يتكلفون فهمًا لم تصل إليه عقولهم؛ ولذا قال ابن تيمية: «ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير مالا علم لهم به»[٢].

٣ – صفاء أقوالهم من البدع: كذلك من مميزاته الصفاء من كل أنواع البدع التي وقعت بعدهم في الأمة، فأقوالهم أصفى الأقوال عقيدة ومنهجًا، وذلك لعدم ظهور أهل الأهواء في تلك الحقبة المباركة.

٤- قلة الاختلاف: كذلك من مميزاته قلة الاختلاف بينهم في التفسير، وما وجد يرجع غالبه إلى اختلاف التنوع لا التضاد؛ وذلك لأنه كلما قرب الإنسان من عهد النبوة وجد الاجتماع والائتلاف علمًا وعملًا كان هو الذي يسود، وكلما بعد الإنسان عن تلك الحقبة المباركة وجد العكس تمامًا، والله المستعان، ولم ينقل عنهم خلاف إلا في رؤية النبي ﷺ لله تعالى في ليلة الإسراء والمعراج، وذلك بسبب وجود

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (١/ ٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١).

النبي ﷺ بينهم، فقد كانوا يرجعون إليه إن اختلفوا فيكون قوله قاطعًا لكل خلاف، إضافة لمعرفتهم الكبيرة بلغة القرآن الكريم وأساليبها، قال ابن تيمية: «كان النزاع بين الصحابة في التفسير قليلًا جدًا وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وكلّما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر »[١].

٥- قلة الأخذ بالإسرائيليات: تناول الصحابة للإسرائيليات في التفسير قليل، ولعل تربية النبي ﷺ الخاصة لهم لها أثر على ذلك في الاعتزاز بما عندهم، وعدم الالتفات إلى ما عند أهل الكتاب؛ خاصة وهي روايات أغلبها محرفة، وفيها الكثير من الأباطيل والخرافات، ولهذا غضب حينما رأى في يد عمر ﷺ صحيفة من التوراة[٢] كما جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، أَتَى النَّبِيّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ، فَقَالَ: (أَمُتَهَوِّكُونَ[٣] فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيءٍ، فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَ أَنْ يَتَّبِعَنِي)[٤].

٦- النقل بالرواية: كان تفسيرهم منقولًا بالرواية شأنه شأن الحديث، فلم يدون التفسير في عصرهم، وما دون منه كتنوير المقياس في تفسير ابن عباس جُمع في فترة

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص: ٤٢).

(٢) ومن الصحابة من رجع إلى بعض أهل الكتاب لمعرفة بعض التفاصيل واستقصاء بعض الأخبار المصدقة لما جاء في القرآن من باب الاستئناس مع علمهم التام بما في التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل .

(٣) أمتهوكون " أي: متحيرون أنتم في الإسلام، لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى " شرح السنة، للإمام البغوي (١/ ٢٧١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ح رقم ١٤٨٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ١٧١.

متأخرة، جمعها أبو طاهر الفيروز أبادي، وفيه الكثير من الأقوال المكذوبة والمنسوبة إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ ولذلك نجد أقوالهم جاءت منتشرة في كتب السنة.

٧- التزم أحسن طرق التفسير: من تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وتفسير القرآن بأقوال أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، وتفسيره وفق الاجتهاد القائم على الإلمام الكامل بلغة القرآن، وأحوال نزول الآيات، وأحوال العرب عند نزول القرآن، مع معرفة تامة بعاداتهم وتقاليدهم، إضافة إلى ما كانوا عليه من تقوى وورع، جعلهم لا يتكلمون إلا بعلم، كما جاء عن حماد بن زيد قال: حدثنا عبيد الله ابن عمر قال: « لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليغلظون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع »، وقد جاء عن أيوب عن ابن أبي مليكة: « أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها »، وعن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن »[١] فهذه الآثار وغيرها كثير تبين عظمة أقوالهم في التفسير التي جاءت عن علم تام.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٦٢/١).

المطلب الرابع

أشهر المفسرين من أصحاب النبي ﷺ

اشتهر بالتفسير من أصحاب النبي ﷺ: الخلفاء الأربعة « أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب »، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين.

وهناك بعض الصحابة من نقل عنهم التفسير نقلًا قليلًا لم يصل بهم الأمر إلى درجة الشهرة، منهم: معاذ بن جبل، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم[(١)].

وأكثر من نقل عنهم الرواية في التفسير أربعة، وهم:

١- علي بن أبي طالب.

٢- وعبد الله بن مسعود.

٣- وعبد الله بن عباس.

٤- وأبي بن كعب.

وسبب كثرة نقل الرواية عنهم في التفسير يرجع إلى:

- **أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت: ٤٠):** لسعة علمه، وتفرغه من مهام الخلافة مدة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، مع تأخر وفاته إلى زمن بعيد بعدهم، وحاجة الناس في عهده لمن يفسر لهم القرآن لاتساع رقعة الإسلام وكثرة الداخلين

(١) انظر: المفسرون من الصحابة جمعًا ودراسة وصفيَّة، للشيخ عبد الرحمن بن عادل عبد العال، تتبع من نقل عنهم التفسير من الصحابة فأوصلهم إلى خمسة وتسعين صحابيًا (١/ ١٢) نحن هنا اكتفينا بذكر بعضهم تماشيًا مع مقاصد الكتاب.

فيه، وظهور جيل جديد يحتاج إلى من يأخذون عنه فهم القرآن، وهو كان من خيرة أهل زمانه علمًا وفضلًا.

- **أما الثلاثة الباقون:** فسبب كثرة الرواية عنهم، تفرغهم للتفسير وتعليم الناس العلم في مراكز إسلامية متباينة، وتتلمذ على أيديهم من صاروا بعد ذلك أئمة التابعين، فإليك الحديث عن كل واحد منهم وتلاميذه:

أ/عبد الله بن مسعود ﷺ (ت: ٣٣ هـ) معلم أهل الكوفة:

هو: عبد الله بن مسعود بن الحارث الهذيلي، وأمه أم عبد بنت الحارث بن زهرة، من أوائل الذين دخلوا في الإسلام بمكة، عدَّ سادس رجل في الإسلام، وقد هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد بدرا والمشاهد كلها، كناه النبي ﷺ بأبي عبد الرحمن قبل أن يولد له، وهو أكثر أصحاب النبي ﷺ أخذًا للقرآن الكريم من فمه، وقد قال عن نفسه: (وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ)[١]، وكان يعد من أوائل من جهر بالقرآن وأسمعه لقريش بعد رسول الله ﷺ بمكة ولقي في ذلك أذىً شديدًا، وهو أحد الأربعة القراء، الذين قال فيهم النبي ﷺ: (استقرئوا القرآن من أربعة)، وهو الذي طلب منه النبي ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه حتى فاضت عيناه، وقال له: (حسبك)، وهو الذي شهد له النبي ﷺ بنداوة صوته، وأنه يقرأ القرآن كما أنزل غضًا طريًا فقال: (من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد)، وهو أعلم أصحاب النبي ﷺ بالقرآن الكريم وأسباب نزوله وزمانه وأحواله كما قال عن نفسه: (والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: فضائل القرآن، باب: القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ ﷺ ح رقم ٥٠٠٠.

ولا ســـورة إلا وأنا أعلم أين نزلت ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)، كان أحد الثمانية الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح.

وهو خادم رسول الله ﷺ، وصاحب طهوره، وسواكه، ونعله، ويمشي أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويرحله إذا سافر، ويماشيه في الأرضِ الوحشاء، وأخبر ﷺ أن ســـاقيه في الميزان أثقل من أُحد، وأمر أمته أن يتمســـكوا بعهد ابن أم عبد، وقال: (رضـــيت لأمتي ما رضـــي لها ابن أم عبد)، وقال له حين سمع دعاءه وثناءه: (سل تعطه)، كان أشبه هديًا ودلًا برسول الله ﷺ، نفله رسول الله ﷺ سيف أبي جهل حين أتاه برأسه.

بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة، وولاه بيت المال، وكتب فيه إلى أهلها: ((هو من النجباء، وآثرتكم بعبد الله على نفســـي، فاقتدوا به))، وقال: ((هو كنيف ملئ علما وفقها))، وقال فيه علي رضي الله عنه : ((قرأ القرآن وقام عنده وكفى به))، ولما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكوفة قال له أهل الكوفة: ((ما رأينا رجلًا أحسن خُلُقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من ابن مسعود، فقال علي: ناشدتكم الله، إنه لصِدْق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إني أشهدك، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل))، وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ((كان يشهد إذا غبنا، ويؤذن له إذا حجبنا))، وقال: ((لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم))، وقال فيه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين حضره الموت، وأوصى أصحابه: ((التمسوا العلم عند أربعة: عند ابن أم عبد...)).

توفي بالمدينة، وأوصى أن يصلي عليه الزبير بن العوام، عاده عثمان في مرضه فقال: «كيف تجدك»؟ قال: «مردود إلى مولى الحق، توفي سنة اثنتين وثلاثين بالمدينة، ودفن بالبقيع، وهو ابن بضع وستين سنة، وصلى عليه الزبير بن العوام للمؤاخاة بينهما»[(١)].

أشهر تلاميذه:

١- علقمة بن قيس النخعي.

٢- مسروق بن الأجدع الهمداني.

٣- الأسود بن يزيد بن قيس.

٤- قتادة بن دعامة السدوسي.

٥- أبو عبد الرحمن السلمي.

٦- عمرو بن شرحبيل الهمداني.

٧- عبيدة بن عمرو السلماني.

٨- الربيع بن خثيم.

وغيرهم من الأعلام.

ب/عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت: ٦٨ هـ) معلم أهل مكة:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو الخلفاء، مات رسول الله ﷺ ولعبد الله ثلاث عشرة سنة، يسمى الحبر والبحر لكثرة علمه، وحدة فهمه، وحبر الأمة وفقيهها، ولسان العشيرة ومنطيقها، محنك بِرِيقِ النبوة، ومدعو له بلسان الرسالة، فُقِّه في الدين، وعُلِّم التأويل،

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٠٦)، والاستيعاب (٢٠/٧)، وأسد الغابة (٣٨٤/٣)، وطبقات القراء (٤٥٨/١)، والإصابة (٢٠٩/٧)، وسير أعلام النبلاء (٤٦١/١)، وشذرات الذهب (٦٥/١).

ترجمان القرآن، سمع نجوى جبريل للرسول ﷺ وعاينه، كان مولده عام الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له النبي ﷺ بقوله ((اللهم علمه الكتاب))، وفي رواية اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب)) وفي رواية: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))، كان عمر بن الخطاب يدنيه ويسأله، ويدخله مع مشيخة أهل بدر، وعن مالك بن أبي عامر قال: ((سمعت طلحة بن عبيد الله يقول: ((لقد أعطي ابن عباس فهما ولقنا وعلما، ما كنت أرى عمر بن الخطاب يقدم عليه أحدا، وكان له الجواب الحاضر، والوجه الناضر، صبيح الوجه، غزير العلم، كثير الخير، يصدر الجاهل عن علمه وحكمته بفيضان، والجائع عن خبزه ومائدته شبعان.

وقد أخذ علم أصحاب النبي ﷺ، قال المغيرة: قيل لابن عباس: أنى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول))، وعن عكرمة عن بن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: فقال: واعجبا لك يا بن عباس أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم، قال: فتركت ذلك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل آتي بابه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح علي التراب، فيخرج فيراني فيقول لي: يا بن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك، فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني))[١].

وعن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن بن عباس قال: وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائما لو شئت أن يوقظ لي

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣١٤، والحاكم في المستدرك (٣/٥٣٤).

لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ وأسأله عما أريد ثم أنصرف.

وعن عبد الله بن إدريس عن ليث بن أبي سليم قال: قلت لطاووس: لزمت هذا الغلام يعني ابن عباس وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ((إني رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا في شيء صاروا إلى قول ابن عباس)).

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: ((كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وَسَيْب ونَائِل، وما رأيت أحدا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى ولا أثقف رأيا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده علما)).

وعن نبهان قال: قلت لأم سلمة زوج النبي ﷺ: أرى الناس على ابن عباس منقصفين، فقالت أم سلمة: ((هو أعلم من بقي))، وعن عكرمة قال: قال كعب الأحبار: ((مولاك ربانيُّ هذه الأمة هو أعلم من مات ومن عاش))، وعن عكرمة قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ابن عباس أعلمنا بما مضى، وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه شيء)).

وعن ابن طاووس عن أبيه قال: كان ابن عباس قد سبق على الناس في العلم كما تسبق النخل السحوق على الوديِّ الصغار، قال مجاهد رحمه الله: ((كان ابن عباس يسمى البحر من كثرة علمه، وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف علي عبد الله بن عباس

على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية سورة النور ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا)).

وعن عبيد الله بن أبي يزيد قال: كان ابن عباس إذا سئل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن في شيء من ذلك اجتهد رأيه.

وعن يعقوب بن زيد عن أبيه قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول حين بلغه موت ابن عباس وصفق بإحدى يديه على الأخرى: ((مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق)).

وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: لما مات بن عباس قال رافع بن خديج: ((مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب في العلم)).

وتوفي بالطائف سنة ثمان وستين، وقيل: سنة سبعين، وصلى عليه محمد بن الحنفية، وقال: ((اليوم مات رباني هذه الأمة رضي الله عنه))، فجاء طير أبيض فدخل في أكفانه، وسمع هاتفٌ يهتف من قبره: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠]))[1].

أشهر تلاميذه:

١- مجاهد بن جبر.

٢- عكرمة مولى بن عباس.

٣- سعيد بن جبير بن هشام الأسدي.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان(٣/٦٢)، وتذكرة الحفاظ(١/٣٧)، ومعرفة القراء (ص: ٤١)، والبداية والنهاية (٨/٢٩٥)، والإصابة (٢/٣٣٠)، وسير أعلام النبلاء (٣/٣٣٠)، وشذرات الذهب (١/١٣٧).

٤- عطاء بن أبي رباح.

٥- طاووس بن كيسان.

٦- عطاء بن يسار.

٧- علي بن الحسين.

٨- وشهر بن حوشب.

وغيرهم من أعلام التابعين.

ج /أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه (ت: ٣٠ هـ) معلم أهل المدينة:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي الانصاري أبو المنذر، ويقال أبو الطفيل، وهو: من أوائل الأنصار الذين أسلموا بالمدينة، وممن شهد بيعة العقبة الثانية مع الأنصار، وبدرًا والمشاهد كلها، وهو من كتَّاب الوحي، بل هو أول من كتب الوحي للنبي ﷺ بالمدينة، وهو ممن أخذ القرآن ومعانيه عن رسول الله ﷺ، وهو سيد القراء، كما قال النبي ﷺ) أقرؤهم أبي)[١]، وقد أمر النبي ﷺ أن يؤخذ منه القرآن، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول (خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب)[٢].

وهو الذي أمر الله نبيه الكريم أن يقرأ عليه القرآن، كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُبَيَ: (إِنّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ) قَالَ: اللهُ سَمّانِي لَكَ؟ قَالَ: (اللهُ سَمّاكَ لِي) قَالَ فَجَعَلَ أُبِيّ يَبْكِي[٣]، ومعنى (أن أقرأ عليك) أي قراءة إبلاغ وإسماع،

(١) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٧٩١، والنسائي في السنن الكبرى ح رقم ٨١٨٥، وابن ماجة ح رقم ١٥٥، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ رقم ٤٩٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، سورة لم يكن ح رقم ٤٦٧٩.

لا قراءة تعلم منه، وهذا لا يفهمه أحد من أهل العلم. وإنما نبهنا على هذا لئلا يعتقد خلافه، شهد له النبي ﷺ بالعلم عندما قال له: ((أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم)) قال: فضرب في صدري وقال:(والله ليهنك العلم أبا المنذر)[١].

وقد كان يجلس في مسجد النبي ﷺ يعلم الناس القرآن الكريم حتى وفاته، فعن أبي العالية قال: ((كان أبي صاحب عبادة، فلما احتاج الناس إليه، ترك العبادة، وجلس للقوم))[٢].

وروى عنه أبو العالية الرياحي نسخة كبيرة في التفسير، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرًا، وأخرج منها الحاكم في المستدرك، والإمام أحمد في المسند))[٣].

وقد اختلف في وفاته فقيل في سنة تسع عشرة، وقيل سنة عشرين، وقيل ثلاث وعشرين، وقيل قبل مقتل عثمان بجمعة، وقال ابن عمر ﷺ يوم موت أبي: ((اليوم مات سيد المسلمين بالمدينة))[٤].

أشهر تلاميذه:

١. أبو العالية الرياحي وهو رفيع بن مهران.
٢. محمد بن كعب القرظي.
٣. وابنه الطّفيْل بن أبي بن كعب.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف ح رقم ١٣٨٤.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٩٩).
(٣) التفسير والمفسرون (١/٩٣).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٥٩)، وأسد الغابة (١/٦١)، والإصابة (١/٢٦)، وسير أعلام النبلاء (١/٣٨٩)، وشذرات الذهب (١/٤٧، ٥١)، وتاريخ الإسلام (١/ ٣٩٧ ـــ ٣٩٨)، ومعرفة القراء الكبار (١/ (٢٨. ٣٠)، والبداية والنهاية (٥/٣٤٠).

المطلب الخامس

الموقف من تفسير الصحابة ﷺ

أقوال الصحابة ﷺ في التفسير تأتي في المرتبة الثالثة بعد تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، والذي يرجح الاعتماد على أقوالهم وتقديمها على كل من جاء بعدهم معرفتهم العالية باللسان العربي، وإلمامهم التام بأحوال نزول الآيات، ومن هنا كان العدول عن منهجهم ضلالًا وانحرافًا، قال ابن تيمية رحمه الله فيمن عدل عن قول الصحابة والتابعين في التفسير وجاء بقول آخر، فقال: «من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا»[١]؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث به رسوله، وفي الموقف من أقوالهم فإن للعلماء تفصيلًا يدور في مجمله على محورين:

المحور الأول: ما يتوقف فهمهم له عن طريق الرواية: فإذا كان قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه، كالأمور الغيبية مثل الإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الفتن والبعث، وأسباب النزول، أو تحديد ثواب يحصل من عمل ونحو ذلك، فهذا له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، فيجب الأخذ به إذا صح سنده، ولم يرد ما يخالفه من كتاب وسنة، أو قول صحابي آخر.

وما جاء فهمهم فيه بما نقلوه عن أهل الكتاب فهذا له حكم الإسرائيليات، وسوف يأتي تفصيلها بإذن الله تعالى.

المحور الثاني: ما جاء فهمهم له عن طريق الاجتهاد: إذا كان قول الصحابي فيما كان للرأي فيه مجال، فهذا للعلماء في حكم التعامل معه تفصيل على النحو الآتي:

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٦١).

١. إذا اجتهدوا وأجمعوا على فهم آية أو اتفقوا عليه، أصبح إجماعهم حجة ملزمة على كل من جاء بعدهم، ولا يجوز رد قولهم وعدم الأخذ به، واعتماده في فهمهم للآية [١]، كإجماعهم في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٦٠] في أيها وضعت أجزأ عنك))[٢].

٢. إذا اجتهد أحدهم في أمر وفسره وفق اللغة، أو قرائن الأحوال، ولا يعلم له مخالف فهذا الأخذ به أولى من الأخذ برأي غيره؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، وأكثرهم معرفة بلغة القرآن، وأحوال نزول الآيات، قال الزركشي رحمه الله: ((انظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه))[٣].

٣. إذا اجتهدوا واختلفوا يبحث عن مرجح، ولا يجوز استحداث قول ثالث؛ لأنهم اختلفوا عن علم تام، كتقديم قول عبد الله بن عباس على غيره.

فكل ما أصَّلَهَ سلف هذه الأمة الصالحون العالمون لا بد لنا أن نثبت لهم فضلهم وسبقهم، ونعرف قدرهم، ونأخذه بعين الرضا، ولا مانع من الزيادة عليه، وحسن تبويبه وتهذيبه، وإن دعا الأمر تصويبه؛ فإن أساس علم التفسير يقوم على معرفة الآثار، وما تواتر من أوجه القراءات ذات الصلة بالمعاني، مع الإلمام بقواعد العربية، وأصول الشريعة الإسلامية.

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣/٢١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ١٦٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/١٧٢).

المبحث الثالث
تفسير التابعين للقرآن الكريم

المطلب الأول: قيمة التفسير المأثور عن التابعين.

المطلب الثاني: منهج التابعين في التفسير ومميزاته.

المطلب الثالث: أشهر المفسرين من التابعين.

المطلب الرابع: الموقف من تفسير التابعين رحمهم الله.

المطلب الأول

قيمة التفسير المأثور عن التابعين –رحمهم الله–

تفسير التابعين للقرآن الكريم رواية ودراية له منزلة ومزية خاصة، فهو يأتي في المرتبة الرابعة بعد تفسير القرآن للقرآن، وتفسير السنة للقرآن، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، فقد رجع كثير من العلماء إلى أقوال التابعين، والجمهور(١) على اعتبار أقوالهم واعتمادها والاحتجاج بها، وهذا هو منهج أئمة التفسير كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، والبغوي، وابن كثير وغيرهم؛ وذلك للآتي:

١- تعلمهم على يد أصحاب النبي ﷺ (٢)، وأخذهم من علمهم المبارك، وعلى رأسهم الأئمة منهم، الذين لزموا أصحاب النبي ﷺ كمجاهد رحمه الله الذي قال: «عرضت المصحف على عبد الله بن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها»، وقال عبد الله بن مسعود عن علقمه: «ما أعلم شيئًا –أو ما أقرأ– إلا وعلقمة يعلمه »، وكسعيد بن جبير رحمه الله الذي قال: « ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا »، وكقتادة، والحسن البصري، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس ابن كيسان، والضحاك، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدّي، وزيد بن أسلم وغيرهم.

٢- لأنَّهم عاشوا في القرون المفضلة التي تعتبر العصور الذهبية في تاريخ الأمة علمًا وعملًا؛ وذلك لقربهم من عصر النبوة المبارك، تلك العصور التي صفت كثيرًا عما بعدها من البدع والأهواء، وكثر فيها أهل العلم والصلاح، ويكفي في

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٨).

(٢) لأن التابعي من لقي واحدًا من الصحابة أو أكثر.

تزكيتهم قول النبي ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ، وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ) [(١)] فهي خيرية علم وعمل، ومن هنا كانت معرفة أقوالهم في التفسير أنفع من معرفة أقوال المتأخرين.

٣- لأنهم عاشوا كذلك في عصور الاحتجاج اللغوي قبل أن تدخل العجمة على اللسان العربي، فعصرهم حجة في اللغة وحجة في التفسير، وأقوالهم تصدر عن علم تام بلغة القرآن الكريم، فهم أعلم الناس بعد أصحاب النبي ﷺ بلغة القرآن.

٤- لأنَّهم كانوا أئمة في العلم والصلاح، عرفوا باستقامة في المنهج، وصلاح في المعتقد، وحسن سيرة في العبادة، وصدق، وأمانة، وورع، وتقوى، وقد نقلت عبارات كثيرة عن الصحابة في مدح أئمتهم والثناء عليهم، فقد قال ابن عمر عن سعيد بن المسيب رحمه الله: « لو رأى رسول الله ﷺ هذا لَسَرَّه »، وقال لمجاهد: « وددت أنَّ نافعًا يحفظ حفظك » ويقول رضي الله عنه أيضًا لأهل مكة لما اجتمعوا يسألونه: « تجتمعون إليَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء »، ومثل هذه التزكيات لبعض أعلام التابعين تروى عن ابن عباس[(٢)] .

فهذه الأسباب مجتمعة وغيرها جعلت لأقوالهم في التفسير أهمية كبيرة وقيمة علمية عظيمة، وجعلت علماء التفسير الأوائل كابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما يجمعون رواياتهم في التفسير بإسنادها ويروها لنا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ ح رقم ٣٣٧٨، ٣٣٧٧، ٢٤٥٧، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم ٤٥٩٩، ٤٦٠٠.

(٢) انظر: الاتقان للسيوطي (٦/ ٢٣٤٠)، والتهذيب (٤/ ٨٦)، والتذكرة (١ / ٩٨).

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

- تعلموا على يد أصحاب النبي عليه السلام.
- عاشوا في القرون المفضلة.
- عاشوا في عصور الاحتجاج اللغوي.
- كانوا أئمة يقتدى بهم في العلم والصلاح.

المطلب الثاني
منهج التابعين في التفسير ومميزاته

أولًا: منهج التابعين في التفسير:

لم يختلف منهج التابعين عن طرق التفسير التي كان عليها أصحاب النبي ﷺ إلا في إضافات يسيرة نتيجة لبعض المستجدات التي عاشوها بعد أصحاب النبي ﷺ بسبب توسع الفتوحات الإسلامية، وكذلك لأنهم تلاميذهم ومنهم أخذوا، ونجد منهجهم كان قائمًا على ما يلي:

١- تفسير القرآن بالقرآن، كما هو منهج أصحاب النبي ﷺ.

٢- تفسير القرآن بالسنة، كما هو منهج أصحاب النبي ﷺ.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة ﷺ، وهم الذين أخذوا منهم، ورجعوا إليهم فيما أشكل عليهم، ورووا لنا أقوالهم، ولم يقدموا أقوالهم على أقوالهم.

٤- الاجتهاد في استخراج المعاني، واستنباط الفوائد وفق ما تعلموه من أصحاب النبي ﷺ، ووفق معرفتهم التامة بلغة القرآن الكريم.

٥- الرجوع إلى مسلمي أهل الكتاب فيما يتعلق بقصص الأنبياء والأمم السابقة، وذلك نتيجة لتوسع الفتوحات الإسلامية ودخول أمم من أهل الكتاب في الإسلام، ومنهم من كانوا يعرفون تفاصيل عن بعض القصص التي وردت في القرآن، والنفوس تميل إلى معرفة التفاصيل والاستقصاء، وهي قصص تؤيد ما جاء في القرآن الكريم، ومن هنا برزت الإسرائيليات في تفسير التابعين -رحمهم الله-.

ثانيًا: مميزات التفسير المأثور عن التابعين رحمهم الله:

تميز التفسير في عهد التابعين بمزايا عديدة منها:

١- اعتمادهم على المأثور عن الصحابة في التفسير، فهم قد اعتمدوا عليه، ورووه بسنده المتصل عنهم، ونسبوا كل قول لصاحبه، حتى تعرف الأقوال ويميز بين قويها وضعيفها وصحيحها وسقيمها، وقد تلقى وروى أهل كل مصر التفسير عن إمامهم، فالمكيون يروون عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والمدنيون يروون عن أبي ﷺ، والعراقيون يروون عن عبد الله بن مسعودﷺ [(١)].

٢- الاجتهاد والاستنباط في التفسير أكثر مما كان عليه في عهد الصحابة ﷺ حتى شمل القرآن كاملًا، فلا تكاد تمر بآية من كتاب الله بل بكلمة إلا ولهم قول منقول؛ وذلك لتوسع الدولة، ودخول العجم، وبروز الحاجة إلى اجتهاد أوسع.

٣- الاحتفاظ بطابع التلقي والرواية، فقد ظل التفسير في غالبه قائمًا على الرواية حتى نهاية عصر التابعين، وظل منهج التلقي هو المنهج السائد في عصرهم.

٤- بدء التدوين للتفسير وعلومه، لم يدون التفسير في عهد الصحابة، وإنما بدأ التدوين من عصر التابعين، وقد ظهر ذلك في كتابات سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر الذي كانت معه ألواح يكتب فيها، وهو يسأل ابن عباس، وكذلك السدي الذي جمع التفسير، ورواه عنه أسباط بن نضر الهمذاني.

٥- بروز نواة الخلاف في التفسير أكثر مما كان عليه الوضع في عهد الصحابة ﷺ، فنجد أقوالًا متعددة في معنى الآية، وهي في غالبها ترجع إلى اختلاف التنوع لا التضاد، قال ابن تيمية ﷺ: ((الخلاف بين السلف في التفسير قليل وخلافهم

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون (١/١٣١).

في الأحكام أكثر من خلافهم في التفســير وغالب ما يصــح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد))[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٣).

المطلب الثالث

أشهر المفسرين من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين عدد كبير، وهم بين المدرسة المكية، والمدنية، والكوفية، والبصرية، والشامية، وقد جاء على رأسهم:

أ – من المدرسة المكية:

١- **سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي:** المقرئ، المفسر، الفقيه، والمحدث، أحد الأعلام الذين عرفوا بالعلم وكثرة العمل الصالح، ورأى خلقًا من أصحاب النبي ﷺ، وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقد أتاه أهل الكوفة يسألوه: ((أليس فيكم سعيد بن جبير))، وقيل: كان أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه، كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، قتل في سنة ٩٥هـ))[١]، وهو أكثر من روى التفسير عن ابن عباس، يقول علي بن المديني رحمه الله: ((وأصحاب ابن عباس الذين يذهبون مذهبه، ويسلكون طريقه: عطاء، وطاووس، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، وسعيد، فأعلم هؤلاء سعيد بن جبير، وأثبتهم فيه))[٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/٤٦٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١/٧٦)، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني(٤/١١)، وشذرات الذهب (١/١٩٩)، ووفيات الأعيان (٢/٣٧١)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٣١)، وسير أعلام النبلاء (٤/٣٢٢).

(٢) العلل لابن المديني (ص: ٤٩).

٢- **مجاهد بن جبر الإمام الحبر المكي:** قال خُصيف: كان أعلمهم بالتفسير مُجاهد، وبالحج عطاء، وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وفي رواية: « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها » وقال له ابن عمر: «وددت أنَّ نافعًا يحفظ حفظك»، وقال ابن جرير رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن قال حدثنا أبو كريب قال حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه قال: فيقول له ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله »، وقال عنه سفيان الثوري رحمه الله إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك به »، وقال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحدًا أراد بهذا العلم وجه الله تعالى إلا عطاء، وطاووسًا، ومجاهدًا »، قال عنه الذهبي رحمه الله: «مجاهد شيخ القراء والمفسرين. توفي سنة ١٠٣هـ بمكة وهو ساجد»[(١)].

٣- **عكرمة مولى ابن عباس:** أحد أعلام التابعين، والمفسرين المكثرين، والعلماء الربانيين، والرحالين الجوالين، وقد طاف عكرمة البلاد ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان، وبث علمه هنالك وأخذ الصلات وجوائز الأمراء، يقول الإمام أحمد رحمه الله: «لم يدع موضعًا إلا خرج إليه»، قال عكرمة: «طلبت العلم أربعين سنة »، وقد روى عن خلق كثير من الصحابة، قال عكرمة رحمه الله: « أدركت مئتين من أصحاب رسول الله في هذا المسجد »، وكان أحد أوعية العلم، وقد أفتى في حياة مولاه ابن عباس رضي الله عنهما، وقال عكرمة: قال لي ابن عباس: « انطلق فأفت الناس، فمن سألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٤٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٤٩)، والبداية والنهاية (٩/٢٤٤)، وشذرات الذهب (١/٢٢٤).

تفته، فإنك تطرح عني ثلثي مؤنة الناس، وقال سفيان عن عمرو قال: كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم انظر كيف يصنعون ويقتتلون، قال عنه الإمام الشعبي رحمه الله: ((ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة))، وقال قتادة: ((أعلمهم بالتفسير عكرمة))، وقيل لسعيد بن جبير: ((هل تعلم أحدًا أعلم منكم قال:((عكرمة))، وقال أبو حاتم: أصحاب ابن عباس عيال في التفسير على عكرمة، توفي سنة ١٠٥هـ))[١].

ب – من المدرسة البصرية:

٤- **الحسن البصري:** وهو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري إمام أهل البصرة، وخير أهل زمانه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر في بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ بالمدينة، وفد البصرة مع أنس بن مالك، كان فقيهًا ورعًا زاهدًا شجاعًا في الحق، قال ابن سعد رحمه الله في طبقاته: ((كان جامعًا عالمِا، رفيعًا، فقيهًا، حجة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا كثير العلم فصيحًا، جميلًا وسيمًا))، وقال أبو بكر الهذلي: قال لي السفاح: بأيِّ شيء بلغ حسنُكُم ما بلغ؟ فقلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، وفيما أنزلت، ولم يقلب درهمًا في تجارة، ولا ولي سلطانًا، ولا أمر بشيء حتى فعله، ولا نهي عن شيء حتى ودعه، فقال: بهذا بلغ الشيخ ما بلغ ((سمع

(١) انظر: البداية والنهاية (٩ /٢٤٤ ـ ٢٤٦).

عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه توفي في سنة ١١٠هـ[(١)].

٥- **قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيُّ البصري:** وهو أبو الخطاب الضرير الأكمه، مفسر كتاب الله، كان آية في الحفظ، إمامًا في النسب، رأسًا في العربية واللغة وأيام العرب، عالم أهل البصرة، وقال عن نفسه: «ما قلت لمحدث قط: أعده عليّ، وما سمعت شيئًا إلا وعاه قلبي »، وقال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا »، قال ابن ناصر الدين رحمه الله: مات بواسط في الطاعون »، في سنة سبع عشرة ومائة »[(٢)].

٦- **أبو العالية الرياحي:** وهو أبو العالية رفيع بن مهران، أحد أعلام التابعين بالبصرة، وكان إمامًا في القراءة والتفسير والعلم والعمل، قرأ القرآن على أبي، وكان ابن عباس يرفعه على السرير وقريش تحته، وقال أبو بكر بن أبي داود رحمه الله: «ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير ثم السدي، ثم سفيان الثوري»، قال ابن قتيبه: حج أبو العالية ستين حجة، توفي سنة ٩٣هـ [(٣)]، ومع أنه من مفسري البصرة وممن عاش ومات فيها، لكنه مال في كثير من آرائه وتأويلاته للمدرسة المكية.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١٥٦/٧)، وفيات الأعيان (٩٦/٢)، سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤)، وتهذيب التهذيب (٢٦٣/٢)، وشذرات الذهب (٢٤٤/١-٢٤٦)، والبداية والنهاية (٢٦٦/٩ ـــ ٢٦٨)، وطبقات المفسرين(١٤٧/١).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢٢٩/٧)، وفيات الأعيان (٨٥/٤)، تهذيب الكمال(١٥٥/٣)، تذكرة الحفاظ (١٢٢/١)، سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٥)، شذرات الذهب (٢٦٨/١ ١٤٧).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (١١٢/٧)، تذكرة الحفاظ (٨٥/١)، الإصابة ترجمة ٢٧٤، وسير أعلام النبلاء (٢٠٧/٤)، وشذرات الذهب (١٨٩/١).

ج – المدرسة الكوفية:

٧- **أبو عبد الرحمن السلمي:** وهو عبد الله بن حبيب، مقرئ أهل الكوفة بلا مدافعة، قرأ القرآن على عثمان بن عفان، وعلي، وعبد الله بن مسعود ﷺ، وسمع من جماعة من الصحابة، وأقرأ القرآن من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج «أي نحو أربعين سنة»، وروى عن عثمان حديث النبي ﷺ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[1]، وقال: «وذَاكَ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا»، وقد جاء عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمي قال: إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخَرَ حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم ليشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز هاهنا ووضع يده على الحلق»، وقرأ عليه عاصم بن أبي النجود، وحدث عنه إبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وعلقمة بن مرثد، وعطاء بن السائب، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى، وكان ثقة رفيع المحل، كثير الحديث، توفي رحمه الله بالكوفة في سنة ثلاث وسبعين أو بعدها في إمرة بشر بن مروان في خلافة عبد الملك بن مروان [2].

٨- **إسماعيل بن عبد الرحمن السدي:** أصله حجازي، وسكن الكوفة، وكان يقعد في سدة باب الجامع بالكوفة، فسمي بالسدي، وهو من المكثرين بين التابعين في التفسير، بل هو أكثر تابعي الكوفة رواية ودراية في التفسير، وهو صاحب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح رقم ٤٧٣٩

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٢/٢٤٠)، الطبقات الكبرى (٦ /١٧٢)، وطبقات ابن خياط (١/ ١٥٣)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٤٢٧).

التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس، مات سنة سبع وعشرين ومائة [١].

د – المدرسة المدنية:

٩- **سعيد بن المسيب المخزومي:** المدني، أحد أعلام الدنيا، وسيد التابعين، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «لو رأى رسول الله ﷺ هذا لَسَرَّه». وقال مكحول وقتادة والزهري وغيرهم: ما رأينا أعلم من ابن المسيب، وقال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه، وهو عندي أجل التابعين، وقد جمع بين الحديث، والتفسير، والفقه، والورع، والعبادة، وقال عن نفسه: حججت أربعين حجة، وما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قَفَا رجل في الصلاة، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، وتوفي بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة [٢].

١٠- **محمد بن كعب القرظي:** منسوب إلى بني قريظة الطائفة المعروفة من اليهود، كان أبوه من سبي قريظة، وكان لم ينبت فترك، نشأ بالكوفة ثم تحول به أبوه إلى المدينة، فهو في عداد تابعي المدينة، يقول سفيان بن عيينة: «لم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله – يعني: زيد بن أسلم، وقال ابن

(١) انظر: الجرح والتعديل لعبدالرحمن الرازي (٢/ ١٨٤)، والطبقات الكبرى (٩/ ٣٢١)، والأعلام لخير الدين الزركلي (١/ ٣١٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١١٩/٥)، وفيات الأعيان (٣٧٥/٢)، تهذيب الكمال ترجمة ٥٠٥، وتذكرة الحفاظ (٥١/١)، والبداية والنهاية (٩٩٩/٩)، وسير أعلام النبلاء (٢١٧/٤)، وشذرات الذهب (١٩٢/١).

حبان رحمه الله: «من عباد المدينة وعلمائهم بالقرآن»، وعده الذهبي من أئمة التفسير[(١)].

١١- **زيد بن أسلم العدوي:** الفقيه العابد المفسر، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالتفسير والعبادة، وكانت له حلقة للفتوى والعلم بالمدينة يجلس فيها العلماء، قال أبو حازم الأعرج رحمه الله: «لقد رأيتنا في حلقة زيد بن أسلم أربعين فقيهًا سمع من جماعة من الصحابة، وله تفسير يرويه عنه ابنه عبد الرحمن، توفي سنة ست وثلاثين ومائة»[(٢)].

هـ - المدرسة الشامية:

١٢- **شهر بن حوشب الأشعري الحمصي:** ويقال أنه دمشقي تابعي جليل روى عن مولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرها، وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم، وكان عالما عابدا ناسكا، كان كثير الرواية، حسن الحديث، وقرأ القرآن على ابن عباس، وكان عالمًا كبيرًا، توفي سنة مائة للهجرة[(٣)]. رحمهم الله جميعًا.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، تهذيب الكمال (٢٦/٣٤٠)، وشذرات الذهب ١/١٣٦، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/٤٢٩)، والإصابة في تمييز الصحابة لأحمد العسقلاني (١٠/٢٧٨).

(٢) انظر: تهذيب الكمال ترجمة ٤٥١، وتذكرة الحفاظ (١/١٣٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/٣١٦)، وشذرات الذهب (١/٣٢٧).

(٣) انظر: ابن سعد (٧/٤٤٩)، تهذيب الكمال ٥٨٩، والبداية والنهاية (٢/٨٢)، سير أعلام النبلاء (٤/٣٧٢).

المطلب الرابع

الموقف من تفسير التابعين رحمهم الله

١- إذا كان قول التابعي فيما لا مجال للرأي فيه، كأسباب النزول والنسخ ونحوه، وكان التابعي من أئمة التفسير كمجاهد وسعيد بن جبير، ولم يخالف ما جاء في الكتاب أو السنة وما نقل عن أصحاب النبي ﷺ، وصحَّت الرواية في سندها، وهي مرسلة، وعضدت برواية تابعي آخر، فقد ذكر السيوطي أنه يؤخذ بها [١].

٢- إذا اجتهدوا وأجمعوا كان إجماعهم حجة على من جاء بعدهم، ولا يرتاب في الأخذ به.

٣- إذا رجعوا في تفسيرهم إلى اللغة، فإنه يحتج بأقوالهم؛ لأنهم عاشوا في عصور اللغة، وهم أهل الفصاحة والبيان.

٤- إن ورد قول عن أحدهم ولا مخالف له، فالأولى الأخذ به وتقديمه على غيره ممن جاء بعدهم؛ لما لهم من مزية العلم وفضل صحبة أصحاب النبي ﷺ، قال ابن تيميه: «من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وكانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ الدليل والمدلول جميعًا»[٢].

---

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير (ص: ١٠٥)، ومناهج المفسرين د. أحمد الشرقاوي (ص: ٤٢، ٤٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٢-٣٦٩).

٥- إن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من جاء بعدهم. قال ابن تيميه رحمه الله: ((إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم))[1]؛ وذلك لأنهم لم يسمعوا من الرسول ﷺ، ولم ينص على عدالتهم، ولم يشاهدوا القرائن.

٦- وإذا تعارضت رواية بين صحابي وتابعي تقدم رواية الصحابي.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص:٤٥).

الفصل الثالث: طرق فهم القرآن وتوظيف علومه والتعامل مع اختلافات المفسرين.

المبحث الأول
الطرق المثلى لفهم القرآن وتفسيره

المطلب الأول: فهم القرآن الكريم بالقرآن.

المطلب الثاني: فهم القرآن بما صح عن النبي ﷺ وأهل القرون المفضلة.

المطلب الثالث: فهم القرآن وفق لغة العرب.

المطلب الرابع: فهم القرآن بالرأي والاجتهاد.

مدخل:

هنالك خمسة طرق متفق عليها لفهم القرآن الكريم وفق منهج سليم وأساس قويم، وقد فهم من خلالها أصحاب النبي ﷺ وخيار علماء الأمة القرآن الكريم، وهي بيان القرآن بالقرآن، ثم بيان القرآن بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم وفق لغة العرب، وطريقتان مختلف فيهما، وهما بيان القرآن بما ورد عن أهل الكتاب، ووفق الرأي والاجتهاد، وقد جعلت في كل مطلب طريقة، واختصرت القول في البيان النبوي، وبيان القرآن بأقوال الصحابة والتابعين لما سبق الحديث عن ذلك بتفصيل، وتوسعت في بقية الطرق، بما تستدعي الحاجة إليه، وأخرت الكلام عن فهم القرآن بما جاء عن أهل الكتاب إلى مبحث العلوم التي تؤخذ في التفسير على حذر، وقد جاء الكلام في ذلك في أربعة مطالب على النحو الآتي:

الأول: فهم القرآن بالقرآن.

والثاني: فهم القرآن بما صح عن النبي ﷺ وأهل القرون المفضلة.

والثالث: فهم القرآن وفق لغة العرب.

والرابع: فهم القرآن وفق الرأي والاجتهاد.

وإليك بيان ذلك بتفصيل، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المطلب الأول

فهم القرآن بالقرآن

أولًا: أهمية فهم القرآن بالقرآن:

أصح الطرق في فهم القرآن الكريم وتفسيره، أن يفهم القرآن الكريم ويفسر بالقرآن نفسه؛ وذلك لما يلي:

١-القرآن كتاب متشابه مثاني يصدق بعضه بعضا، ويوضح بعضه بعضا، فإنَّ الناظر في القرآن الكريم يجد أن القرآن الكريم قد يجمل في موضع ويفصل في موضع آخر، ويعمم في موضع ويخص في موضع آخر، ويطلق الحكم في موضع ويقيده في موضع آخر، وما يشكل في موضع قد يوضح في موضع آخر، ويوجِزُ في موضع ويبسط القول في موضع آخر، ونحو ذلك، فمن لم يحمل هذه على تلك لا يمكن أن يفهم القرآن فهمًا سليمًا، مثال ذلك: تفسير الطارق بالنجم الثاقب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ١-٣]، وكقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] ثم بين أولياء الله في قوله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣]، ولذا فلا بد لمن يفسر القرآن أن يحمل ما أجمل على ما فصل، وما أطلق على ما قيد، وما عمم على ما خصص، قال ابن تيمية رحمه الله: « إن أصحّ الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر »[١].

٢ - ليس أدل وأوضح لفهم كلام الله من كلام الله، ففهم كلامه بكلامه أحكم؛ إذ المتكلم أعلم بمراد حديثه ومقاصده من غيره، ومن هنا كان هو أحسن أنواع التفسير.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص: ٣٩).

٣ - لأنَّ النبي ﷺ أول من اعتنى بهذا النوع في فهم وتفسير القرآن، فمن ذلك ما رواه عَلْقَمَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[١].

وعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[لقمان: ٣٤][٢].

٤ - إن العلماء من السلف وأئمة التفسير التزموه منهجًا في فهم وبيان القرآن، وجعلوه في مقدمة الطرق التي يفهم بها القرآن، ونصوا على ذلك؛ بل نقلوا الإجماع عليه، قال ابن القيم رحمه الله: «وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير»[٣]، وقد بين الشنقيطي رحمه الله في مقدمة تفسيره: «إجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا»[٤]؛ ولذا فأول ما يبحث في فهم الآية فهمها بآية أو آيات أخرى من القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: ما جاء في المتأولين ح رقم ٦٤٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: تفسير القرآن، باب: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاهو ح رقم ٤٢٦١.

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢/ ١٨٨).

(٤) أضواء البيان (١/ ٣).

ثانيًا: كيفية فهم القرآن بالقرآن:

فهم القرآن بالقرآن مختلفة مراتبه، ومتباينة طرقه، فحسب ظهور علاقة الآية بالآية في لفظها ومعانيها، وحسب قوة ظهور العلاقة، تبرز قوة تفسير القرآن بالقرآن، ولكن في الجملة له طريقتان:

الطريقة الأولى: بيان القرآن بالقرآن:

وهذه الطريقة لها أوجه عديدة، من ذلك:

أ - توضيح المجمل:

كقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]، جاء بيان هذه الكلمات المجملة هنا مفصلة في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

وكقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٣]، ففيها أجمل القدر الذي ينفق منه، والذين ينفق عليهم، فجاء بيان ذلك في آيات أخرى فبين القدر الذي ينبغي إنفاقه؛ وهو العفو، الذي هو القدر الزائد عن الحاجة في قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[البقرة:٢١٩]، وبين من ينفق عليهم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٥][(١)].

وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١]، فأجمل ما حرم، ثم جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

(١) المصدر السابق (١/ ١٠٧).

وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة:٣][(١)]، ويدخل فيه توضيح الموضوع وتفصيله: كالصبر، والصلاة ونحو ذلك.

ب – تخصيص العام:

نحو قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [الإسراء:٢٤]، فهي تعم الاستغفار لكل أب مسلمًا كان أو كافرًا، ثم خصص الأب المؤمن بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وكقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فهذا حكم عام في كل مطلقة، وقد خصص بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:٤].

ج – تقييد المطلق:

كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٠]، ففي هذه الآية أطلق عدم قبول توبة من كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرًا، ولكن هذا الإطلاق قيده في قوله تعالى: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٨] بمن حضرته الوفاة وهو على كفره، وبِمَن مات على الكفر.

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٩٢).

د - توضيح المشكل:

كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر:٣] فظاهره مشكل؛ لأن الله هدى كفارًا كثيرين، ثم جاء توضيح هذا المشكل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [يونس:٩٦-٩٧] فبينت أن المراد: لا يهدي الله من كان في علمه أنه حقت عليه كلمة العذاب، وهو كلمة الرب تبارك وتعالى »[1].

هـ - بيان المبهم:

كقوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ [البقرة:٢٥٣] فجاء بيان ما أبهم هنا في قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[النساء: ١٦٤]، ومنه ما هو توضيح معنى مفردة: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج:١٩]، ثم فسر الهلوع بقوله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج:٢٠-٢١].

وهذه الطريقة - وهي بيان القرآن بالقرآن - درجات ومراتب أعلاها: ما هو منصوص عليه في القرآن كتفسير الهلوع، وما هو منصوص عليه في السنة كما سبق من أمثلة، ويليها ما هو قائم على اجتهادات العلماء، وهو يعلو وينخفض على حسب قوة قائل القول، وعلى حسب العلاقة بين الآية والآية الأخرى في بيانها، فإذا كان القول عن الصحابة والتابعين، يكون هذا التفسير من باب التفسير المأثور[2]، وإن كان من اجتهادات المتأخرين، يكون من باب التفسير بالرأي، وهو محل نظر ومناقشة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٩).

(٢) ومن هنا جعله بعض العلماء ضمن التفسير بالمأثور.

ومن هنا كان تفسير القرآن بالقرآن منه ما يقبل مطلقًا، وهو حجة ملزمة، وهو تفسير القرآن للقرآن، ومنه ما يخضع لضوابط التفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين، ومنه ما يخضع لضوابط التفسير بالرأي من حيث قبوله ورده.

الطريقة الثانية: بيان الآية بأوجه القراءات المتنوعة فيها:

وعلاقة القراءات بفهم القرآن وتفسيره تنقسم إلى قسمين:

أ – قراءات ليس لاختلافها أثر واضح في فهم الآية أو تحديد دلالاتها: كاختلاف القراءات في الإمالات، وتسهيل الهمزات أو تحقيقها، والإدغام ونحو ذلك؛ فهذه لا تأثير لها في اختلاف المعاني، وإنما أثرها في كيفيات النطق والأداء.

ب – قراءات لاختلافها أثر في توسيع فهم المعنى، أو إزالة ما يشكل، أو الترجيح بين المعاني المحتملة للآية، وهذا النوع غالبه يتعلق باختلاف الفرش دون الأصول، مثال ذلك:

١ – توسيع المعنى: مثال ذلك في توسيع المعنى: كقراءة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] في قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بالألف مدا « مالك »، وقرأ الباقون بغير ألف قصرًا [(١)] ﴿مَلِكِ﴾. قال البيضاوي رحمه الله: «والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك. والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك»[(٢)]، وقراءة فتبينوا وتثبتوا، فالتبين يحتاج إلى تثبت، وقراءة يكذبون، ويكذّبون بالتشديد.

٢ – إزالة ما يشكل: قد يكون للقراءة أثرٌ في توضيح ما خفي من معنى الآية في قراءة أخرى لها، ولربما أشكل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦]، فأشكل

---

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (١/ ٢١٣).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١/ ٦).

ذلك على بعض الجهلاء حتى فسروها بما لا يليق بالأنبياء فجاءت القراءة الثانية وهي في رواية الترمذي وغيره في حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأها: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾[(١)]، وهي قراءة الكسائي ويعقوب مزيلة لكل إشكال[(٢)] وهي ﴿عَمِلَ﴾ بكسر الميم وفتح اللام ﴿غَيْرَ﴾ بفتح الراء على عود الفعل على الابن، ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح، ومن كان عمله غير صالح لا يجوز طلب النجاة له[(٣)].

٣ - **الترجيح بين المعاني المحتملة في الآية:** كقراءة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] التي تُجَوِّز قربان الحائض بمجرد انقطاع الدم، كما هو مذهب أبي حنيفة، وجاء في قراءة حمزة والكسائي وخلف وأبي بكر ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء والباقون بالتخفيف[(٤)]، بمعنى لا يجوز قربان الحائض إلا بعد استعمال الماء، بأن تغسل موضع الدم منها فقط أو تتوضأ، أو تغتسل كما هو مذهب الجمهور مالك والشافعي وأحمد[(٥)]، ويرجح رأي الجمهور؛ لأن القراءات تدل بعضها على بعض دون تضاد.

وكما أن للقراءات المتواترة أثرها في التفسير فكذلك للقراءات الشاذة أثرها فقد جعلها عامة علماء التفسير أحد مصادر فهم المعنى، وشذوذها لم يلق الاستفادة بها في دلالة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ح رقم ٢٩٣١، وأبو داود ح رقم ٣٩٨٥، والبيهقي في السنن الكبرى ح رقم ٢٦٨٩، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢١٧).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٣/ ٢٣٥).

(٤) النشر في القراءات العشر (٢/ ١٧١).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢/٨٠).

المعنى؛ وإن ألقى التعبد بها في التلاوة؛ لأنها تنزل منزلة خبر الآحاد في الاحتجاج، وكل من يطالع كتب التفسير يجد لذلك عشرات الأمثلة في كيفية الاستفادة منها في بيان المعنى أو ترجيح بعض الأقوال.

ج – أبرز العلماء الذين اهتموا ببيان القرآن بالقرآن:

أبرز العلماء الذين اعتنوا بفهم وتفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم من علماء التفسير هم:

- ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) في تفسيره « جامع البيان ».
- والحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٣ هـ) في تفسيره «تفسير القرآن العظيم».
- والشيخ محمد الأمين محمد المختار الشنقيطي (ت: ١٣٩٣) في كتابه « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن «واشترط أن لا يوضحه إلا بقراءة سبعية، وقد صنفه لهذا الغرض، كما نص على ذلك في مقدمته.
- وأبو الوفاء ثناء الله الهندي (ت: ١٣٦٧) في كتابه المختصر « تفسير القرآن بكلام الرحمن».

المطلب الثاني

فهم القرآن بما صح عن النبي ﷺ وأهل القرون المفضلة

أولًا: فهم القرآن بما صح نقله عن النبي ﷺ:

قد بينا فيما سبق أن أصح الطرق في فهم القرآن الكريم فهمًا سليمًا بعد فهمه بالقرآن أن يفهم القرآن بالسنة النبوية، ولا بد لفهم القرآن بالسنة من الإلمام بما صح عن الرسول ﷺ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، بل قد قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: «كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء:١٠٥]»[1].

وقد بينا بأن النبي ﷺ لم يبين من القرآن إلا ما احتاج إلى بيان، وما ترك بيانه تركه لمعرفة الناس له، لأنه نزل بلسانهم، وبيان النبي ﷺ للقرآن يؤخذ من كتب الحديث الصحاح، والسنن، والمسانيد.

وهنالك جوانب مهمة ينبغي التنبه إليها في بيان القرآن بالسنة، **منها:**

أولًا: إذا صح عن النبي ﷺ في معنى الآية هو المعتمد، ولا يلتفت لقول غيره، كقوله تعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقد وردت أقوالًا عديدة في الصلاة الوسطى، والمرجح منها ما صح عن الرسول ﷺ بأنها صلاة العصر. وكل ما جاء من قول يخالف قوله فلا حرج في رده في التفسير.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٣).

ثانيًا: إذا كان في الآية ما لا يمكن معرفة معناه إلا ببيانه عليه السلام ولم يرد عنها فيه عنه ﷺ فيه الأسلم التوقف في الحديث عنها، وقلنا بما قال الله به، كالقول في الأحرف المقطعة في بدايات السور قال ابن كثير رحمه الله: ((لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى، ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبدلا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرا فتعين أن لها معنى في نفس الامر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾))[1].

ومثله كقوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٣]،وقد جاء في ((بعضها)) عدة أقوال: إنه فخذ البقرة التي ذبحوها، وقيل: البَضْعة التي بين كتفيها، أو إنه عظم من عظامها ونحوه، ولا يمكن تحديد ذلك البعض إلا بدليل من الوحي؛ ولم يرد دليل من الرسول ﷺ يحدد البعض؛ ولذا نقول قلنا بما قال الله به، دون الخوض فيما لا فائدة من الخوض فيه.

ثالثًا: إذا احتملت الآية عدة معانٍ فلا ينبغي لأحد أن يحدد مراد الله منها بشيء محدد إلا بحجة ثابتة من الرسول ﷺ، وقد تحدث عن هذه القاعدة ابن جرير في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] لأن الآية قد ينقل فيها عدد من المعاني، فقال ((والكلمة إذا احتملت وجوهًا لم يكن لأحد صرف معناها إلى بعض وجوهها دون بعض إلا بحجة يجب التسليم بها))[2].

ثالثًا: فهم القرآن من خلال فهم أصحاب الرسول ﷺ:

وإذا لم نجد تفسيرًا للقرآن في القرآن والسنة، يرجع إلى فهم الصحابة رضي الله عنهم، وقد سبق الكلام عن قيمة أقوالهم في التفسير، وعن خصائص فهمهم للقرآن وتفسيره، وبينا

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٥٦).

(٢) جامع البيان (١/٢٢٧).

الموقف من تفسيرهم، وبقيت مسألة واحدة ذكرها الغزالي والقرطبي وابن عاشور وهي: أنه لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعًا من النبي ﷺ لوجهين:

أحدهما: أن النبي ﷺلم يثبت عنه من التفسير إلا آيات قليلة.

والثاني: أنهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها»[١].

وهنالك قضية ثالثة: وهو أنهم كانوا يصرحون أن هذا القول برأيهم، كما روي عن الصديق رضي الله عنه أنه عند ما سئل عن الكلالة في آية النساء فقال أقول فيها برأي فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان.

ثالثًا: فهم القرآن من خلال أقوال التابعين رحمهم الله:

إذا لم نجد تفسيرًا للآية في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من العلماء إلى أقوال التابعين؛ وهو رابع الطرق المعينة على فهم القرآن، والجمهور[٢] على اعتبار أقوالهم واعتمادها والاحتجاج بها، وقد سبق الكلام في بيان الموقف من تفسير التابعين كذلك.

رابعًا: أقوال تابع التابعين في التفسير:

أما أقوال تابع التابعين فهي قد وجدت عناية واهتمامًا من المفسرين المعتنين بآثار الصحابة والتابعين كتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وابن جرير، وابن أبي حاتم والثعلبي وغيرهم، وروا الكثير من أقوالهم كمحمد بن السائب، ومقاتل ابن سليمان، ومحمد بن إسحاق، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ويحي بن سلام وغيرهم، وذلك لأنهم يدخلون في القرون المفضلة، قال النووي بعد أن بين اختلاف العلماء في تحديد هذه

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١٥٨/٢).

القرون قال: «والصحيح أن ﷺ الصحابة، والثاني التابعون، والثالث تابعوهم»[١]، ولأنهم تتلمذوا على يدي كبار التابعين وهم امتداد لهم ولم يخرجوا عن منهجهم، ونقلوا لنا ما سمعوه عنهم من روايات الصحابة في التفسير[٢]، والعلماء مع عنايتهم بأقوالهم ورواياتهم عنهم إلا أقوالهم تأتي في مرتبة متأخرة في الحجية عمن سبقهم من الصحابة والتابعين.

وهذه أهم مصادر التفسير بالمأثور، الذي يعتمد على صحيح المنقول عن النبي ﷺ والآثار الصحيحة المنقولة عن الصحابة والتابعين، وعلى من يخوض فيه أن يحذر مما دسَّ فيه من روايات موضوعة وأحاديث وآثار مكذوبة. أما الآثار الضعيفة التي يصح معناها فقد أخذ بها علماء التفسير، ورواها بعضهم من غير إسناد وتدقيق من هذا الباب.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٨٤).

(٢) فقد قام الدكتور خالد بن يوسف الواصل بتقديم دراسة قيمة في هذا الموضوع بعنوان: " تفسير أتباع التابعين عرض ودراسة" استوفى الكثير من جوانب هذا الموضوع يرجع إليه لمزيد من الفائدة.

المطلب الثالث

فهم القرآن وفق لغة العرب

أولًا: دور اللغة في فهم القرآن الكريم:

قد تضافرت الأدلة الكثيرة التي تبين عظمة اللسان الذي نزل به القرآن المجيد، قال تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا ﴾ [طه:١١٣]، وقال تعالى: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصلت:٣]؛ ولذا قال العلماء: لا يفهم القرآن إلا وفق لغة العرب، وطرائقهم في التعبير، ووجوه تصرفهم في البيان، وأن كلَّ معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي مردود، ولا يُوصل لفهم القرآن الكريم إلا بالمعرفة الكبيرة بلغة العرب؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فمعرفة اللغة طريق من الطرق المهمة لفهم القرآن؛ خاصة إذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيرًا لا في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين.

قال الطبري رحمه الله: « فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمًا »[١]. وقال الشاطبي رحمه الله: « القرآن نزل بلسان العرب على الجملة؛ فطلب فهمه إنَّما يكون من هذا الطريق خاصة.. فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة »[٢]. وقال ابن عبد البر رحمه الله: «ومما يستعان به على فهم الحديث

(١) جامع البيان (١/٥٥).

(٢) الموافقات للشاطبي (٢/٣٧٥).

ما ذكرناه من العون على كتاب الله، وهو العلم بلسان العرب ومواقع كلامها، وسعة لغتها، واستعارتها ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه، وسائر مذاهبها لمن قدر فهو شيء لا يستغنى عنه))(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله: ((لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك))(٢).

فإن الله خاطب كل قوم بما يفهمونه، كما قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[إبراهيم:٤]، ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب نحوًا وصرفًا وبلاغةً ومعنى أن يفسر القرآن، كما قال مجاهد رحمه الله: ((لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب))(٣).

ولذا جعل العلماء تعلم اللغة العربية من فروض الكفايات، قال ابن تيمية رحمه الله: ((تعلم العربية التي يتوقف فهم القرآن والحديث عليها فرضٌ على الكفاية))(٤).

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى لغة العرب، ويشيرون لمن خفي عليه معنى أن يرجع إليها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((كنت لا أدري ما ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأنعام:١٤]؛ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٤٠٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/١١٦).
(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/١١٩٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٩ / ١٧١).

ابتدأتها))[١]. وكان يقول:((إذا خفي عليكم شـيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنَّه ديوان العرب))[٢].

ثانيًا: أثر الجهل باللغة في فهم القرآن الكريم:

عدم فهم القرآن وفق قانون اللغة يوقع في تحريف الكلام بغير ما أراد الله به، كمن يدعي جواز نكاح الرجل من تسع نسوة حرائر مستدلًا، بقوله تعالى ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣]، ولا يقول بهذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع، ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالًا؛ لأن الله قال: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ [المائدة:٣] فلم يحرم شيئًا غير لحمه، ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس.

ومنهم من فسر غَوَى في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١]، أنه تخم من أكل الشجرة من قول العرب: غَوِيَ الفصيل يَغْوَى غَوًى إذا بشم من شرب اللبن. وهو فاسد؛ لأن غَوِيَ الفصيل فَعِل، والذي في القرآن على وزن فَعَل))[٣].

ومنهم من فسر ((مبصرة)) في قوله تعالى:﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾[الإسراء:٥٩] صفة للناقة، فقالوا: كانت ناقة صالح غير عمياء، وجهلوا أن مبصرة حال، والمعنى آية بينة ومعجزة قاطعة فكفروا بها.

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن (ص: ٣٤٥)، والبيهقي في الشعب ح رقم ١٦٨٢، وقال صاحب المقدمات الأساسية في علوم القرآن: سنده حسن، (ص: ٣٠٩).

(٢) أخرجه الحاكم ح رقم ٣٨٤٥، وقال صحيح الإسناد.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي (٤٩/١).

ومنهم من فهم ((رجالًا)) من قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج:٢٧] على وجوب الحج على الرجال دون النساء، ولم يدركوا أن المقصود بـــ (رجالًا) على أرجلهم مشــيًا على الأقدام بدلالة ما بعده من قوله تعالى:﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[١].

فلا يجوز تفسير القرآن لمن يجهل لغة العرب؛ فقد روى البيهقي في شعب الإيمان عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: ((لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسّر كتاب الله إلاّ جعلته نكالًا))[٢]، كما لا يجوز استنباط معنى لا يجري على مقتضى الظاهر المقرر في لســان العرب، وليس يعارض نصًــا في موضــع آخر؛ لأن القرآن عربي، ويصــدق بعضه بعضا.

وكلما تمكن الإنســان من لغة العرب ســاعده ذلك في فهم القرآن الكريم، واســتنباط دقائقه، قال أبو حيان الأندلســي رحمه الله: ((ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ولا معلم، وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه، فلذلك اختلفت أفهامهم، وتباينت أقوالهم))[٣]؛ ولذا ما احتاج سـلف هذه الأمة إلى كثرة بيان، ولم يبينوا إلا ما احتاج إلى بيان، وعَنْ الشَّـعْبِيِّ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: (هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَالَ: لا، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ)[٤].

---

(١) تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله الزبير عبد الرحمن (ص: ١٠٢).

(٢) البرهان للزركشي (٢/ ١٦٠).

(٣) البحر المحيط (١/٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب كتابة العلم ح رقم ١٠٨.

ثالثًا: أهم ما يحتاج إليه من اللغة لفهم القرآن الكريم:

يحتاج المفسر لفهم القرآن الكريم من اللغة للآتي:

أ- معرفة معاني الكلام اسمًا وفعلًا وحرفًا، والحروف لقلتها تحدث عن معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة.

ب- معرفة أحكام الكلام من حيث الإفراد والتركيب، ويؤخذ ذلك من علم النحو والصرف.

ج -معرفة فصاحة الكلمة وحسن بلاغة التركيب يؤخذ ذلك من علم البيان والبديع.

رابعًا: اتجاهات التفسير اللغوي:

فهم القرآن وفق لغة العرب أخذ اتجاهات متنوعة، من ذلك:

١- تفسير المعنى اللفظي: أي بيان ألفاظ القرآن كلمة كلمة، ومفردة مفردة يبين المعنى اللغوي واستعمالات العرب لها، ولم ترد لفظة في القرآن إلا وفق الوضع الذي استعملته العرب، وهو من أول العلوم التي تعين على فهم القرآن، كما قال الزركشي رحمه الله: « الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللَّبِن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه، قالوا: وليس ذلك في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره، وهو كما قالوا: إن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته؛ لأن الجزء سابق على الكل في الوجود الذهني والخارجي »[1].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٩٠).

وهذا النوع يسمى عند العلماء بتفسير غريب القرآن، ولا يقصدون بالغريب النكارة والشذوذ فالقرآن مبرأ عن هذا، وإنما الغرابة من حيث الاستعمال، أو الوضع ولذا قسموه إلى قسمين:

الأول: الوجوه والنظائر: وهي الألفاظ التي وردت بمعانٍ مختلفة مثل الصراط المستقيم، الهدى ونحوها.

والثاني: المفردة: وهي الألفاظ التي وردت بمعنى واحد في كل ما وردت فيه من استعمال.

وممن اشتهر بالتفسير اللفظي للقرآن الكريم: الراغب الأصفهاني في غريب القرآن، والأخفش في كتابه معاني القرآن، والكسائي في كتابه معاني القرآن، والزجاج في كتابه معاني القرآن، وأبو عبيدة في كتابه غريب القرآن، ومن المعاصرين محمد حسنين مخلوف في كتابه كلمات القرآن.

٢- تفسير المعنى التركيبي: ويقصد به أن يعتني بالمعنى من حيث السياق التركيبي للجملة أكثر من معاني المفردات، وهو مقصود القرآن قال الشاطبي رحمه الله: «الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم؛ بناءً على أن العرب كانت عنايتها بالمعاني، وإنَّما اصطلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فالألفاظ إنَّما هي وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضًا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهومًا دونه»[(١)].

ومما يدل على أهمية إدراك المعاني من خلال السياق؛ أن الألفاظ قد تتغير معانيها بتغير السياق وأحوال الخطاب، كاختلاف معاني الصلاة، فمن معانيها التي تفهم من السياق « القراءة والدعاء »، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ

---

(١) الموافقات (٢/ ٣٩٦).

بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:١١٠] فالمراد بالصلاة القراءة، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] يراد بالصلاة الدعاء، وهو يعتنى فيه بالنحو والصرف والبلاغة.

وممن اعتنى بهذا النوع في تفسيره: الزمخشري في الكشاف، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط، ومحيي الدين الدرويش في إعراب القرآن الكريم وبيانه، وغيرهم.

المطلب الرابع
فهم القرآن بالرأي والاجتهاد

ولما كان الرأي منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، وكان لكل واحد منهما أثره على التفسير، جاء كلام العلماء فيه مفصلًا في الحديث عن أقسام التفسير، خاصة في الحديث عن التفسير بالرأي؛ ولذلك سوف يأتي الحديث عن هذا الموضوع في أقسام التفسير في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني
فضل علوم القرآن الكريم ومجالات توظيفها

المطلب الأول: فضل علوم القرآن الكريم.

المطلب الثاني: مجالات توظيف علوم القرآن في خدمة القرآن.

المطلب الأول

فضل علوم القرآن الكريم

إنَّ علوم القرآن كثيرة، وضروبها عديدة، وهي بلا شك من أشرف العلوم على الإطلاق؛ وذلك لتعلقها بخير كلام أنزله الله تعالى، فلما كان القرآن خير الكلام كانت علومه خير العلوم، وهي علوم مهمة لكل مشتغل بتعلم القرآن الكريم، من رزقها فقد رزق خيرًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الحكمة: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله) [(١)].

وعن أبي العالية رحمه الله قال: «الحكمة: الكتاب والفهم فيه، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة» [(٢)]. ومن هنا كان «من يعطى علم القرآن، فقد أعطي خيرًا كثيرًا» [(٣)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]: « القرآن، وهو قول علي بن أبي طالب » [(٤)]، قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله « يقول: أرشدنا إلى علمه » [(٥)]، وقال الحسن البصري رحمه الله: « علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢/١٥٨٠)، وذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٣١)، وصححه الدكتور حكمت بن بشير ياسين في التفسير الصحيح (١/ ٣٧٨).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢/١٥٨٠)، ومعالم التنزيل للبغوي (١/١٥٢)، وتفسير القرآن العظيم ابن كثير (١/٧٠٠).

(٣) بحر العلوم، السمرقندي (١/٢٢٤).

(٤) معالم التنزيل للبغوي (١/٦).

(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/٣٤٠).

الذكور من الرجال»[١]، وقال علي بن أحمد الحرالي[٢] رحمه الله: «وأكمل العلماء من وهبه الله تعالى فهمًا في كلامه، ووعيًا عن كتابه، وتبصرة في الفرقان، وإحاطة بما شاء من علوم القرآن، ففيه تمام شهود ما كتب الله لمخلوقاته من ذكره الحكيم، بما يزيل بكريم عنايته من خطأ اللاعبين إذ فيه كل العلوم »[٣].

ولأهمية علوم القرآن كان الحديث عن بعض مباحثه مبكرًا منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم؛ مثل المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ، والمحكم والمتشابه، والقراءات، وغيرها. وقد جعلها العلماء مقدمات لتفاسيرهم، وأفردت لها المصنفات، وأصبحت مادة علمية تدرس للطلبة قبل دراسة التفسير باعتبارها مدخلًا ومقدمات مهمة لدراسة التفسير؛ ولكن هذه المادة التي تدرس للطلاب، وكتب حولها العلماء تحت مسمى علوم القرآن الكريم ليست كلها ذات صلة بالتفسير، بل هنالك ما لا صلة له بالتفسير بصورة مباشرة، ويمكن فهم الآية بدونها دون أن يكون هنالك خلل في منهجية الفهم؛ ولكن الجهل بها يؤثر في المنهجية الكلية في التعامل مع القرآن الكريم.

وهنالك مباحث من علوم القرآن تمثل أدوات مهمة لفهم القرآن الكريم لا بد من الإلمام بها قبل دراسة التفسير؛ لأنها من صميم علوم التفسير، فمن هنا حرص الباحث أن يبين في المطلب القادم المجالات التي تخدمها مادة علوم القرآن الكريم بصورة عامة، ثم يبين بعد ذلك في المبحث القادم كيفية توظيف العلوم الخاصة بالتفسير في خدمته، ولأهميته وسعته أفردت له مبحثًا خاصًا.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢٧/١)، لعله أراد أصحاب الهمم العالية.

(٢) وهو: وهو: أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي، صاحب كتاب مفتاح الباب المقفل لفهم كتاب الله المنزل، وله تأليف حسن في الفرائض، توفي سنة ٦٣٧هـ " انظر: الوفيات لابن قنفذ (ص: ١١).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢٤/١).

المطلب الثاني

مجالات توظيف علوم القرآن في خدمة القرآن

يتبين من خلال الاســـتقراء لمفردات علوم القرآن الكريم، أنَّ علومه خادمة للقرآن الكريم في سبع مجالات، يبرز من خلالها شرف هذا العلم وأهميته وأهدافه، ويحسن من معرفتها حسن توظيفها، وهذا ما تبينه الجدول ادناه، وتليه النقاط التفصيلية السبعة:

مجالات توظيف علوم القرآن في خدمة القرآن:

التعريف بعظمة القرآن الكريم.	الإلمام بتاريخ القرآن الكريم .	الأداء اللفظي الصحيح للقرآن الكريم.	فهم وتدبر القرآن الكريم.	إعجاز القرآن الكريم وأسراره.	الانتصار للقرآن الكريم.	الحفاظ على القرآن الكريم كما أنزل.

أولًا: مجال التعريف بعظمة القرآن الكريم:

من المجالات العظيمة والأهداف الكبيرة التي تخدمها مادة علوم القرآن الكريم التعريف بعظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، بما يدفع المؤمن إلى محبته واتباعه؛ لأن عدم تعظيم القرآن الكريم والاستهانة به ناقضٌ من نواقض الإيمان؛ إذ الاستهانة به وعدم تعظيمه استهانة بمن تكلم به ﷻ، ولذا وصف الله المستهزئين به أو بآياته أو برسوله بالمجرمين، ووعدهم بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦]، ومن عرف عظمة القرآن الكريم أحبه، ومن أحبه أكثر من تلاوته، وتشوق للاستماع

لآياته، وأطال نظره في تدبر معانيه، وحمل جوارحه للعمل بهديه، ومن هنا كان تعظيم القرآن الكريم ومحبته هو مفتاح القلب للإقبال على كتاب الله تلاوة وحفظًا وفهمًا وعملًا وتعليمًا.

فأول خطوة تدفع المؤمن نحو تعلم القرآن الكريم وتقوي عزمه في الإقبال عليه، والتأثر به، ووجود نفعه في قلبه بعد معرفة عظمته زيادة محبته في قلب المؤمن؛ لأنَّه «من المعلوم أن القلب إذا أحب شيئا تعلق به، واشتاق إليه، وشغف به، وانقطع عما سواه، والقلب إذا أحب القرآن تلذذ بقراءته، واجتمع على فهمه ووعيه فيحصل بذلك التدبر المكين، والفهم العميق، وبالعكس إذا لم يوجد الحب فإنَّ إقبال القلب على القرآن يكون صعبًا، وانقياده إليه يكون شاقًا لا يحصل إلا بمجاهدة ومغالبة، وعليه فتحصيل حبّ القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التدبر»[1]. قال الشنقيطي رحمه الله: «والله ما دخلت محبة القرآن إلى قلب عبد فأعقبها تطبيق هذا القرآن إلا كان أشد الناس تأثرًا به، وإن من دلائل السعادة والإيمان الحقة محبة القرآن، ومحبة سماعه وتلاوته والحياة والعيش معه، هذا هو الذي سعد به السلف الصالح، ونالوا به مراتب الفوز والكرامة، وأذاقهم الله به حلاوة الإيمان، فعاشوا عيشة طيبة هنيئة راضية، ما بين ذكر وشكر، وكلام مستقيم، وفعل قويم، كل ذلك حينما كانوا مع القرآن، فمن كان مع القرآن كان الله معه، ومن عاش مع القرآن أحيا الله قلبه بالقرآن، وما حييت القلوب بشيء مثل القرآن، ولا استنارت ولا أشرقت بشيء مثل كلام الرحمن، وإذا لم تسعد القلوب للقرآن فلأي شيء ستسعد، وإذا لم تهتد

---

(١) مفاتح تدبر القرآن، للدكتور خالد بن عبد الكريم اللّاحم (ص: ٢٠).

بالقرآن فبأي شيء تهتدي؟ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥]))[١].

ومن هنا جاءت بعض علوم القرآن الكريم خادمة لهذا الجانب المهم لكل متعلم للقرآن الكريم، من ذلك: علم الإيمان بالقرآن وحقيقة الإيمان به[٢]، وعلم الاستشفاء بالقرآن، وعلم الوحي من حيث تعريفه، وأنواعه، ومصدره، وكيفيات نزول الملك به، وأسماء القرآن الكريم وصفاته، وفضائل القرآن الكريم، وفضائل بعض سوره وآياته، وخصائص القرآن الكريم، وآداب تلاوته وتعلمه، وحكم أخذ الأجرة على تعليمه، ونسيان القرآن الكريم، وعواقب هجره، والعلوم المستنبطة، وأسرار فواتح السور وخواتيمها، والسجود عند تلاوة بعض آياته، وغيرها.

ثانيًا: مجال الإلمام بتاريخ القرآن الكريم:

القرآن الكريم منذ نزوله وإلى يومنا هذا مرَّ عبر تاريخه الطويل بمراحل مهمة حتى وصل إلينا كما أنزل، وسيبقى كذلك؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ولكن المؤسف حقًا أن تظهر في الأمة فرقة تكذب الله في خبره، وتشكك في ثوابت الدين ويقينياته، فتطعن في هذا الجانب مستندة على أكاذيب واهية، فجاءت مباحث في علوم القرآن لتبين لنا الدقة المتناهية التي حظي بها القرآن الكريم من أول ما نزل إلى أن وصل إلينا، بهدف زيادة الثقة واليقين بوصول القرآن الكريم إلينا بدون زيادة أو نقصان، من هذه المباحث: الحديث

---

(١) دروس للشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي (٤٥/ ٦)، مفرغ في المكتبة الشاملة الإلكترونية لم أقف عليها في مطبوعاته.

(٢) هذا العلم يدرس اليوم ضمن مفردات العقيدة، والأولى أن يكون ضمن مفردات علوم القرآن الكريم؛ لأنه الحق الأول للقرآن الكريم، والدافع القوي لتعظيمه ومحبته، وكل ما ضعف الإيمان ضعف تعامل المسلم مع كتاب الله، وقد أفردت هذا الموضوع ببحث خاص ولله الحمد والمنة، نشر بمجلة هيئة علماء السودان، العدد(١٤) محرم ١٤٣١هـ.

عن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ، وتلقي جبريل للوحي من الله، وكيفية تلقي النبي ﷺ للوحي، ومواطن نزول القرآن الكريم وأوقاته ووقائعه، ونزوله منجمًا، والأحرف التي نزل عليها، وحكمتها، ووجودها في المصاحف، وكيفية التحمل، ومعرفة حفاظه ورواته وأسـانيدهم، وجمع القرآن والمراحل التي مرَّ بها كل جمع، والذين قاموا بجمعه في كل مرحلة، وضـوابط الجمع، ومميزات كل جمع، وترتيب القرآن في آياته وسـوره، ورسـم المصحف، والمراحل التي مر بها ضبط القرآن الكريم في التنقيط والتشكيل والتحزيب.

وهنالك مباحث خادمة لهذا المجال ولها إسـهام آخر في التفسـير منها: معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل، والمكي والمدني؛ لأنه يسـهم في معرفة التدرج في التشـريع، وفي فقه إنزال القرآن في الواقع، ومعرفة أحكام الناسـخ من المنسـوخ، والمخصـص للعام، «وقد اتفق العلماء على أن الخاص المتأخر هو المقدم على العام المتقدم»[1]. قال شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فأمره الله سـبحانه وتعالى أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادا كبيرا، وهذه السـورة مكية نزلت بمكة قبل أن يهاجر النبي ﷺ وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال، وأما القتال فيحتاج إلى التدبير والرأي»[2].

ثالثًا: مجال الأداء اللفظي الصحيح للقرآن الكريم:

أخذ النبي ﷺ القرآن عن طريق التلقي من جبريل عليه السلام، قـال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦]، وظلت سُـنَّة التلقي للقرآن من أفواه القراء المتقنين لألفاظه كما سمعوه من النبي ﷺ هي سُـنَّة تعلمه على مر الدهور، وجعل الله إحسـان

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢١/ ٢٦٣).

(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (٨/٤٣).

تلاوته من أعظم القربات التي ينال بها العبد أرفع الدرجات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾[فاطر:٢٩ -٣٠]. وقال النبي ﷺ:(الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ)[١]، ومن هنا جاءت بعض العلوم خادمة للقرآن الكريم في مجال تنمية القدرات في الأداء اللفظي الصحيح تعبدًا وتعليمًا، موصلة لحسن تلاوته التي أمرنا بها، منها: علم التجويد الذي عرف بقولهم: ((هو إعطاء الحروف حقها في النطق بها على أتم وجه، ومستحقها من الأحكام الناشئة عنها، وإخراج كل حرف من مخرجه الصحيح، وأيضًا تحسين الصوت بالتلاوة إن أمكن))[٢]، وعلم القراءات، لأن الأصل في علم القراءات أن يبحث في اختلاف القراء في وجوه النطق، كالمد والإمالة والتخفيف والتسهيل ومخارج الحروف، حفظ من خلالها الأداء لكل قارئ وراوٍ وما تلقوه بسند متصل عن النبي ﷺ، ومن ذلك كيفية وطرق التحمل، وتحسين الصوت بالقرآن، ومراتب القراءة، وغيرها.

رابعًا: مجال فهم وتدبر القرآن الكريم:

فهم القرآن الكريم مقصد أساسي من إنزاله، ولذا جعله الله واجبًا من الواجبات، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص:٢٩]. قال القرطبيُّ رحمه الله: ((وفي هذا دليلٌ على وجوبِ معرفةِ معاني القرآن))[٣]. وقال السَعديُّ رحمه الله:((﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: هذه الحكمةُ من إنزالِهِ، ليتدبرَ الناسُ آياتهِ؛

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: فَضْلِ الْمَاهِرِ بِالْقُرْآنِ وَالَّذِى يَتَتَعْتَعُ فِيهِ ح رقم ١٨٩٨.

(٢) الروضة الندية شرح متن الجزرية (٣٢/٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦٣/٨).

فيستخرجوا علمَها، ويتأملوا أسرارَها وحكمَها، فإنه بالتدبرِ فيهِ والتأملِ لمعانيه، وإعادةِ الفكر فيها مرةً بعد مرة تدركُ بركتُه وخيره، وهذا يدلُّ على الحثِّ على تدبرِ القرآن، وأنه من أفضلِ الأعمال، وأن القراءةَ المشتملةَ على التدبرِ أفضلُ من سرعةِ التلاوةِ التي لا يحصلُ بها هذا المقصودُ ›› [1]. وقال ابنُ القيم رحمه الله: ‹‹ولهذا أنزلَ اللهُ القرآن ليتدبر، ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجردِ التلاوةِ مع الإعراضِ عنه›› [2]. وقال: ‹‹ وأما التأملُ في القرآنِ فهو تحديقُ ناظر القلبِ إلى معانيهِ، وجمعُ الفكرِ على تدبرِهِ وتعقلهِ هو المقصودُ من إنزالهِ؛ لا مجردَ التلاوةِ بلا فهمٍ، ولا تدبر›› [3]. وقال الشوكانيُّ رحمه الله: ‹‹وفي الآيةِ دليلٌ على أن اللهَ سبحانه إنَّما أنزلَ القرآنَ للتدبرِ والتفكرِ في معانيهِ؛ لا مجردُ التلاوةِ دونَ فكر›› [4].

ومن هنا جاءت علوم كثيرة خادمة للقرآن في مجال فهمه وتدبره، حتى تسدد للدارس فهمه للقرآن الكريم وفق أسس علمية سليمة، وتمنعه من الانحراف، منها:

أسباب النزول، كما قال العلماء: ‹‹ معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب›› [5]، ومثل دراسة مفردات وغريب القرآن الكريم، وإعرابه، وقواعد التفسير، ومناهج المفسرين، وكتب التفسير، والاختلاف في التفسير، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمحكم والمتشابه، والمجمل والمبين، والمفهوم والمنطوق، والناسخ والمنسوخ، والوجوه والنظائر، وأمثال القرآن، وقصص القرآن، وأقسام القرآن، وجدل القرآن، وعلم الوقف والابتداء، ومشكل القرآن، وما يوهم الاختلاف

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٧١٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (ص:٢١٥).
(٣) مدارج السالكين (١/٤٨٥).
(٤) فتح القدير (٤/٤٣٠).
(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

والتناقض، والآيات المتشابهات، وترجمة معاني القرآن، وغيرها.

خامسًا: مجال إعجاز القرآن الكريم وأسراره:

القرآن الكريم كما هو كتاب هداية، فهو الآية والمعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق الرسالة، المتحدى به مدى الدهر، المسجل من خلاله عجز الخلق في الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٣ – ٢٤]. ولما كان إعجاز القرآن الكريم سمة من سماته، وسرًا عظيمًا من أسراره قيض الله نخبة من العلماء للكتابة فيه، فبرزت كتابات في علوم القرآن الكريم هدفها إبراز أوجه إعجاز القرآن الكريم وأسراره حتى صار فنًا له مجاله بين علوم القرآن الكريم ومباحثه، من ذلك: علم الإعجاز البياني، وما حواه القرآن من أسرار بلاغية فيما يقدم ويؤخر من الألفاظ، وما جاء فيه من تشبيهات واستعارات وكنايات وتعريض، وما فيه من الحصر والاختصاص، والإيجاز والإطناب، والخبر والإنشاء، والالتفات، والتضمين، والجناس، والجمع والتفريق، والمطابقة، وغيرها من أوجه إعجاز القرآن الكريم البياني، وما فيه من إعجاز من خلال أسلوبه، وما جاء في الإعجاز الغيبي، وما كتب في الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، وما فيه من إعجاز من خلال نظمه وترتيبه وما فيه من تناسق وتناسب في الألفاظ والآيات والسور والموضوعات. قال فخر الدين الرازي ﵀ في ختام تفسيره لسورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني

رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور))[١].

سادسًا: مجال الانتصار للقرآن الكريم:

من مجالات علوم القرآن الكريم المهمة مجال الانتصار للقرآن ورد الشبه التي تثار حوله؛ لأنه مصدر هداية الأمة، ومنبع عزتها، وأساس بنائها وقوتها؛ وذلك بالتصدي لكل مغرض يريد أن يحط من قدره، أو يشكك في هديه، أو يريد زعزعة اليقين في مصدر ربانيته، أو في كمال حفظه، أو يريد أن يصرف العباد عن الانتفاع به، والتعلق والتحاكم إليه، أو يشكك في أخباره أو يريد الطعن في عدالة أحكامه، أو شمولية رسالته، وكل ما يصرف الناس عن الإقبال على تعلمه والاهتداء به؛ فكما أن هنالك من يتعرضون لرب العزة بالسب والكفر فهنالك من يتعرضون لكتابه، ويثيرون الشبهات حول ثوابته قديمًا وحديثًا، وقد رد الله عليهم في كثير من الآيات، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥ - ٦]، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور:٣٣-٣٤]، وغيرها من الآيات التي فند الله فيها كل قول وأبطل فيها كل شبهة.

وكتاب الله مستهدف من قوى شتى من أعداء الله ورسوله والمؤمنين قديمًا وحديثًا؛ وذلك لأن أعداء الأمة يعلمون عظمة هذا الكتاب، وقوة أثره في حياة المؤمنين؛ ولذلك قال وزير المستعمرات البريطاني ((جلادستون)) في مجلس العموم: ((لن نستقر في بلاد المسلمين ما دام هذا الكتاب (يعني القرآن العظيم) بين أيديهم))[٢]؛ ولذلك

---

(١) مفاتيح الغيب، أبو عبد الله الرازي (٤/٦٧).

(٢) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (١/٤٤١).

شمر العلماء -قديمًا وحديثًا- في الدفاع عن هذا الكتاب المبين، وألفوا الكتب ونشروا البحوث في الدفاع عنه، خاصة ما تثيره بعض الفرق الضالة كالرافضة الاثني عشرية القائلين بالتحريف لبعض الآيات القرآنية الكريمة المبثوثة في مراجعهم المعتمدة، وما أثاره بعض المستشرقين من تشكيك، وكذلك ما يثيره بعض المنصِّرين من افتراءات على القرآن بهدف محاربة الإسلام والمسلمين حتى أصبح علمًا خاصًا من علوم القرآن الكريم، له كتبه وأبحاثه التي تعالجه تحت عناوين متعددة تهدف إلى رد الشبه التي أثيرت حول القرآن الكريم وعلومه والدفاع عنه، وقد ألفت كتب كثيرة لخدمة هذا الجانب، وهي مطبوعة ومتداولة منها: «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات» لابن اللبان الدمشقي[(١)]، و«شبهات حول القرآن وتفنيدها» للدكتور غازي عناية[(٢)]، و«الدفاع عن القرآن الكريم ضد النحويين والمستشرقين» لأحمد المكي الأنصاري[(٣)]، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، لمحمد الأمين الشنقيطي، وغيرها من مؤلفات وأبحاث كثيرة جاءت في كتب علوم القرآن الكريم.

سابعًا: مجال الحفاظ على القرآن الكريم كما أنزل:

تولى الله عز وجل حفظ كتابه العزيز كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، وقد هيأ الله تبارك وتعالى الأسباب العظيمة التي تحقق من خلاله ما وعد الله به من حفظه لكتابه؛ وذلك بما يسره لعباده من حفظه في الصدور، ورسمه في السطور، ولو أراد الله حفظ كتابه دون هذه الأسباب لتمَّ ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى فعال لما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكنه تبارك وتعالى

---

(١) تحقيق: فريد مصطفى سلمان، ط: دار طويق، السعودية، ط١، ١٤١٦م.

(٢) طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

(٣) طبعة: دار الاتحاد العربي للطباعة، توزيع: دار المعارف، مصر ط، ١٣٩٣م.

أراد أن تجري سننه في الكون بربط الأسباب بمسبباتها، حتى يفتح الباب لمن أراد أن ينال شرف خدمة كتابه العزيز من خلال المنافسة في حفظه في صدره، أو يسهم في كتابته في المصاحف.

وقد ظهرت العناية بحفظ القرآن كما أنزل دون أن يحدث فيه حدثٌ ولو كان ذلك عن طريق الأداء اللفظي واختلاف الأحرف التي ليس لها تأثير في المعنى في فترة متقدمة من تاريخ هذه الأمة، كما هو واضح من قصة عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم رضي الله عنهما في حديث عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدٍ الْقَارِيَّ حَدَّثَاهُ أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ يَا عُمَرُ. فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ)[١]. قال النووي رحمه الله: «وفي هذا بيان ما كانوا عليه من الاعتناء بالقرآن، والذب عنه، والمحافظة على لفظه كما سمعوه من غير عدول إلى ما يجوزه العربية »[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف ح رقم ٤٦٠٨، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه ح رقم ١٣٥٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٨٧/٣).

ومن ثمَّ كانت هنالك علوم تدرس لخدمة هذا المجال الذي يهدف للمحافظة على القرآن كما أنزل من غير زيادة أو نقصان، من ذلك: عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه، وضبط المتواتر والشاذ من القراءات، وضبط رسم القرآن، وضبط فواصل الآيات، والوقف والابتداء، والأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وشروط المفسر، وغيرها.

المبحث الثالث
كيفية توظيف علوم القرآن الكريم في خدمة التفسير

مدخل:

تحدث العلماء عن العلوم التي ينبغي أن يتزود بها المفسر، ولكن قلَّما تجد عالمًا تحدث عن كيفية استخدام هذه العلوم في التفسير، ومتى يكون ذلك؟ وقد قمت بتقسيم استخدام المفسر لهذه العلوم في عدة مطالب، بيَّنت من خلالها أن العلوم التي يوظفها المفسر **تنقسم إلى قسمين:**

أولها: علوم يوظفها بصورة دائمة في دراسة التفسير، وهي لازمة له بصورة مستمرة.

وثانيها: علوم يوظفها المفسر عند توفر الحاجة إليها، وهي غير لازمة له بصورة مستمرة.

كما أن هنالك مسائلَ يجب أن تؤخذ في التفسير على حذر. ومسائلَ وأمورًا أخرى الأولى بالمفسر تجنبها في دراسة التفسير؛ لأنَّ الوصول لمعاني القرآن يحتاج إلى علوم كثيرة يجب أن يحسن المفسر استخدامها وتوظيفها بصورة مثلى، وإليك بيان ذلك:

المطلب الأول

العلوم التي يوظفها المفسر دائمًا في التفسير

أولًا: البيان النبوي للقرآن الكريم:

النبي ﷺ هو المبين الأول لكلام الله؛ لأن مهمته هي إبلاغه وبيانه للناس، فالسنة كلها بيان للقرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤]، وبيان النبي ﷺ وضعه العلماء في المنزلة التي تلي بيان القرآن بالقرآن، والحق أنه فوقها في بعض الجوانب؛ لأنَّ بيان القرآن بالقرآن في غالبه نوع من الاجتهاد الذي مارسه بعض العلماء، وأما بيانه الذي جاء في السنة الموثقة عنه ﷺتفسير مباشر للآية، أو إذا سئل عن آية ففسرها فيكون وحيًا مقدمًا على كل بيان اجتهادي، خاصة فإنَّ هنالك أمورًا لا تُعلم إلا ببيان الرسول ﷺ، كأمور الغيب، ووجوه الأمر والنهي، وتحديد مقادير فرائضه ونحوها. قال ابن جرير رحمه الله: « فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره: أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يُوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ وذلك تأويل جميع ما فيه من: وجوه أمره –واجبه ونَدْبِه وإرْشاده– وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمَّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويلَه بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها دالَّةٍ أمَّتَه على تأويله»(١)، وأما ما ذكره علماء التفسير من استشهادات بالحديث النبوي في التفسير لما بينهما من علاقة فهو محل نظر واجتهاد.

ومن هنا كان كل من يتمسك بما يظهر له من القرآن بدون رجوع لبيان النبي ﷺ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١/٩٠).

فهو على ضلال «وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول ﷺ إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم، أو غير الحق، وهذا مما حرمه الله ورسوله»(١).

ثانيًا: مرويات الصحابة ﭫ في التفسير(٢):

لابد للمفسر من الإلمام بأقوال الصحابة في التفسير، والاستفادة منها وفق ما حدده العلماء في فهم المعنى، بل لا ينبغي أن يكون ما انتهى إليه المفسر خارجًا عن أقوالهم التي صحت عنهم، لأنهم شاهدوا التنزيل، وعرفوا أسباب النزول وزمانه وأحواله، ونزل القرآن الكريم بلغتهم، وهم أصحاب المنهج القويم الذي مدحه الله في كتابه، فلم يعارضوا الحق بعقل أو رأي أو قياس فاسد؛ ولذا أمرنا الله تعالى أن نكون على نهجهم في العلم والعمل، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[البقرة:١٣٧].

قال ابن تيمية ﭬ: « إنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة...وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧/ ٢٨٦).

(٢) أما مرويات التابعين فهي حجة عند الاتفاق، ولا تكون حجة عند اختلافهم، ويستحسن بالمفسر أن يلم بها؛ لأنهم عاشوا في القرون المفضلة، وفي عصور اللغة، وتتلمذ بعضهم على أصحاب النبي ﷺ، قال ابن تيمية عن أقوالهم في التفسير: «إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم» مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٠).

لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم))[(١)]، وقال أيضًا: ((فمن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله فمن خالف قولهم، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا))[(٢)].

وقد سبق الكلام عن ذلك بتفصيل في الحديث عن التفسير في القرون المفضلة، فالمفسر لا غني له عن أقوال السلف في التفسير دون حجر العقول في حدود ما قالوه، حتى لا نضيق سعة علوم هذا الكتاب المجيد الذي أمر الله عباده جميعًا بتدبره قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]؛ولأن التفسير بالدراية وفق ضوابطه معتبر كالتفسير بالرواية؛ وذلك هو الذي سائر عليه أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم يقصروا عملهم على رواية ما بلغهم في التفسير؛ بل كانت لهم اجتهادات واسعة، لها فوائدها العديدة، قال الرازي: ((وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهًا في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها؛ وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خلف بضم الخاء))[(٣)]، والذين يرفضون ذلك فهم يعطلون عطاء القرآن الذي ما له من نفاد، قال ابن عاشور

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣ /٣٦٤)، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٧).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣ / ٣٦١، ٣٦٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٥١).

رحمه الله :«ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضرر كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، عِلمًا بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة، فالحمد لله الذي صدق الأمل، ويسر إلى هذا الخير ودل »[(١)].

ومن هنا كان الرجوع لأقوال الصحابة ليس من باب تعطيل العقول في تدبره، وإنما هو من باب تنوير العقول بعلمهم ليحسنوا تدبره، وبذلك كان الرجوع لعلمهم مطلبًا شرعيًّا، مع فتح الباب للاجتهاد بما لا يناقض أقوالهم، ولا يخرج عن حدود الشرع، واللغة، وسياق الآيات.

ثالثًا: أحوال نزول القرآن الكريم:

المفسر لكلام الله في حاجة مستمرة إلى استصحاب الأحوال والقرائن التي نزل فيها القرآن، ومعايشة تلك الأحوال، خاصة وقد كان نزوله متوافقًا مع ظروف وحاجات الدعوة والوقائع والأحوال التي مرت بها، وبذلك يحسن فهم الآية وإنزالها في الواقع، فمعايشةُ أحوال نزول القرآنِ الكريمِ مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمه وإدراك معانيه وحِكَمِهِ، قال الواحدي رحمه الله :« يمتنع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[(٢)]. وهو من الأسباب التي بها تقدم فهم الصحابة للقرآن الكريم، وقد توصل الشاطبيُّ رحمه الله إلى أن سبب نبوغ الصحابة في التفسير يرجع إلى أمرينِ: «أحدهما: معرفتهم باللسان العربي فإنهم عرب فصحاء لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

(٢) أسباب النزول، الواحدي (ص: ٢).

عن رتبتها العليا فصـــاحتهم... والثاني: مباشـــرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسـنة، فهم أقعدُ في فهمِ القرائنِ الحاليَّةِ وأعرفُ بأسـبابِ التنزيلِ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسـبب ذلك، والشـاهدُ يرى ما لا يرى الغائبُ...))[(١)]. ويقول محمد رشـيد رضـا رحمه الله: ((فيجب على المفسـر: أن يعلم ما كان عليه الناس في عصـر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شـقاء وضـلال، وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسـعادهم. وكيف يفهم المفسـر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه))[(٢)].

ولفهم أحوال النزول أكد العلماء على دراسة وقت نزول السورة خاصة قبل الهجرة أو بعدها؛ لأنَّ لكلٍّ فترة خصائصها الموضوعية.

وأكدوا على معرفة أسباب النزول؛ لأن بعض الآيات تتوقف معرفتها في كثير من الأحيان على معرفة مقتضيات الأحوال، وحال المخاطب والخطاب، والجهل بأسباب النزول يوقع المفسر في الإشكالات، سأل بُكير نافعًا مولى ابن عمر: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال:((يراهم شـرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين))[(٣)]. فمعرفة سـبب النزول يدلك على المعنى الصـحيح، ويدفع ما يقع من إشكال.

كما أكدوا على أهمية دراسـة سـيرة النبي ﷺ في أحواله المختلفة في السـلم والحرب وغيرها للمفسر لمعايشة أحوال النزول، ونجد الكثير من أئمة التفسير لهم اهتمام كبير

---

(١) الموافقات، الشاطبي (٣ / ٣٣٨).

(٢) تفسير القرآن الحكيم(١/ ٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في صـحيحه تعليقًا في كتاب: اسـتتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، وقال ابن حجر: وسنده صحيح. انظر الفتح (٨/٣).

بالسيرة؛ وذلك لما لها من أثر في فهم القرآن الكريم، قال السعدي رحمه الله: ((فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها))(١). وقال أيضاً: ((اعلم أن سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله، والقرآن إنما كان ينزل تبعا لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له، وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها، وهذا من حكمة إنزاله مفرقًا، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان: ٣٢-٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠]. فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عونا في هذا المقام))(٢).

رابعًا: أصول التفسير وقواعده:

لابد للمفسر من ربط فهم الآية بأصول وقواعد التفسير والترجيح والاستنباط حتى يكون فهمه منضبطًا، واختياره موفقًا، واستنباطه دقيقًا مسددًا، ويعرف كيف يرد المتشابه للمحكم، ويحمل المطلق على المقيد، ومتى يحمل العام على الخاص، وكيف يرد المجمل على المفصل، وكيف يدرأ ما ظاهره التعارض، ويزيل ما يطرأ عليه من إشكال، وأن يعرف مناهج التفسير، ومنهج كل مفسر، ونحو ذلك، فهي قواعد وأصول مانعة للمفسر من الانحراف، ومصوبة له في الترجيح والاختيار والاستنباط،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (٢/ ١).

خلافًا لأهل الأهواء الذين يفسرون القرآن خلاف ما أراد الله، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾[آل عمران:٧]، فهو كتاب حق لا لبس فيه ولا اختلاف ولا تناقض ولا تعارض، قال الزركشيُّ ﷺ: «ومعلومٌ أن تفسيرَه يكونُ بعضُهُ من قبيلِ بَسْطِ الألفاظِ الوجيزةِ وكَشْفِ معانيها، وبعضُهُ من قبيلِ ترجيحِ بعضِ الاحتمالاتِ على بعضٍ لبلاغتِهِ ولُطْفِ معانِيه؛ ولهذا لا يُسْتَغْنَى عن قانونٍ عامٍّ يُعَوَّلُ في تفسيرِهِ عليه، ويُرْجَعُ في تفسيره إليه: مِنْ معرفةِ مفرداتِ ألفاظِهِ، ومركباتِهَا، وسياقِهِ، وظاهِرِهِ وباطِنِهِ، وغيرِ ذلكَ مما لا يدخلُ تحتَ الوهمِ ويدِقُّ عنه الفهمُ »[1].

خامسًا: علوم اللغة العربية:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[يوسف:٢]؛ ولذلك قال العلماء: لا يفهم القرآن إلا وفق لغة العرب التي نزل عليها، وطرائقهم في التعبير، ووجوه تصرفهم في البيان، وأن كلَّ معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي مردود، ولا يُوصل لفهم القرآن الكريم إلا بالمعرفة الكبيرة بلغة العرب؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فمعرفة اللغة طريق من الطرق المهمة لفهم القرآن؛ خاصة إذا لم يجد المفسر تفسيرًا للآية في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين، قال الشاطبي ﷺ: «القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنَّما يكون من هذا الطريق خاصة.. فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة»[2]، وقال الطبري ﷺ: «فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ

---

(١) البرهان في علوم القران للزركشي (١ /١٥).

(٢) الموافقات للشاطبي (٢/٣٧٥).

لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمًا))[١]، ومن لم يجعل لغة العرب مرجعه ومفزعه في التفسير كان من أهل التحريف والزيغ لا محالة في فهم معاني القرآن، قال ابن تيمية رحمه الله: ((لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك))[٢].

ولذلك جعل العلماء تعلم اللغة العربية واجبًا على المفسر قال مجاهد رحمه الله:((لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب))[٣]، وقال ابن فارس رحمه الله: ((إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غنى بأحد منهم عنه؛ وذلك أن القرآن نازلٌ بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب - لم يجد من العلم باللغة بُدّا))[٤]، وقال الزركشي رحمه الله:((واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها))[٥]. كما أن الارتقاء في هذا العلم يكون بحسب تمكن المفسر من لغة القرآن، قال أبو حيان

---

(١) جامع البيان (١/٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١١٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/٢٩٢)، والإتقان في علوم القرآن (٣ / ٣٦)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥/٢٣٢).

(٤) الصاحبي في فقه اللغة (١/١٠).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٥).

الأندلسي رحمه الله: «فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته إلا من كان متبحرًا في علم اللسان، مترقيًا منه إلى رتبة الإحسان»[(١)].

ولكن العلماء فرقوا بين الرجوع إلى لغة العرب لفهم كلام الله، وبين الخوض في تقرير قواعد النحو والاستدلال عليها من خلال التفسير، وبينوا أن هذا ليس ذلك شأن المفسر في تفسيره، وينبغي أن يحمل كلام الله على أحسن أوجه الإعراب، وأفضل أنواع تراكيب الكلام، لأنه خير الكلام وأبينه وأفصحه، مع الابتعاد «من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب القلقة والمجازات المعقدة»[(٢)].

سادسًا: العلم بدلالات السياق بين الآيات:

من العلوم المهمة التي يحتاج إليها المفسر دائمًا في دراسة التفسير معرفة دلالات السياق بين الآيات، ليقف على الغرض الذي تتابع الكلام لأجله سابقًا ولاحقًا لأداء المعنى؛ لأنه لا يجوز تفسير الكلام في غير سياقه الذي ورد فيه، قال ابن جرير رحمه الله: « فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول ﷺ تقوم به حُجَّة »[(٣)]، فهو خير معين في فهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه استنباطًا، أو اختيارًا، أو ترجيحًا، أو تصحيحًا أو تضعيفًا، وقال السعدي رحمه الله في بيان أهمية مناسبات السياق في فهم المعنى: « السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط (١/١٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٥).

(٣) جامع البيان (٩/٣٨٩).

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير» (١).

فعلم دلالات السياق من العلوم المهمة التي لا غنى لدارس التفسير من معرفتها؛ وذلك لأنه « من خلاله يستعين على فهم المعنى، أو الترجيح بين الآراء في ضوء السياق، أو إزالة لبس أو إشكال، أو دفع إيهام، أو معرفة الحكمة من إيراد القصص القرآني، أو غير ذلك من الفوائد»(٢)، فهو خطوة مهمة للوصول إلى مقاصد السورة، ودقيق معانيها، وإهماله يؤدي إلى دراسة تفسيرية يشوبها النقص من جانب والخلل من جانب آخر،كما جاء عن عكرمة أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس رضي الله عنهما: (يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ ﴾[المائدة:٣٧] فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار)(٣).

سابعًا: علم الاستنباط:

فرق العلماء بين التفسير الذي يعتني فيه المفسر بمعرفة الأحكام الظاهرة، وبين علم الاستنباط الذي يهتم فيه المفسر بالمعاني الخفية التي تحتاج إلى نظر واجتهاد قد تخفى على غير مستنبطها، فهو علم « زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ فَهْمِ اللَّفْظِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ طَرِيقَةَ الِاسْتِنْبَاطِ؛ إِذْ مَوْضُوعَاتُ الْأَلْفَاظِ لَا تُنَالُ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَإِنَّمَا تُنَالُ بِهِ الْعِلَلُ وَالْمَعَانِي وَالْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ وَمَقَاصِدُ الْمُتَكَلِّمِ... وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَوْضُوعِ اللَّفْظِ وَعُمُومِهِ أَوْ خُصُوصِهِ، فَإِنَّ هَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا هَذَا فَهْمُ لَوَازِمِ الْمَعْنَى وَنَظَائِرِهِ، وَمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ، وَمَعْرِفَةِ حُدُودِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣٤).

(٢) موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات (١/١٥).

(٣)جامع البيان (١٠/٢٩٤).

كَلَامِهِ، بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ فِيهَا غَيْرُ الْمُرَادِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ الْمُرَادِ))[١]، وهو علم مهم لأننا متعبدون إلى الله بما دلت عليه الآية بمنطوقها ومفهومها، فكما لا يجوز تجاوز ألفاظ القرآن ومعانيه، كذلك لا يجوز قصرها؛ بل يجب أن يعطى كلٌ حقه.

وهو علم يزيد من وجوه المعنى، ويكشف المزيد من أسرار هذا الكتاب التي لا تنقضي، ويظهر جماليته التي لا تنتهي، خاصة الفوائد التي لها تعلق بالحكم، أو تعمق فهم المسلم في عقيدته وعبادته وأخلاقه، فإن آيات القرآن ذات أفانين عميقة مترامية الأطراف، تنقطع فيها الطاقات، ولا تبلغ غورها الأفهام، فليس في المقدور استيفاء جميع أسرار هذا الكتاب المصون، الذي حوى من الحكم المكنونة الشيء العظيم؛ ولذا جعله العلماء من العلوم التي ينتهي عندها حديثهم، ولا ينتهي نظرهم فيه، بل دائمًا يسألون الله المزيد منه. يقول السيوطي رحمه الله: ((ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم عليها من جهة اللغة، ثم التصريف، ثم الاشتقاق، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم الاستنباط، ثم الإشارات))[٢].

وينبغي أن يراعى في المعنى المستنبط عدم معارضته لأدلة الشرع، أو اللغة، ويكون له ارتباط بالنص القرآني، فلا يكون هنالك تكلف فيما ليس له ارتباط بالنص ولو كان المعنى المذكور صحيحًا فإنه يرفضه؛ لأن في ذلك خطأ في الاستدلال، وكذلك يكون فيما للرأي فيه مجال، ليس مما استأثر الله بعلمه، وأن لا يكون مما يشتت الذهن أو يصرف عن العمل إلى الجدل، فمثل هذه الاستنباطات الأولى تركها؛ لأن مقصد

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (١ / ٣٠٧).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٧).

التفسير الأول هو الهداية [١].

العلوم التي يوظفها المفسر دائمًا في التفسير:

- البيان النبوي للقرآن الكريم.
- مرويات الصحابة ﷺ في التفسير.
- أحوال نزول القرآن الكريم.
- قواعد التفسير وأصوله.
- علوم اللغة العربية.
- دلالات السياق.
- علم الاستنباط.

---

(١) وقد عالج هذا الموضوع الشيخ فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي في رسالته العلمية التي نال بها درجة الماجستير من جامعة الإمام بعنوان: "منهج الاستنباط من القرآن الكريم" يمكن الرجوع إليها لمزيد الفائدة، وهي مطبوعة ضمن مطبوعات مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

المطلب الثاني

العلوم التي يوظفها المفسر عند توفر الحاجة إليها

هنالك علوم من علوم القرآن من الأهمية بمكان، ولكن حاجة المفسر إليها في توظيفها في الفهم ليست بصورة دائمة، وإنما يحتاج لها عند توفر الحاجة إليها؛ فيوظفها في التفسير بدون إسراف، وهي على النحو التالي:

أولًا: القراءات القرآنية:

علم القراءات في أصله «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة»[(١)]، فهو علم في أصله متعلق بالأداء اللفظي، وله تأثيره على تفسير القرآن الكريم وبيان معانيه من بعض الوجوه، ومن هنا قسمه العلماء من جهة التفسير إلى قسمين:

أ- قراءات ليس لاختلافها تعلق بالتفسير: لعدم وجود أثر ظاهر في تفسير الآية: كاختلاف القراءات في أوجه النطق بالحروف والحركات، مثل مقادير المد والإمالات، وتسهيل الهمزات أو تحقيقها، والإدغام، ونحو ذلك، فهذه الاختلافات لا تأثير لها في معاني الآي، وإنما أثرها في كيفيات النطق والأداء، أو في إبراز المعنى الواحد.

ب - قراءات لاختلافها تعلق بالتفسير بدرجات متفاوتة[(٢)]: إما أن يكون الأثر في توسيع فهم المعنى، أو إزالة ما يشكل، أو الترجيح بين المعاني المحتملة للآية أو غير ذلك: وهذا النوع غالبه يتعلق باختلاف الفرش دون الأصول، كما سبق بيان ذلك في بيان الطرق المثلى في فهم وتفسير القرآن الكريم.

ولما كانت القراءات القرآنية منها ما له أثره في التفسير، ومنها ما ليس له أثر في ذلك

---

(١) منجد المقرئين ومرشد الطالبين (ص: ٩).

(٢) انظر: أصول التفسير وقواعده (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

واضح جعلها العلماء من العلوم التي يستدعيها المفسر عند توفر الحاجة إليها. قال ابن عاشور رحمه الله مقررًا ذلك في مقدمته السادسة، مبينًا سبب إعراضه عن كثير من القراءات في تفسيره؛ لأنه يراه علمًا مستقلًا قد خص بالتدوين والتأليف، ولعدم تعلق بعضه بالتفسير، فقال: «أرى أن للقراءات حالتين: إحداهما لا تعلق لها بالتفسير بحال، والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة.

أما الحالة الأولى: فهي اختلاف القرَّاء في وجوه النطق بالحروف والحركات، كمقادير المد والإمالات، والتخفيف والتسهيل والتحقيق، والجهر والهمس والغنة... وأما الحالة الثانية: فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل (مالك يوم الدين) و (ملك يوم الدين) و(ننشرها) و(ننشزها)... وهي من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره...»[(١)].

وهذا المنهج الذي نص عليه ابن عاشور مارسه كثير من المفسرين عمليًا من خلال تفاسيرهم، فلم يتعرضوا إلا للقراءات التي لها تعلق بالمعنى؛ لذا فعلى المفسر أن يبين اختلاف القراءات التي لها تأثير في المعنى عندما تدعو الحاجة لذلك؛ لأن تعدد القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، أما الاختلافات التي لا أثر لها فمحلها كتب القراءات، وليس كتب التفسير[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥١ – ٥٥) له كلام نفيس يستحسن الرجوع إليه لمزيد الفائدة.

(٢) انظر: القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام، أ. د. محمد بن عمر بازمول (١/٣٧٥ –٨٢٣) فهي رسالة علمية نال بها الباحث درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى، في قسم الكتاب والسنة، لمزيد من الفائدة.

ثانيًا: فضل الآيات والسور:

هنالك بعض الآيات والسور ورد لها فضائل خاصة، من خلال بعض الأحاديث الصحيحة التي تنص على فضلها كسورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، أو كآية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة، وغيرها، وهنالك فضائل للآية أو السورة تظهر من خلال كثرة قراءة النبي ﷺ لها، أو لما تضمنته من معان عظيمة؛ لأن تفاضل القرآن مرتبط بالمعنى، قال القرطبي رحمه الله: «والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة وهذا هو الحق، وأن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودًا مثلًا في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد:١] وما كان مثلها»[(١)]، فهذه الفضائل الخاصة على المفسر ذكرها والاستفادة منها في بيان معنى الآية في موضعها الذي توافرت فيه؛ لأن من خلالها يتأكد مزيد العناية بالسورة أو الآية تلاوة وحفظًا وفهمًا وعملًا، فمن عرف فضل سورة الفاتحة أو الإخلاص أو آية الكرسي جدَّ في حفظها وفهمها لما نالته من خصوصية، قال الزركشي رحمه الله: «قد جرت عادة المفسرين ممن ذكر الفضائل أن يذكرها في أول كل سورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها»[(٢)]؛ ولكن العلماء حذروا من نقل الروايات الضعيفة والموضوعة عن فضائل بعض الآيات والسور كما فعل الزمخشري في الكشاف. وهو من العلوم التي يستدعيها المفسر عند الحاجة؛ لأنه ليس لكل سورة وآية فضائل مستقلة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٤٣٢).

ثالثًا: النسخ:

النسخ من علوم القرآن المهمة للمفسر، فقد نقل ابن عبد البر عن القاضي يحيى بن أكتم -رحمهما الله- قوله: « ليس من العلوم كلِّها علم هو أوجب على العلماء والمتعلمين وكافة المسلمين من علم ناسخ القرآن ومنسوخه؛ لأنَّ الأخذ بناسخه واجب فرضًا، والعلم به لازم ديانة، والمنسوخ لا يعمل به ولا ينتهي إليه، فالواجب على كلِّ عالم عِلْمُ ذلك لئلا يوجب على نفسه أو على عباد الله أمرًا لم يوجبه الله ﷻ، أو يضع عنهم فرضًا أوجبه الله ﷻ »[١]. وقال الفيروز آبادي رحمه الله: « اعلم أَن معرفة النَّاسخ والمنسوخ باب عظيم من علوم القرآن. ومن أَراد أَن يخوض في بحر التفسير ففَرْضٌ عليه الشروعُ في طلب معرفته، والاطلاع على أَسراره، ليسلَم من الأَغلاط، والخطأ الفاحش، والتأْويلات المكروهة »[٢]، وقال الزرقاني رحمه الله: « إن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام؛ خصوصًا إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها، وناسخها من منسوخها»[٣].

ومع أهمية هذا العلم وضرورته من حيث العلم به لمن أراد تفسير القرآن الكريم إلا أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام، في فروع العبادات والمعاملات، أما في العقائد والأخلاق وأصول العبادات والمعاملات والأخبار المحضة فلا يقع نسخ، قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة بن عمار - رحمهم الله -: « لا يدخل النسخ إلا على أمر أو نهي فقط، افعلوا أو لا تفعلوا »[٤]، فغالب آيات القرآن الكريم ليس للنسخ تعلق

---

(١) جامع العلم وفضله (٦/١٤).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/١١٧).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٣/١٨٩).

(٤) الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة المقري (ص: ٢).

بها؛ ولذا فإن حاجة المفسـر إليه في التوظيف ليست بصـورة دائمة، وإنما هو علم يستدعيه المفسر عند الحاجة إليه في بعض الآيات في الأوامر والنواهي، قال أبو جعفر النحاس رحمه الله: ((وأصله أن يكون الشيء حلالًا لمدة ثم ينسخ فيجعل حرامًا، أو يكون حرامًا فيجعل حلالًا، أو يكون محظورًا فيجعل مباحًا، أو مباحًا فيجعل محظورًا، يكون في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والإباحة والمنع))(١)، والأصل فيما ورد في القرآن الكريم الثبوت، فلا يقال فيه بالنسخ إلا بحجة قاطعة من كتاب أوسنة.

رابعًا: علم المناسبات:

علم المناسبات من العلوم المهمة التي اعتنى بها كثير من علماء التفسير قديمًا وحديثًا كالزمخشري، والرازي، وأبي حيان، وأبي السعود، والبقاعي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم، وهو علم يحتاج إليه المفسـر لمعرفة أوجه الربط بين كلمات وآيات وسور القرآن الكريم. قال الزركشي رحمه الله: ((وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء))(٢)، وقال البقاعي رحمه الله: ((علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة علم البيان من النحو))(٣). كما هو علم يوقف المفسر على دقائق المعاني ولطائفها وروائعها، قال الرازي رحمه الله: ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات

(١) الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس (ص: ١١ - ١٢).
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٥٣).
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/٦،٥).

والروابط»[١]، قال الزركشي رحمه الله: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم»[٢]. وهو موصل لمقاصد السورة وأهدافها، يقول البقاعي رحمه الله: «إن من عرف المراد من اسم السورة عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها... فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها؛ فترتب المقدمات الدالة عليه على أكمل وجه وأبدع منهج» [٣].

كما هو موصل إلى وجه مهم من أوجه إعجاز القرآن الكريم، قال الرازي رحمه الله: «إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»[٤]. وقال الأستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله: «ولعمري إن وجوه الاتصال بين الآيات وما فيها من دقائق المناسبات لهي ضرب من ضروب البلاغة، وفن من فنون الإعجاز، إذ أمكن للبشر الإشراف عليه فلا يمكنهم البلوغ إليه » [٥].

فعلم المناسبات من العلوم المهمة التي يستدعيها المفسر عند الحاجة لكشف معنى، أو إزالة لبس، أو إظهار وجه إعجاز، وهو علم واسع لأن بعضه متعلق بترتيب آيات السورة أو كلمات الآية، أو موضوع السورة، وبعضه بين اسم السورة وموضوعها أو موضوعاتها، أو فاتحة السورة لخاتمتها ونحو ذلك من الوجوه الكثيرة التي تكلم عنها

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٥/٢٤٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/٣٧).

(٣) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور (١/ ١٤٩).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (٧/ ١١٢).

(٥) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٢٠٦).

العلماء؛ وذلك لأن « الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض. أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل »[(١)]، ولذا فعلم المناسبات بمفهومه الواسع هو من العلوم التي يوظفها المفسر عند توفر الحاجة إليها، وبمفهومه الخاص الذي يقتصر فيه على دلالات السياق من العلوم اللازمة للمفسر.

خامسًا: علم إعجاز القرآن وأسراره البيانية:

الإعجاز هو الوجه الثاني المهم للكتاب العزيز، فوجهه الأول: الهداية، ووجهه الثاني: البيان والبرهان على صدق الرسالة، قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾[البقرة: ١٨٥]، فهو هدى للناس من جهة، وبينات من جهة أخرى، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الّذِي أُوتِيتُ وَحْيا أَوْحَى اللّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[(٢)]، فهو العلم الذي من خلاله تظهر براهين الرسالة، وينفى عن كتاب الله الريب، ويرتقي المسلم به في مدارج اليقين درجات؛ ويحتار فكره ويقف عقله، ويرتد إليه بصره وهو حسير، وهو يتأمل في موافقة معانيه للعقول، وكيف كشفت علومه الغيوب، وحوى علومًا كثيرة وأسرارًا دقيقة تعجز عن إدراكها الفهوم، وكيف سما في ألفاظه وأسلوبه وتفنن في روعة خطابه، وتناسب وتناسق في نظمه وترتيبه، وصدق بعضه بعضا بما ليس معتادًا عند البشر.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب: كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ ح رقم٤٩٨١.

فعلى المفسر أن لا يُغفل جوانب الإعجاز وهو يفسر الآيات والسور؛ لاحتوائه على حكم وأسرار بديعة موجودة في كل سوره وآياته، قال الزركشي رحمه الله: ((واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله))[١]. وأن إغفال هذا الجانب وعدم إدخاله واستصحابه ضمن التفسير أضعف من مكانة وجلالة القرآن في نفوس بعض المسلمين، وقلل من درجات اليقين؛ ولذا ينبغي التعرض لأوجه الإعجاز المتنوعة كلما دعت الحاجة إلى بيانها.

العلوم التي يوظفها المفسر عند توفر الحاجة إليها:

- القراءات القرآنية.
- فضل الآيات والسور.
- النسخ.
- علم المناسبات.
- علم إعجاز القرآن .

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٢٩).

المطلب الثالث

المسائل التي تؤخذ في التفسير على حذر

هنالك علوم ومسائل يتناولها المفسر في التفسير على حذر خوفًا من مزالقها، وهي على النحو التالي:

أولًا: مسائل العقيدة:

من المسائل التي تؤخذ في التفسير على حذر مسائل العقيدة، خاصة فيما يجب لله ﷻ في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ وما يجوز على الله تعالى، وما لا يجوز في باب الأسماء والصفات[١]. وهو علم عظيم دقيق، والانزلاق فيه يؤدي إلى خسران كبير، وقد كثرت فيه انحرافات الفرق المخالفة لأهل السُّنة والجماعة من المعتزلة والجهمية والأشاعرة والرافضة وغيرهم؛ لأنهم اعتقدوا عقائد ثم أرادوا من خلال التفسير حمل ألفاظ القرآن عليها؛ وبذلك تنكبوا عن جادَّة الطريق.

ثانيًا: الاختيارات والترجيحات:

من المسائل التي تؤخذ في التفسير كذلك على حذر الاختيارات والترجيحات؛ لتأثر الكثير من العلماء باختيارات المذهب وترجيحاته، أو للقصور في فقه التعامل مع هذا النوع من التفسير، وهو علم عظيم يحتاج إلى فقه وصبر، قال الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله: «على المفسِّر بعد كل هذا أن يكون يقظًا، فطنًا عليمًا بقانون الترجيح، حتى إذا كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يُرَجِّح ويختار»[٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٥/٦).

(٢) التفسير والمفسرون (٤/ ٤٩).

وقد فصل الزركشي رحمه الله في فقه الترجيح بكلام نفيس قال فيه: «وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه... ثم قال بعد تفصيل دقيق: فهذا أصل نافع معتبر في وجوه التفسير في اللفظ المحتمل والله أعلم »(١).

ثالثًا: المرويات الإسرائيلية:

أثبتت الروايات الصحيحة رجوع بعض الصحابة رضي الله عنهم إلى بعض أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - في فهم بعض الآيات، خاصة من أسلموا منهم كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما، وخاصة في بيان بعض ما أجمل في القرآن من قصص الأنبياء والسابقين؛ وذلك لأن القرآن لم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبر فقط، خلافًا لما نقل عن التوراة والإنجيل، فنقلوا ما سمعوه منهم دون أن يحكموا بصدقه أو كذبه، وهم لم يرجعوا إليهم في بيان عقيدة أو أحكام أو سلوك، وإنما رجعوا إليهم في أخبار جاءت مجملة؛ لأن ما جاء بيانه في القرآن أو السنة لا يجوز العدول عنه إلى غيرهما، فهم لم يخرجوا في رجوعهم إلى أهل الكتاب عن دائرة الجواز التي حددها النبي ﷺ وفهموها من قوله ﷺ: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ)(٢)، وما ذكروه كان فقط من باب الاستئناس، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[الأحقاف:١٠].

ولكن لما كانت الكتب السماوية السابقة دخلها التغيير والتبديل في غالبها، كان الأصل النهي عن الرجوع إليها والأخذ منها، كما جاء عن عبد الله بن عباس رضي

---

(١) البرهان في علوم القران، الزركشي (٢/١٦٦-١٦٨)، يرجع إليه لمزيد الفائدة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح رقم ٣٢٩٢.

الله عنهما أنه قال: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللَّهِ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَغَيَّرُوا، فَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ الْكُتُبَ قَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَوَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ فَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ) (١)، وقد جاء نهى النبي ﷺ عن سؤالهم من هذا الباب كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أو تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي)(٢). ثم أباح النبي ﷺ لأصحابه أن يحدثوا ببعضها فيما لم يرد في كتابنا ما يصدقها أو يكذبها، ولذا وفق العلماء بين الأدلة التي تنهى عن الأخذ عنهم والتي تبيح الرواية **بما يلي:**

أ – ما وافق الكتاب والسنة من مروياتهم: يقبل، من باب قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾[الأحقاف:١٠]، ويجوز ذكرها في التفسير للاستئناس، فيما وافق الكتاب والسنة وعلمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق.

ب – ما خالف الكتاب والسنة من مرويات: يرد ولا يروى؛ لهيمنة الكتاب والسنة على ما قبلهما من كتاب، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾[المائدة: ٤٨]، كما جاء عن سَعِيدِ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ح رقم ٢٦٨٥.

(٢) مسند الأمام أحمد ح رقم ١٤٣٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان للبيهقي ح رقم حديث: ١٧٣، وحسنة الألباني بمجموع طرقه في إرواء الغليل، (٦/٣٤) ح رقم (١٥٨٩).

صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ. حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ؛ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ...)(١).

ج – ما لم نجد له في الكتاب والسنة ما يصدقه أو يكذبه: فإنه مسكوت عنه، فلا يصدق ولا يكذب، وذلك لاحتماله للأمرين، ولكن تجوز روايته لما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسلام، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَاب، ولا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾[البقرة:١٣٦])(٢)، قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: « قوله: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملا لئلا يكون في نفس الأمر صدقا فتكذبوه، أو كذبا فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله» (٣)، وغالب هذه مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني مثل أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى عليه السلام من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها إبراهيم إلى غير ذلك (٤).

أما التساهل في نقل مرويات أهل الكتاب في التفسير بدون تفرقة بين المقبول والمردود فقد جرّ على التفسير ويلات وويلات، قال الذهبي رحمه الله: « ولقد كان لهذه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم، ح رقم ١١٩، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر، ح رقم ٤٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ ح رقم٤١٢٥.

(٣) فتح الباري (٨/١٧٠) .

(٤) انظر: مجموع الفتاوي، (١٣/٣٦٧)، والتفسير والمفسرون للذهبي (١/١١٣-١٣٦).

الإسرائيليات التي أخذها المفسِّرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيء في التفسير؛ ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقًا وإن كذبًا، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترَع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئًا مما جاء فيها لاعتقاده أنَّ الكل من واد واحد، وفي الحق أنَّ المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوبة وأخبار لا تصح، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح شيء منها إلى بعض من آمن مِنْ أهل الكتاب جعلت بعض الناس انظر إليهم بعين الاتهام والريبة»[(١)].

فالأولى بالمفسِّر أن يعرض كل الإعراض عن الخرافات الإسرائيلية التي جاء في شرعنا ما يردها، «وأن يُمْسِكَ عما لا طائلَ تحتَهُ، مِمَّا يُعَدُّ صَارِفًا عنِ القرآنِ، وشاغلا عن التدبُّرِ في حِكَمِهِ وأحكامِهِ، وَبَدَهِيٌّ أن هذا أحكمُ وأسلمُ »[(٢)].

رابعًا: التفسير العلمي للآيات:

التفسير العلمي الذي يقوم على محاولة المفسر الربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية وغيرها، قد اختلف حوله موقف العلماء، بين المؤيدين له، الذين يرون أن القرآن حوى كل علم، وخاصة ما يتعلق بالكون، وهو من أوجه إعجازه، وفي ذلك إظهار لعظمة القرآن، وهو من الجوانب الإعجازية المهمة التي تتناسب مع عصرنا، وبين المعارضين له، الذين يرون أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب علوم ونظريات، وأن اتجاه التفسير العلمي يؤدي إلى تحميل النصوص ما لا

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي (١/ ١٢١-١٢٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٥٣ – ١٥٧).

تحتمل، وهو مدعاة للزلل؛ لأن النظريات قابلة للتعديل بل الإبطال، وينبغي الاستفادة من تلك النظريات دون إقحامها على القرآن أو اعتبار أن القرآن مطالب بموافقتها.

وقد استقر رأي المحققين من العلماء إلى أن فتح باب التفسير العلمي على مصراعيه مدعاة للزلل، وقفله بالكلية يمنع الاستفادة من نور المعرفة في إبراز حقائق القرآن الكريم الذي حوى الكثير من الحقائق والأسرار؛ ولذا كان القول بالتفسير العلمي بضوابطه هو الحق والصواب، وهو المنهج الوسط، فلا نتجاهل الحقائق العلمية في القرآن، ولا نلتمس لكل مسألة علمية آية من كتاب الله [(١)]، بل يؤخذ التفسير العلمي على حذر وفق الضوابط التي وضعها العلماء [(٢)].

فإذا روعيت الضوابط التي وضعها العلماء فلن يكون هنالك حرج في تفسير آيات القرآن الكريم وفق الحقائق العلمية، بما يظهر عظمة القرآن الكريم، ومن هنا كان الكلام في التفسير العلمي يجب أخذه على حذر، لأن هنالك من تكلفوا فيه حتى حمَّلوا النصوص ما لا تحتمله حرصًا منهم على ربط القرآن بما ظهر من اكتشافات علمية، ومنهم من خلط بين النظريات محلِّ البحثِ والدراسة وبين الحقائق العلمية الثابتة، فتراهم يُفسِّرون القرآن بالنظرياتِ وهي عرضة للتغييرِ أو التعديلِ، كما أن هذا الباب خاض فيه الكثير من غير المختصين والملمين بأصول التفسير وقواعده

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ١٢٤) في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٩). فقد ذكر كلامًا جميلًا يرجع له لمزيد الفائدة.

(٢) سوف يأتي الكلام عن ضوابط التفسير العلمي وما يتعلق به عند الكلام عن اتجاهات التفسير بالرأي بإذن الله تعالى في الفصل الرابع.

فوقعوا في أخطاء عظيمة[١].

خامسًا: التفسير الإشاري:

التفسير الإشاري هو اتجاه في التفسير يعتمد فيه الظاهر مع محاولة الكشف عن دقائق باطنة عن بعض أسرار المعاني تكون نتيجة هبات ربانية يختص بها المولى الكريم من يشاء من عباده الأصفياء، لا تعارض ظاهر القرآن الكريم، بل يعتقدون أنه لا يمكن الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، قال الزرقاني رحمه الله في تعريف التفسير الإشاري: «هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا»[٢]، وهو يخالف التفسير الباطني الذي تعتقده «الباطنية الملاحدة، الذين اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلًا، وإنما المراد الباطن فقط حتى توصلوا إلى نفي الشريعة بالكلية»[٣].

فهذا النوع من التفسير رده بعض العلماء، وقبله بعضهم بشروط أبرزها «ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم، وألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر، وألا يكون له معارض شرعي أو عقلي، وأن يكون له شاهد شرعي يؤيده، وألا تؤخذ الأحكام عن طريقه لعدم الدليل الواضح عليها.. وما يستفاد منه فهو في مجال الأخلاق وسمو النفس وتقوية الإيمان وتثبيت اليقين، وألا يتحتم على أحد الأخذ بالتفسير الإشاري.. وإنما هي معاني الأسرار القرآنية تنقدح في قلب المؤمن التقي الصالح العالم، فهو إما أن يبقيها بينه وبين ربه تبارك وتعالى، وإما أن يعلم بها من غير

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان (ص:٢٧٠)، ودراسات في علوم القرآن، أ. د / فهد الرومي (ص: ٢٨٩-٢٩٦).
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٤٠١).
(٣) انظر: روح المعاني (١/٨).

أن يلزم بها أحدا»[١]، ومستندهم إليه حديث ابن عباس عندما كان عمر ﷺ يدخله على أشياخ بدر عندما سألهم عن سورة النصر[٢]، قال ابن حجر ﷺ معلقًا عليه بقوله:« وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي ﷺ: أو فهمًا يؤتيه الله رجلًا في القرآن »[٣]. وقال ابنُ القيِّمِ ﷺ: « وتفسير النَّاسِ يدورُ على ثلاثةِ أصولٍ: تفسيرٌ على اللَّفظِ، وهو الذي ينحو إليه المتأخِّرون. وتفسيرٌ على المعنى، وهو الذي يذكره السَّلفُ. وتفسيرٌ على الإشارةِ والقياسِ، وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ منَ الصُّوفيَّةِ وغيرهم. وهذا لا بأسَ به بأربعةِ شرائط: أن لا يناقضَ معنى الآية. وأن يكون معنًى صحيحًا في نفسِهِ. وأن يكون في اللَّفظِ إشعارٌ به. وأن يكون بينه وبين معنى الآيةِ ارتباطٌ وتلازمٌ، فإذا اجتمعت هذه الأمورُ الأربعةُ كان استنباطًا حسنًا »[٤]. وقال الشَّاطبيُّ ﷺ: « وكَونُ الباطنِ هو المرادُ من الخطابِ قد ظَهَرَ أيضًا مما تقدَّم في المسألةِ قبلَها، ولكن يُشترطُ فيه شرطان: أحدهما: أن يَصِحَّ على مقتضى الظَّاهرِ المقرَّرِ في لسان العربِ، ويجري على المقاصدِ العربيَّةِ. والثاني: أن يكونَ له شاهدٌ -نصًّا أو ظاهرًا- في محلٍّ آخر يشهدُ لصحَّتِهِ من غير معارضٍ» [٥].

فهذا النوع من التفسير ينبغي لمن يقبله أن يأخذه على حذر، وفق الشروط التي وضعها العلماء؛ لأنه ليس طريق تعلمه الدرس والتعلم، وليس له قواعد وأسس تنبني

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٤٠٣)، ومباحث من علوم القرآن، مناع القطان (ص: ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب: منزلة النبي ﷺ ح رقم ٤٢٩٤.

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٣٦).

(٤) التبيان في أقسام القرآن (٢/٨٠).

(٥) الموافقات في أصول الفقه (٤/ ٢٣٢).

عليه، وإنما فتوح ربانية سببها المجاهدات الروحية.

المسائل التي تؤخذ في التفسير على حذر:



المطلب الرابع
المسائل التي تُجْتَنَب في دراسة التفسير

هنالك جوانب وقعت في التفسير أدت إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وأبعدت الناس عن سبيل القرآن وهدايته، وشغلت الناس عن تدبره، والتمتع بجماله، والأولى في دراسة التفسير الابتعاد عنها وتجنبها، وتنقية التفسير مما دخله بسببها؛ لتبقى هدايته ناصعة كما أرادها الله تعالى، وهي المسائل التي أطلق عليها بعض العلماء بالدخيل في التفسير، وهي على النحو التالي:

أولًا: الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي كثرت روايتها في بعض كتب التفسير يجب تركها ولا يجوز تناولها وذكرها، والاستدلال بها في فهم الآية؛ لأن في الصحيح ما يغني عنها، ولأن الاستنباط منها جنبًا إلى جنب مع الأحاديث الصحيحة عيب في التفسير ينبغي التخلص منه، وقد أضر كثيرًا بعقيدة الأمة، وقد جاءت الكثير من هذه الأحاديث في فضائل بعض الآيات والسور، وأسباب النزول، وبعض القصص، حتى صارت عبئًا في التفسير يتناقلها الناس كأنها وحيٌ معصوم، وشغلت الناس عن التدبر، وقللت من جمال معاني القرآن الكريم؛ ولذلك كان عند العلماء أن التفسير الذي يخلو من هذا الجانب يعتبر ذلك من مناقبه، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ عندما سئل عن تفسير الواحدي والزمخشري والبغوي فقال: «وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه وحذف أشياء غير

ذلك»[(١)]. وقال معلقًا على بعض الروايات: «ومثل هذا لا يرويه إلا أحد رجلين: رجل لا يميز بين الصحيح والضعيف، والغث والسمين، وهم جمهور مصنفي السير والأخبار وقصص الأنبياء كالثعلبي والواحدي، والمهدوي، والزمخشري، وعبد الجبار بن أحمد، وعلي بن عيسى الرماني، وأبي عبد الله بن الخطيب الرازي، وأبي نصر بن القشيري -أبو القاسم القشيري-، وأبي الليث السمرقندي، وأبي عبد الرحمن السلمي، والكواشي الموصلي، وأمثالهم من المصنفين في التفسير، فهؤلاء لا يعرفون الصحيح من السقيم، ولا لهم خبرة بالمروي المنقول، ولا لهم خبرة بالرواة النقلة، بل يجمعون فيما يروون بين الصحيح والضعيف، ولا يميزون بينهما، لكن منهم من يروي الجميع، ويجعل العهدة على الناقل، كالثعلبي ونحوه»[(٢)].

ثانيًا: الأقوال الشاذة والأفكار المنحرفة:

ينبغي للمفسر الإعراض عن الأقوال الشاذة وعدم ذكرها والانشغال بها، فقد آن الأوان للتخلص منها، وهي كثيرة جاء غالبها في كتب المبتدعة من الرافضة والمعتزلة والأشاعرة والصوفية والفلاسفة وغيرهم ممن تصدوا لهذا العلم بدون تأهل، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «كثير من المفسرين يأتون بالعجائب التي تنفر عنها النفوس، ويأباها القرآن أشد الإباء كقول بعضهم: «طه» لفظة نبطية معناها يا رجل ويا إنسان، وقال بعضهم: هي من أسماء النبي ﷺ مع «يس»، وعدوا في أسمائه طه ويس، وقال بعضهم في نون والقلم: إنها الدواة؛ كأنه لما رأى هذا الحرف قد اقترن بالقلم جعله الدواة، وقال بعضهم في (ص) صاد: إنها فعل ماض مثل رام وقاض...إلى أن قال بعد ذكر عشرات الأمثلة: وأضعاف أضعاف ذلك من التفاسير المستنكرة المستكرهة التي قصد

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣/ ٣٨٦).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٣٥٤).

بها الإغراب والإتيان بخلاف ما يتعارفه الناس...مما لو تتبع وبيِّن بطلانه لجاء عدة أسفار كبار»[١]. والأمثلة كثيرة جدًا يمكن مراجعة كتاب الأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها للدكتور عبد الرحمن بن صالح الدّهش[٢]. ففيه ما يشفي ويكفي.

ثالثًا: المبهمات التي استأثر الله بعلمها:

من علوم القرآن الكريم التي اعتنى بها السلف مبهمات القرآن الكريم، وهي على نوعين:

الأول: مبهمات يمكن معرفتها والوقوف على ما يدل على الجزم بها، فقد أخرج البخاري عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ ﵄ يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ: (مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ) [٣]، قال السهيلي ؒ: «هذا دليل على شرف هذا العلم، وأن الاعتناء به حسن ومعرفته فضل»[٤]. وقد ألف فيه القاضي بدر الدين ابن جماعة كتابه (التبيان في مبهمات القرآن)، وجمع فيه السيوطي كتابه (مفحمات الأقران في مبهمات القرآن)، وهو في هذا النوع يكون من العلوم

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٦٩٦).

(٢) طبعة: سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، ط١/ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير، باب:{ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ } { قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } ح رقم ٤٩١٣.

(٤) مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، السيوطي (١ / ١).

التي يستدعيها المفسر عند توفر الحاجة إليها.

والآخر: مبهمات لا يمكن الوقوف على ما يبينها من آية أو حديث صحيح أو قول صحابي موثوق، وهو ما ينبغي اجتنابه من علم المبهمات، فإن تكلف علم ما ليس فيه مستند صحيح لعلمه، وليست هنالك فائدة تترتب على معرفته، والبحث عنها التزام ما لا يلزم، ولو أراد الله تعالى ذلك منا لدلَّنا عليه في كتابه أو على لسان نبيه، بل الأولى بالمفسر أن يسكت عن جزئيات سكت عنها القرآن، وأعرض عنها الرسول ﷺ مما لا فائدة من معرفته، فليست الروايات الموضوعة أو الضعيفة أو الأخبار الإسرائيلية بكافية في بيان ذلك حتى يزج بها في التفسير كما فعله بعض المفسرين، وعامة ما لا يعرف من المبهمات إلا بتكلفات ظنية هو مما لا يتوقف عليه عمل، ولا تحتاجه الأمة، فهو مما لا فائدة فيه، والعلم بها هو من فضول الكلام الذي لا ينفع العلم به، والجهل به لا يضر مثل: كلب أصحاب الكهف، وتعيين محل الكهف، وأسماء أصحاب الكهف، والشجرة التي أكل منها آدم عليه الصلاة والسلام، والجزء الذي ضرب منه موسى عليه الصلاة والسلام القتيل[(١)]، ولذلك قال الزركشي رحمه الله: «لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعلمه كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[الأنفال:٦٠] قال: والعجب ممن تجرأ وقال: إنهم قريظة، أو من الجن »[(٢)].

رابعًا: التأويلات الباطنية للقرآن الكريم:

أصحاب التفسير الباطني من الشيعة، وغلاة المتصوفة لا يلتزمون في فهم القرآن بالمنهجية التي سار عليها علماء الأمة الإسلامية، مما جعلهم يتلاعبون بنصوص

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٥/٣٠)، ومفحمات الأقران في مبهمات القرآن (١ / ١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٥٥).

القرآن الكريم كما أرادوا، فهم ينكرون دلالة بعض الآيات حينا، ويحملونها على غير المراد منها حينا آخر، ويتركون المعنى الظاهر حينًا، ويقولون بالباطن وحده حينًا، ((وكان من نتائج هذا التفسير الباطني للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربًا بالغًا ومجالًا رحبًا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم عقيدتهم الفاسدة، فأخذوا يتصرَّفون في القرآن كما يحبون، وعلى أي وجه يشتهون))[(١)]. فالتفسير الباطني يجب الحذر منه واجتنابه؛ لأن من وجه يمكن أن يصل إلى ما لا يتصور من الضلال كما هو مشاهد في حال بعض الفرق، وليس في نقله أو ذكره فائدة للأمة بل الصحيح والواجب إماتة الباطل بعد ذكره.

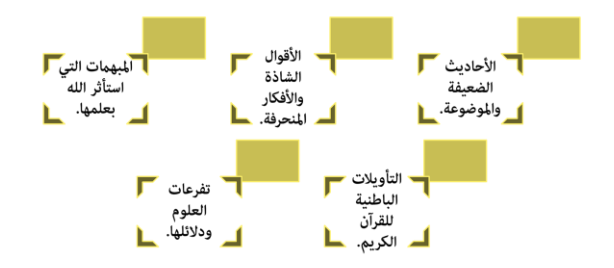
خامسًا: تفرعات العلوم ودلائلها:

هنالك من العلماء من حاول أن يدخل في التفسير كل شيء، أو أراد أن يدخل كل فروع علمه الذي برز فيه في التفسير، فتجد النحوي حاول أن يبرز كل ما يحتمله اللفظ من وجوهٍ نحويةٍ حتى كأن القرآنَ نزلَ لهذا، وتجد الفقيه يتوسع في الأحكامِ الشرعيةِ من عباداتٍ ومعاملاتٍ حتى أخذ التفسيرُ سمة الفقه، حتى تضخمت بعض كتب التفسير، وبعُد التفسير عن مقاصده، وصعبَ على طلابِ العلم نيل مرادهم منه، ومن هنا كان على المفسِّر أن يتجنب ما يخرجه عن دلالات الآية ومحتواها مثل ما يذكره البعض من علل النحو، ودلائل مسائل الفقه وأصول الفقه، ودلائل مسائل أصول الدين وغيرها حتى أصبحت بعض التفاسير توصف بأنها فيها كل شيء إلا التفسير، قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله:((كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الإعراب بعلل النحو، ودلائل مسائل أصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل أصول الدين، وكل ذلك مقرر في تآليف هذه العلوم وإنما يؤخذ ذلك مسلما في علم

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون (٤/١٣٩-١٥٠)، ومناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (١/ ٤٠).

التفسير دون استدلال عليه»[١]، وقال ابن تيمية رحمه الله وهو يتكلم عن كيفية تأمل المفسر لمعاني القرآن الكريم، واستغنائه بمعانيه وحكمه عن غيره من كلام الناس فقال: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها... وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم»[٢].



(١) البحر المحيط (١/ ٨).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٥٠ -- ٥١).

المبحث الرابع

اختلاف المفسرين (أنواعه وأسبابه وفقه التعامل معه)

المطلب الأول: مقدمة عن وقوع الاختلاف.

المطلب الثاني: قلة اختلاف الصحابة في التفسير.

المطلب الثالث: أنواع الاختلاف في التفسير.

المطلب الرابع: أسباب الاختلاف في التفسير.

المطلب الخامس: فقه التعامل مع اختلافات المفسرين.

مقدمة عن وقوع الاختلاف .

قلة اختلاف الصحابة في التفسير .

أنواع الاختلاف في التفسير .

أوجه اختلاف التنوع.

أسباب الاختلاف في التفسير .

فقه التعامل مع اختلافات المفسرين.

المطلب الأول

مقدمة عن وقوع الاختلاف

الاختلاف في المفهوم والمعتقدات والأخلاق والسلوك ونحو ذلك من طبيعة البشر التي لا تنفك عنهم، وسنة من سنن الله التي جرت بين الأمم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود: ١١٨ – ١١٩]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: «خلقهم فريقين فريقا يرحمه، وفريقا لا يرحمه»[(١)]، وقال أشهب: سألت مالكًا عن هذه الآية فقال:« خلقهم ليكون فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة»[(٢)]، فالخلاف بين الناس لابد أن يقع في معتقداتهم وأفكارهم وأخلاقهم، كما هو واقع في اختلاف ألسنتهم، وألوانهم، وأشكالهم، وعقولهم، وطاقاتهم؛ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم:٢٢]، قال ابن عاشور رحمه الله:« واختلاف لغات البشر آية عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كوّنه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف »[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨]؛ ولذا فوقوع الخلاف بين علماء الأمة في تأويل آية أمر طبعيٌّ لا ينبغي استنكاره أو استبعاده؛ لأنه من الأمور التي لا ينفك عنها مجتمع من مجتمعات

(١) انظر: جامع البيان (١٥ /٥٣٦)، ومعالم التنزيل(٤ /٢٠٦)، والدار المنثور للسيوطي(٧ /١٧٧).

(٢) المصادر السابقة (٩/٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/٣٢٣٤).

البشـــر، يقول ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضـــروري لابد منه لتفاوت إراداتهم، وأفهامهم، وقوى إدراكهم؛ ولكن المذموم بغي بعضـــهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصـــده طاعة الله ورســـوله لم يضـــر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابد منه في النشـــأة الإنســـانية؛ ولكن إذا كان الأصـــل واحدا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المســـلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافا لا يضـــر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله، والقصـــد واحد، وهو طاعة الله ورســـوله، والطريق واحد، وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمهما على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة »[1].

والمطالع في كتب التفسير يقف على ظاهرة تعدد الأقوال واختلافها في التفسير، ومن هنا كان من المهم معرفة هذه الاختلافات من حيث أنواعها وأســـبابها وكيفية التعامل معها، ولأهمية هذا الموضـــوع فقد كتب بعض العلماء مؤلفات ذكروا من خلالها أنواع هذا الاختلاف، وأسبابه، وآثاره؛ وذلك لأهمية هذا العلم للمفسـر حتى يستطيع الاستفادة من تلك الأقوال، والتوفيق والترجيح بينها، من هذه المؤلفات:

١- اختلاف المفســرين أســبابه وآثاره للدكتور ســعود بن عبد الله الفنيســان، وهي رسالة علمية نال بها درجة الدكتوراه.

٢- اختلاف المفسرين، للدكتور محمد الشايع.

٣- وتحدث عنه ابن جزي في مقدمة تفسيره.

٤- وأطال شيخ الإسلام في مقدمة أصول التفسير في بيان منهج التعامل معه.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٥١٩).

المطلب الثاني

قلة اختلاف الصحابة في التفسير

الصحابة رضوان الله عليهم كغيرهم من الناس كان فهمهم للقرآن الكريم متفاوتًا، بقدر تفاوتهم في الإلمام بلغة العرب، وأحوال نزول الآيات، وملازمتهم للنبي ﷺ، وتفاوت عقول بعضهم، ولذا كان أحيانًا يقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، إلا أنه قليل جدًا بالنسبة لمن جاء بعدهم، وهي في غالبها ترجع إلى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: «كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر »[(١)].

وهنالك أسباب جعلت الخلافَ بين أصحاب النبي ﷺ في التفسير قليلًا بدرجة لا تكاد تذكر، من ذلك:

١- وجود الرسول ﷺ بينهم، وكانوا يرجعون إليه دائمًا فيما يشكل عليهم ويقع بينهم من اختلاف في قراءة أو فهم، وقد ذكرنا جزءًا من الأدلة التي توضح رجوعهم إلى النبي ﷺ فيما أشكل عليهم.

٢- سعة علمهم بمصادر الوحي «الكتاب والسنة» ومقاصدهما، مع إلمامهم شبه الكامل باللغة العربية في ألفاظها ومعانيها وأساليبها، فقد وفر لهم فهمًا مشتركًا لكثير من المعاني.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٣٢).

٣- نهي النبي ﷺ الصريح والواضح عن الاختلاف في القرآن الكريم وضرب معانيه بعضها ببعض، كما روي عن أنس رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ من باب البيت وهو يريد الحجرة، فسمع قوما يتنازعون بينهم في القدر، وهم يقولون: ألم يقل الله تعالى آية كذا، وكذا؟ ألم يقل الله عز وجل آية كذا وكذا؟ قال: ففتح النبي ﷺ باب الحجرة، وكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: ((أبهذا أمرتم؟ أم بهذا بعثتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بأشباه هذا، ضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض، أمركم الله بأمر فاتبعوه، ونهاكم فانتهوا))(١).

٤- تمكن الإيمان في قلوبهم جعلهم يتورعون أشد الورع في القول على الله بدون علم، مما جعل كل من تكلم منهم تكلم بعلم، مما جعل أقوالهم معتبرة، وتحرجوا عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم))، وقال أبو عبيدة أيضًا حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ((وفاكهة وأبا)) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر))، وقال: ابن أبي مليكة: أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها))(٢)؛ بل هذا الذي ورثوه لطلابهم كما جاء عن ابن جرير رحمه الله قال: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ح رقم ٨٤، وأحمد بن حنبل في المسند ح رقم ٦٦٦٠، الطبراني في المعجم الأوسط ح رقم ١٣١٨، وابن حجر في المطالب العالية ح رقم ٢٩٩٩ورجاله ثقات.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٧١-٣٧٥).

الله بن عمر قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع»[١].

إلى غيرها من آثار كثيرة تبين مهابتهم في القول على الله بدون علم، أما ما علموه فقد تحدثوا عنه.

٥- عدم الحاجة للتوسع في التفسير قلل الاختلاف بينهم؛ لأن غالب المعاني كانت مفهومة من سليقتهم العربية، ولقوة بصائرهم، وتوفر العلم والأعلام الذين يرجع إليهم ويصدر جميع الناس عن قولهم.

---

(١) جامع البيان (١/٨٥).

المطلب الثالث

أنواع الاختلاف في التفسير

ينقسم الاختلاف في التفسير في أصله إلى قسمين هما:

أ) اختلاف تنوع.

ب) اختلاف تضاد.

فاختلاف التنوع: هو الأقوال المتنوعة غير المتعارضة في تفسير الآية، بحيث يمكن قبولها مجتمعة، سواء أكانت بمعنى واحد، أو كانت متغايرة لكنها غير متضادة يمكن الجمع بينها.

واختلاف التضاد: هي الأقوال المتضادة المتنافية بحيث لا يمكن القول بها معًا، فإذا قيل بأحدهما لزم منه عدم القول الآخر، فالمصيب واحد، وإلا فمن قال كل مجتهد مصيب فعنده هو من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد [(١)].

وهذا النوع من الاختلاف واقع في هذه الأمة، وقد حذر منه القرآن الكريم والنبي ﷺ لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[آل عمران: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[الأنعام: ١٥٩]، وقد نهى النبي ﷺ هذه الأمة أن تضرب آيات الله بعضها ببعض؛ لأن مضمون الضرب الإيمان بإحدى الآيتين والكفر بالأخرى إذا اعتقد أن بينهما تضادا؛ إذ الضدان لا يجتمعان، كما جاء في صحيح الإمام مسلم عن أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبَاحٍ الأَنْصَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا - قَالَ - فَسَمِعَ

---

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير (ص: ٣٠-٣١)، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٧ – ٣٩)، الصواعق المرسلة (٢ / ٥١٧- ٥١٩)، فصول في أصول التفسير (ص: ٥٧).

أَصْـوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَـبُ فَقَالَ (إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلاَفِهِمْ)[١]، فعلل غضـبه ﷺ بأن الاختلاف في الكتاب هو سبب هلاك من قبلنا؛ وذلك يوجب مجانبة طريقهم في هذا عينا وفي غيره نوعا.

أنواع اختلاف التنوع:

اختلاف السـلف رحمهم الله في التفسـير يرجع في غالبه إلى اختلاف التنوع، لا اختلاف التضـــاد، وهو نوع من الاختلاف المقبول؛ لأن أقوالهم وإن كان ظاهرها الاختلاف؛ ولكن عند التحقيق نجدها أقوالا في نهايتها متنوعة غير متعارضـــة ولا متضـادة، كما قال الزركشـي رحمه الله: « يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصـــنّفون للتفســـير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظنُّ مَنْ لا فهم عنده أن في ذلك اختلافًا فيحكيه أقوالًا، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضـهم يخبر عن الشـيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصـوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحدٍ غالبًا، والمراد الجميع فليتفطن لذلك، ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات »[٢].

وقال الشاطبي رحمه الله: « من الخلاف ما لا يعتد به وهو ضربان:

أحدهما: ما كان في الأقوال خطأً مخالفًا لمقطوع به في الشـريعة، وقد تقدم التنبيه عليه.

---

(١) كتاب العلم، باب: النهي عن إتباع متشابه القرآن ح رقم ٤٩٢٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/١٧٦-١٧٧).

والثاني: ما كان ظاهره الخلاف وليس في الحقيقة كذلك، وأكثر ما يقع ذلك في تفسير الكتاب والسنة، فنجد المفسرين ينقلون عن السلف في معاني ألفاظ الكتاب أقوالًا مختلفة في الظاهر، فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد، والأقوال إذا أمكن اجتماعها من غير إخلال بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه»[(١)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه أربعة أنواع من أنواع اختلاف التنوع تمثل أبرز الأمثلة لأنواع اختلاف التنوع، وهي:

الأول: أن يُعبّر كل واحد من المفسرين عن المعنى المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، ومثال ذلك « الصراط المستقيم » فقد قال بعضهم: هو « القرآن » أي اتباعه، وقال بعضهم « الإسلام »، وقال بعضهم هو «السنة والجماعة»، وقال بعضهم: « العبودية »، وقال بعضهم: « طاعة الله ورسوله » فهذه الأقوال كلها تشير إلى ذات واحدة؛ ولكن وصفها كل واحد منهم بصفة من صفاتها .

الثاني: أن يذكر كل مفسر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، ومثال ذلك: ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[فاطر: ٣٢]. فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات، والمنتهك للمحرمات. والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات. ثم يأتي كل مفسر فيذكر نوعًا من أنواع الطاعات كقول القائل: السابق

---

(١) الموافقات (٤/١٤٠).

الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، ويقول الآخر: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم يأكل الربا، والعادل بالبيع، والناس في الأموال إما محسن، وإما عادل، وإما ظالم، فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل »، فكل قول من هذه الأقوال إنما يذكر نوعًا مما يتناوله نص الآية لتعريف المستمع وتنبيهه على نظائره، ولا يُضاد ما ذكره غيره.

ومثله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٨]، قيل في النعيم أقوال منها: الأمن والصحة والأكل والشرب، وقيل: تخفيف الشرائع، وقيل: الإدراك بحواس السمع والبصر، فهذا المذكور كله أمثلة للنعيم لا حصر له.

ثالثًا: ما يكون فيه اللفظ محتملًا للأمرين فيفسر كل واحد بوجه منها، مثال لفظ «قسورة» فإنه يراد به «الرامي »، ويُراد به «الأسد»، ولفظ « عسعس » يراد به إقبال الليل وإدباره، ولفظ «القرْء»، يراد به «الحيض » «والطهر».

الرابع: أن يعبر عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه؛ ومثاله أن يفسر أحدهم قوله تعالى:﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[الأنعام: ٧٠]، تبسل أي: تحبس، ويقول الآخر ترتهن، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨]، لغوب « قال ابن عباس ومجاهد تعب، وقال ابن زيد عناء، وقال سفيان سآمة ونحو ذلك »[1].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٣ ـ ٣٤٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «واختلاف التنوع على وجوه:

منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله ﷺ عن الاختلاف وقال كلاكما محسن، ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح، والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد وتكبيرات الجنازة إلى غير ذلك مما شرع جميعه وإن كان قد يقال إن بعض أنواعه أفضل...

ومنه ما يكون كل من القولين هو في الواقع في معنى قول الآخر لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود والتعريفات وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات وتقسيم الأحكام وغير ذلك ثم الجهل أو الظلم هو الذي يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى.

ومنه ما يكون المعنيان غيرين لكن لا يتنافيان فهذا قول صحيح وذلك قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر وهذا كثير في المنازعات جدا.

ومنه ما يكون طريقتان مشروعتان ولكن قد سلك رجل أو قوم هذه الطريقة وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا نية.

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما في الأصول وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد وإلا فمن قال كل مجتهد مصيب فعنده هو من باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد»[١].

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (١ /٣٦ - ٣٨).

المطلب الرابع

أسباب الاختلاف في التفسير

لاختلاف السلف -رحمهم الله- في التفسير أسباب كثيرة منها:

أولًا: الاختلاف في القراءات:

وهو أن يكون في الآية أكثر من قراءة فيفسر كل منهم الآية على حسب قراءة مخصوصة؛ مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[الحجر: ١٤ -١٥]، أن معنى سُكِّرت مشددة: سُدَّت وهو قول قتادة، ومن قرأ «سُكِرت» مخففة فإنه يعني سحرت كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال سُكرت: بمعنى أخذت وسحرت.

أو يكون سبب اختلاف العلماء راجعًا لسبب اختلاف القراءة، فيحمل المعنى على قراءة دون أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢]، هذه قراءات الجمهور، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «يطَّهرن» بتشديد الطاء وفتحها وفتح الهاء وتشديدها، وفي مصحف أبي وابن مسعود، ويتطهرن، والطهر انقطاع الحيض، والتطهر: الاغتسال، وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء، وقال محمد بن كعب القرظي ويحي بن بكير: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل، وقال مجاهد وعكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل

وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة، وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى فيجب المصير إليها، وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتبرة؛ لقوله تعالى بعد ذلك: {فإذا تطهرن} فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة كذلك يجب الجمع بين القراءتين))(١).

ثانيًا: الاختلاف في وجوه الإعراب:

الإعراب لـه تأثيره الكبير في المعنى، والاختلاف في إعراب الجملة يؤدي إلى اختلاف العلماء في تفسيرها وفهم معناها، وهذا كثير جدًا في كتب التفسير، والأمثلة عليه كثيرة من ذلك:

وكاختلافهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾[آل عمران: ٧]، فقد اختلفوا في ((والراسخون)) فقيل في الواو عطف نسق على اسم الله عز وجل، فيكون المعنى والراسخون في العلم كذلك يعلمون تأويله، وإن قيل: الواو استئنافية، والراسخون مرفوع بالابتداء والخبر في قوله تعالى: ((يقولون آمنا به)) يكون الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله ((وإنما يقولون آمنا به كل من عند ربنا)).

وكاختلافهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[الليل: ٣]، هل ما مصدرية، أو موصولة، فإذا كانت موصولة يكون الله تعالى قد أقسم بنفسه أي: ومَن خلق الذكر

---

(١) انظر: فتح القدير (١ / ٣٤٤).

والأنثى، وإن كانت مصدرية يكون أقسم بمخلوقاته أي: وخلقِ الذكر والأنثى، قال الشنقيطي رحمه الله: «ختلف في لفظة «ما» فقيل: إنها مصدرية، أي وخلق الذكر والأنثى. وقيل: بمعنى من، أي والذي خلق الذكر والأنثى. فعلى الأول يكون القسم بصفة من صفات الله وهي صفة الخلق، ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتي. وعلى قراءة: والذكر والأنثى. يكون القسم بالمخلوق كالليل والنهار، لما في الخلق من قدرة الخالق أيضًا، وعلى أنها بمعنى الذي يكون القسم بالخالق سبحانه، وتكون ما هنا مثل في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾[الشمس:٥]...وفي اختصاص خلق الذكر والأنثى في هذا المقام لفت نظر إلى هذه الصفة، لما فيها من إعجاز البشر عنها، كما في الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدروا على شيء في»[1].

وكاختلافهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١]، فسبب اختلافهم في الإعراب وقع اختلافهم في قائل الجملة بين من جعلها من كلام موسى عليه السلام، وبين من جعله من كلام الله تعالى، قال الألوسي رحمه الله: «﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾، والقائل إما الله تعالى على لسان موسى عليه السلام، ويرجحه كون المقام مقام تعداد النعم، أو موسى عليه السلام نفسه وهو الأنسب بسياق النظم والاستفهام للإنكار»[2].

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٩/ ١٩٤).

(٢) روح المعاني (١/ ٣٤١).

ثالثًا: الاختلاف في المعنى اللغوي للكلمة:

وقد يكون سبب الاختلاف في المراد باللفظ لاحتماله أكثر من معنى، إما بسبب الاشتراك اللغوي، أو بحكم التواطؤ في الأصل، وإليك تفصيل ذلك:

أ) الاشتراك: وهو اللفظ الدال على أكثر من معنى في لغة العرب، والكلمة بحكم وضعها في اللغة تدل على معنيين فأكثر، فيفسرها أحد العلماء بمعنى، ويفسرها الآخر بالمعنى الآخر. وقد يكون هذا الاشتراك يجوز فيه حمل الآية على المعاني مع تضادها، ويكون كل تفسيرهم جائزًا وصحيحًا، وقد يمتنع حمل الآية عليهما معًا، ويلزم من القول بأحدهما رد القول الآخر.

فمثال الأول: الذي يجوز حمل الآية على معنيين كلفظ «عسعس» في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾[التكوير:١٧]، فقد فسر لفظ «عسعس» بأنه أقبل، وفسر بأنه أدبر، وبالأول قال ابن عباس وقتادة، وسعيد بن جبير، وبالثاني قال ابن عباس وابن زيد، وإنها لمعجزة باهرة أن يكون للكلمة معنيان، ويكون تركيبها من تكرر حرفين.

وفي مثل هذا يجوز حمل الآية على هذين المعنيين المتضادين فيكون لفظ عسعس دالًا على أن الإقسام مراد به أول الليل وآخره، فدل على هذين المعنيين بلفظة واحدة، ولو جاء بهما بلفظيهما لكان «والليل إذا أقبل وإذا أدبر ».

ومثال الثاني: المشترك المتضاد الذي يمتنع حمل الآية على معنييه، بل يلزم من القول بأحدهما نفي الآخر، لفظ « قرء » في قوله تعالى:﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾[البقرة: ٢٢٨] فقد ورد في لغة العرب بمعنى الطهر، وبمعنى الحيض، روي المعنى الأول عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة، وسالم بن عبد الله، والزهري، وسعيد

بن جبير، وروي المعنى الثاني عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، وابن عباس، وعكرمة، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك وغيرهم [(١)].

وفي هذا المثال يمتنع حمل الآية على المعنيين معًا؛ لأن القول بأحدهما يستلزم نفي الآخر، فالمطلوب من المرأة أن تتربص إما ثلاثة أطهار،أو ثلاث حيضات.

والاشتراك قد يكون في:

الأسماء نحو: لفظ «قسورة » يطلق للأسد والرامي.

وقد يكون في الأفعال نحو: ظنَّ تطلق للشك واليقين.

وقد يكون في الحروف كحرف «من» فإنه يأتي لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١]، وللتبعيض: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة: ٣]، وللسببية كقوله سبحانه: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾[نوح: ٢٥]، ولبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[الحج: ٣٠].

فلما استعمل القرآن هذه الألفاظ المشتركة ونحوها كانت سببًا لاختلاف العلماء في التفسير.

ب) التواطؤ[(٢)]: أي: أن يكون اللفظان متساويين في الأصل؛ لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشيئين، وهو يشمل:

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (٢/ ١٢٥٣ -١٢٦١)، فقد ذكر كل هذه الأقوال مفصلة بإسنادها.

(٢) المشترك هو ما اتحد فيه اللفظ واختلف فيه المعنى، فالعين تطلق على العين الباصرة، وعين الماء، والجاسوس، والظن يراد به الشك واليقين، والتواطؤ لفظ منطقي يراد به: نسبة وجود معنى كلي في أفراده وجودًا متوافقًا غير متفاوت، كالإنسانية لزيد وعمر، فهو يدل على أعيان متعددة، بمعنى واحد مشترك بينهما اشتراكًا متساويًا، فإن معنى التواطؤ في اللغة التوافق والتواتي والتساوي، انظر: مختار الصحاح (٣٠٣/١)، وفصول في أصول التفسير (ص: ٣٤١).

١- الضــــمير الذي يحتمل عوده إلى شـــيئين: من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] فالضـمير في قوله: فملاقيه ((يحتمل عوده إلى الكدح وإلى الرب، ونحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾[النجم: ٨ – ٩]، فقيل هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مســعود وأبي ذر، وأبي هريرة، وقيل: دنا الرب من محمد ﷺ، وهو قول ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم [١].

٢- وأسماء الأجناس: مثل: والفجر، والعصـر، والشـفع والوتر، وليال عشـر، فيقع الخلاف هل المراد بالعصـــر، ما بين العصـــر إلى المغرب، أم المراد الدهر، ونحو ذلك، وكذلك الفجر هل المراد به وقت الفجر من كل يوم، أو أول فجر من ذي الحجة أو أول فجر من أيام السنة ونحو ذلك.

٣- والأوصــاف التي يشــترك فيها أكثر من واحد: كلفظ الخنس، فقيل هو: بقر الوحش والظباء، وقيل هي: الكواكب والنجوم وكالنازعات ونحو ذلك.

فمثل هذا يجوز أن المراد به كل المعاني التي قالها السلف، وأن جميع الأقوال داخلة ضمن معنى الآية، وربما يكون أحدهما راجحًا.

رابعًا: احتمال الإطلاق والتقييد:

ومن أسباب الاختلاف احتمال الإطلاق والتقييد في الآية:

والمطلق هو: ما دل على الماهية بلا قيد، والمقيد هو: ما دل على الماهية بقيد، كالدم المقيد بالمسفوح في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ﴾[الأنعام: ١٤٥])) [٢].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري (٢٧/٢٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/٢٦٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/٣١).

ومن المعلوم أنه يجب حمل المطلق على المقيد إذا وجد دليل يقتضي التقييد، ويقع الخلاف بين السلف في هذا الدليل، فتراه طائفة فيحملون المطلق على المقيد، ولا تراه أخرى فيبقون المطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده، ومثل ذلك عتق الرقبة في الكفارات، فقد وردت مقيدة في كفارة القتل الخطأ بالرقبة المؤمنة، قال تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ ﴾[النساء: ٩٢]، ووردت مطلقة في كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾[المجادلة: ٣]، ووردت مطلقة أيضًا في كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾[المائدة: ٨٩]، فالرقبة في كفارة الظهار واليمين مطلقة تشمل المؤمنة والكافرة، وفي كفارة القتل الخطأ مقيدة بالإيمان، فقالت طائفة: يحمل المطلق على المقيد فلا تجزئ عندهم الرقبة الكافرة في الظهار واليمين، بل لابد من رقبة مؤمنة كما هي في كفارة القتل الخطأ، وقالت طائفة أخرى لا يُحمل المطلق على المقيد إلا بدليل، ولا دليل هنا فيبقى المطلق على إطلاقه فيجوز عتق الرقبة الكافرة في كفارة الظهار واليمين.

خامسًا: الاختلاف في العموم والخصوص:

ومن الأسباب التي توقع الاختلاف بين المفسرين العموم والخصوص، يختلفون في عموم لفظ أو خصوصه، مثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ﴾[البقرة:٢٢١]، قيل هذه الآية حكمها عام ثم خصصت بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾

[المائدة:٥]، وهذا مروي عن عثمان وحذيفة وجابر وابن عباس، وقتادة، وابن جبير، وقد روي إنها عامة في الكتابيات وغيرها، وليست مخصصة كما هو قول ابن عمر حيث قال: لا أعلم شركًا أعظم ممن تقول إن ربها عيسى بن مريم»[١].

سادسًا: الاختلاف في النسخ والإحكام:

ومن أسباب الاختلاف بين المفسرين اختلافهم في النسخ والإحكام:

ومن أمثلة الاختلاف في هذا قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾[البقرة: ١١٥]، فقد روى جابر بن عبد الله ﷺ ما يدل على أنها محكمة، وأن المراد أنها نزلت في اشتباه القبلة، وروى ابن عمر رضي الله عنهما ما يدل على أنها محكمة، وأن المراد بها صلاة التطوع، وعلى كلا القولين فإنها محكمة غير منسوخة، وهو أيضًا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، والشعبي والنخعي [٢].

وروي عن ابن عباس أنها منسوخة، فقد روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلى البيت العتيق، فقال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[البقرة: ١٤٤].

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص(٢ ١٥)، والناسخ والمنسوخ لابن العربي(٢/٧٩/٨٣)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص: ٢٠٤، ٢٦٢).

(٢) انظر: نواسخ القرآن (ص: ٢٠٢-٢٠٤).

سابعًا: الاختلاف بسبب الرواية عن الرسول ﷺ:

ومن أسباب اختلاف المفسرين في تفسير الآية الاختلاف في الرواية عن الرسول ﷺ فقد يبلغ أحدهم حديث الرسول ﷺ ولا يبلغ الآخر، فيختلف تفسير كل مفسر عن الآخر، ومثاله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾[البقرة:٢٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ [الطلاق:٤]، فقد استند علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى هاتين الآيتين في أن المرأة التي توفي عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين.

أما ابن مسعود ﷺ فقد قال: من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية نزلت بعد الأربعة الأشهر ثم قال: « أجل الحامل أن تضع ما في بطنها »[1].

ويشهد لابن مسعود ﷺ حديث سُبيعة الأسلمية فقد تُوفِّي عنها زوجها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاتها، فلما تعلت من نفاسها تجمَّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك مُتجمِّلة؟ لعلك تريدين النكاح إنك والله ما أنت بناكحٍ حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سُبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك؟ فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي)[2].

وقد رجع علي وابن عباس ﷺ من قولهما بعد أن بلغهما حديث سبيعة، فقد روى مسلم في صحيحه أن أبا سلمة بن عبد الرحمن، وابن عباس اجتمعا عند أبي هريرة، وهما يذكران المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال ابن عباس عدتها آخر

---

(١) جامع البيان، الطبري (١٣٢/١٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها ح رقم ٢٨٠٦.

الأجلين، وقال أبو سـلمة: قد حلت فجعلا يتنازعان ذلك قال: فقال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي (يعني أبا سلمة) فبعثوا كريبًا (مولى ابن عباس) إلى أم سلمة يسألها عن ذلك فجاءهم فأخبرهم أن أم سـلمة قالت: أن سـبيعة الأسـلمية نفسـت بعد وفاة زوجها بليال وأنها ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأمرها أن تتزوج))[١].

ثامنًا: تنوع الاستعمال العربي للفظة:

كذلك من أسـباب الاختلاف بين المفسـرين تنوع الاسـتعمال العربي للفظة في إرادة المعاني القريبة والمعاني البعيدة، فيحمل بعضـهم اللفظة على المعنى القريب الظاهر، ويحمله آخرون على المعنى البعيد، وهذا النوع قريب من المشـترك، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[المدثر: ٤] من المفسرين من فسر الثياب بالمعروف المتبادر، وروى هذا عن ابن عباس وطاووس، وابن سيرين، وابن زيد، ومنهم من فسر الثياب بالنفس، وهذا المعنى البعيد غير متبادر وهو مروي عن مجاهد وقتادة))[٢].

ومثله كذلك نجده في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾[هود: ٩١] في قصـة شعيب، قيل في المراد بالرجم قولان:

الأول: لرجمناك بالحجارة، والثاني: لرجمناك بالسب والشتم.

والأول: هو المعنى القريب المتبادر للذهن، قال ابن عطية: وهو الظاهر.

والثاني: وإن كان محتملًا إلا أنه أبعد من الأول[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب: وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ح رقم ٤٦٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها ح رقم ٢٨٠٧.

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي (١٤/ ١١٨).

(٣) النكت والعيون (٢/ ٤٩٩).

ومثله قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣] من المفسرين من قال المراد المشي بالأرجل، ومن فسره بمخالطة الناس.

تاسعًا: الاختلاف بسبب الحذف:

أن يكون في الجملة حذف ويحتمل تقديره أكثر من معنى فيذكر كل واحد أحد المعاني المحتملة، ومثاله قوله تعالى ﴿ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[النساء: ١٢٧]، ففي متعلق ((ترغبون)) تقديرات:

الأول: ترغبون في نكاحهن: وهذا قول عائشة وعبيدة.

والثاني: ترغبون عن نكاحهن، وهذا قول الحسن(١).

ففي الأول صارت الرغبة في زواجهن، وفي الثاني صِرْن غير مرغوب فيهن، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ﴾[الجاثية: ٢٣]، قيل في مرجع علم قولان:

الأول: على علم من العبد بضلاله، وهذا قول مقاتل.

والثاني: على علم من الله بضلاله، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما(٢).

أسباب الاختلاف في التفسير

- القراءات.
- تنوع وجوه الإعراب.
- الاختلاف في المعنى اللغوي للكلمة.
- احتمال الإطلاق والتقييد.
- العموم والخصوص.
- النسخ والإحكام.
- الرواية عن الرسول ﷺ.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي (٣/ ١٩٥).

(٢) فتح القدير لمحمد الشوكاني (٦/ ١١).

المطلب الخامس

فقه التعامل مع اختلافات المفسرين

إذا تعددت أقوال السلف والعلماء في معنى الآية، فعلى المفسر دراسة مواضع الاتفاق والاختلاف بين الأقوال باتباع الخطوات التالية في فقه التعامل مع الأقوال:

١. النظر في صحة الأقوال المختلفة من حيث سندها لمن قالوا بها إذا كانت للسلف؛ لأن النقل الصحيح هو المعتبر، كما يجب التوثق من صحة الأقوال التي طريقها الاجتهاد والنظر، وصحة نسبتها لقائليها؛ لأن عدم ثبوت القول عن قائله يلغي اعتباره قولًا في تفسير الآية.

٢. النظر في أقوال العلماء في معنى الآية، هل هي متفقة أم مختلفة؛ لأن أقوال المفسرين في معنى الآية إما أن تكون متفقة لفظًا ومعنى، وإما أن تكون مختلفة، والمختلفة إما تكون متضادة بحيث يتعذر الجمع بينها وحمل معاني الآية على جميع الأقوال في آن واحد، وإما أن تكون ليس بينها تضاد، وإنما هي من باب اختلاف التنوع الذي كله حق؛ لأن كثيرًا من الأقوال يبدو في ظاهرها التعارض؛ ولكن بعد تمحيص النظر، نجدها متفقة من حيث المعنى؛ لأنه « قد يرد اللفظ القرآني فيعبر عنه كل واحد من السلف بعبارة غير عبارة صاحبه، وهذه العبارة تدل على معنى في المسمى غير المعنى الذي تدل عليه عبارة الآخر، وهذان المعنيان موجودان في المسمى الواحد الذي يفسرانه[١].

وقد يرد اللفظ القرآني ويكون اسمًا عامًا فيفسر كل من المفسرين هذا الاسم العام بذكر بعض أنواعه لينبه المستمع إليه على سبيل التمثيل لا على سبيل الحد

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٣/ ١٧٨).

المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه[١]، وهذه في النهاية ترجع لشيء واحد ...وقد يكون اللفظ يحتمل أكثر من معنى يمكن حمل الآية عليها.. ثم يقوم بتصنيف أقوالهم بحسب الاتفاق والافتراق.

٣. إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد، ويتعذر الجمع بين الأقوال، وحمل الآية على جميع المعاني المذكورة، فهنا يتوجه إلى ترجيح قول من بين تلك الأقوال، وفق قواعد الترجيح التي بينها العلماء رحمهم الله تعالى[٢]، قال الشنقيطي رحمه الله: «ومعلوم أن الجمع واجب إذا أمكن، وإن لم يمكن وجب الترجيح»[٣]، مثل القول بالنسخ في الآية المعينة إذ يتعذر الجمع.

٤. إذا كان اختلافهم اختلاف تنوع، فإن اتفقت أقوالهم على معنى واحد كان هذا غاية المطلوب، قال الشاطبي رحمه الله: «الأقوال إذا أمكن اجتماعها والقول بجميعها من غير إخلال بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه...فإنَّ نقل الخلاف في مسألة لا خلاف فيها في الحقيقة خطأ كما أن نقل الوفاق في موضع الخلاف لا يصح»[٤].

٥. إذا اختلفت أقوالهم، وتعذر حملها على معنى واحد، وصح حملها على أكثر من معنى من المعانٍ المتفقة التي ذكرها السلف توجه لذلك؛ لأن الجمع بين أقوال السلف في معنى الآية وحملها على معانٍ متفقة إذا أمكن أولى من غيره.

(١) المصدر السابق (١٣/١٨٠).
(٢) انظر: شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، للدكتور مساعد الطيار (ص: ٣٩ -٤١)، وأقوال المفسرين توجيهها ومسالك التوفيق بينها، للدكتور حسين بن علي الحربي.
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٦/ ٩٩).
(٤) الموافقات (٤/ ١٢١).

٦. إذا اختلفت أقوالهم، وصح حملها على أكثر من معنى، إلا أن بعض الأقوال أولى من بعض لقرينة من القرآن، أو السنة، أو اللغة، أو غيرها، يتم اختيار وتقديم القول الأولى، ولا يلزم من تقديم قول طرح ما سواه، ولكن هذا من باب تقديم الأولى، وإن كانت بقية الأقوال لها وجهها. قال الزركشي رحمه الله: «وكل لفظ احتمل معنيين فهو قسمان:

الأول: أن يكون أحدهما أظهر من الآخر فيجب الحمل على الظاهر إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي دون الجلي فيحمل عليه.

الثاني: أن يكونا جليين والاستعمال فيهما حقيقة وهذا على ضربين:

أحدهما: أن يختلف أصل الحقيقة فيهما فيدور اللفظ بين معنيين، هو في أحدهما حقيقة لغوية وفي الآخر حقيقة شرعية فالشرعية أولى إلا أن تدل قرينته على إرادة اللغوية نحو قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[التوبة:١٠٣]، وكذلك إذا دار بين اللغوية والعرفية، فالعرفية أولى لجريانها على اللغة، ولو دار بين الشرعية والعرفية فالشرعية أولى لأن الشرع ألزم.

الضرب الثاني: ألا يختلف أصل الحقيقة بل كلا المعنيين استعمل فيهما في اللغة أو في الشرع أو العرف على حد سواء وهذا أيضا على ضربين:

أحدهما: أن يتنافيا اجتماعا ولا يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء حقيقة في الحيض والطهر، فعلى المجتهد أن يجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه فإذا وصل إليه كان هو مراد الله في حقه، وإن اجتهد مجتهد آخر فأدى اجتهاده إلى المعنى الآخر كان ذلك مراد الله تعالى في حقه؛ لأنه نتيجة اجتهاده وما كلف به، فإن لم يترجح أحد الأمرين لتكافؤ الأمارات فقد اختلف أهل العلم، فمنهم من قال: يخير في

الحمل على أيهما شاء، ومنهم من قال: يأخذ بأعظمهما حكما، ولا يبعد اطراد وجه ثالث، وهو أن يأخذ بالأخف كاختلاف جواب المفتين.

الضرب الثاني: ألا يتنافيا اجتماعا فيجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة وأحفظ في حق المكلف، إلا أن يدل دليل على إرادة أحدهما، وهذا أيضا ضربان:

أحدهما: أن تكون دلالته مقتضية لبطلان المعنى الآخر فيتعين المدلول عليه للإرادة.

الثاني: ألا يقتضى بطلانه، وهذا اختلف العلماء فيه، فمنهم من قال: يثبت حكم المدلول عليه ويكون مرادا، ولا يحكم بسقوط المعنى الآخر، بل يجوز أن يكون مرادا أيضا، وإن لم يدل عليه دليل من خارج؛ لأن موجب اللفظ عليهما فاستويا في حكمه، وإن ترجح أحدهما بدليل من خارج، ومنهم من قال: ما ترجح بدليل من خارج أثبت حكما من الآخر لقوته بما ظاهره الدليل الآخر. فهذا أصل نافع معتبر في وجوه التفسير في اللفظ المحتمل والله أعلم »[١].



(١) البرهان في علوم القرآن ٢(٢ /١٦٦، ١٦٧).

الفصل الرابع: التفسير أقسامه واتجاهاته وأساليبه

المبحث الأول: أقسام التفسير.

المبحث الثاني: اتجاهات التفسير.

المبحث الثالث: أساليب التفسير.

المبحث الأول
أقسام التفسير

المطلب الأول: التفسير بالمأثور.

المطلب الثاني: التفسير بالرأي.

مدخل:

ينقسم التفسير إلى قسمين؛ وذلك لأن التفسير إما أن يكون طريقه النقل، وإما أن يكون طريقه العقل، والأول: يطلق عليه (التفسير بالمأثور)، والثاني: يطلق عليه (التفسير بالرأي)، والمراد بالرأي هنا «الاجتهاد»؛ وذلك لأن المفسر يُعْمِلَ عقله في فَهْمِ القرآن، والاستنباط منه، مستخدمًا آلات الاجتهاد.

والتفسير بالمأثور منه ما هو خالص فيه، ومنه ما فيه زيادة استنباط، وتوجيه للأقوال والآراء ومناقشتها والترجيح بينها، والتفسير بالرأي والاجتهاد لا ينفك عن المأثور في الجملة أيا كانت اتجاهاته، فإليك الحديث عن كل قسم؛ لأن الإلمام بهذا الموضوع المهمة من الأهمية بمكان في التعامل مع كتب التفسير المتنوعة، وكيفية الاستفادة منها.

المطلب الأول
التفسير بالمأثور

أولًا: تعريفه:

هو: ((تفسير القرآن بما صح عن الرسول ﷺ، والصحابة والتابعين)).

فما جاء عن النبي ﷺ فهو من التفسير النبوي وله حكمه ومميزاته، وإن كان المفسر به قول الصحابي فله حكم تفسير الصحابة، وإن كان المفسر به قول التابعي، فله حكم تفسير التابعي، ولا يجتهد في بيان معنى إلا بعد الرجوع إلى هذه المصادر، ولا يهتم بما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته، ما لم يرد فيه نقل صحيح مما أبهم في القرآن أو مما استأثر الله بعلمه.

ثانيًا: فضله ومكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأنه تفسير للقرآن بالسنة وهي المبينة للقرآن، وإما بأقوال الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وعاصروا الوحي، وهم الذين نزل القرآن بلسانهم، أو بأقوال التابعين الذين عاشوا في القرون المفضلة، وتتلمذوا على يد أصحاب النبي ﷺ، وقد سبق الحديث عن قيمة هذا النوع من التفسير، وحكمه، ومميزاته بالتفصيل في مبحث سابق.

ولكن ينبغي أن يراعى في التفسير بالمأثور جانبان مهمان:

الجانب الأول: صحة السند: لأنه قد دخله ما ليس منه مما يوجب الحذر عند تناوله، وبيان الصحيح من الدخيل، وترجع أسباب ذلك إلى أمور:

أ- الوضع في الأحاديث والآثار:

الذي نشأ بسبب الفرق الضالة والمذاهب المنحرفة التي وضعت الأحاديث التي

تسند عقائدهم الفاسدة؛ لما لم تساندهم آيات القرآن كالمعتزلة والرافضة وغلاة المتصوفة وغيرهم.

ب – حذف الإسناد:

فإن هنالك أقوالًا كثيرة جاءت في التفسير بالمأثور حُذفَ منها الإسناد، مما جعل الناس يتساهلون في تحري الدقة في الأقوال.

ولذا فإن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا ينبغي العدول عنه.

ثانيهما: ما لم يصح سنده، وهذا لا ينبغي قبوله ولا الاشتغال به، في الجوانب لها حكم الرفع، أو التي تقرر جوانب تتعلق بالعقيدة.

الجانب الثاني: تعدد الأقوال في الآيات، فقد يرد عن السلف في تفسير الآية عدة أقوال تحتاج إلى معرفة المنهج السليم في التعامل معها.

ثالثًا: أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور:

تنقسم كتب التفسير بالمأثور إلى قسمين، فمنها ما هو خالص في التفسير بالمأثور وهذا قليل، ومنها ما هو غالب عليه التفسير بالمأثور؛ وفيها قدر كبير من التفسير بالرأي؛ ولكن العلماء صنفوها بحكم ما غلب عليها، وهي كثيرة جدًا لا سيما المفقود منها، ولكننا نذكر هنا أهم ما ينبغي لطالب العلم معرفته، فمن ذلك:

١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).

٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٥ هـ).

٣) بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (ت: ٣٧٥ هـ).

٤) الكشــف والبيان عن تفســير القرآن، لأبي إســحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت: ٤٢٧هـ).

٥) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسـيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت: ٤٣٧هـ).

٦) النكت والعيون، لأبى الحســن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصــري (ت ٤٥٠).

٧) تفســير القرآن، لأبي المظفر الســمعاني منصــور بن عبد الجبار التميمي، (ت:٤٨٩).

٨) معالم التنزيل في تفســير القرآن، لأبي محمد الحســين بن مســعود البغوي (ت: ٥١٠هـ).

٩) المحرر الوجيز في تفســير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ).

١٠) تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ).

١١) الجواهر الحســان في تفســير القرآن، لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٦ هـ).

١٢) الـدر المنثور في التفســير بالمأثور، لعبـد الرحمن بن الكمـال جلال الـدين السيوطي (ت: ٩١١هـ).

١٣) فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفســير، لمحمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ).

١٤) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)

١٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي(ت: ١٣٩٣هـ).

والتفسير بالمأثور لا يعني أنه ليس للمفسر رأي ولا اجتهاد فيه كما سبق بيانه، وإنما هو من باب الغالب عليها، وأن المفسر جعل أساس الفهم عنده قائمًا على الأثر، ثم هو بعد ذلك يعمل رأيه واجتهاده، إما مرجحًا قولًا، وإما مستنبطًا فائدة لم ينص عليها، ونحو ذلك [١].

(١) انظر: بحوث في أصول التفسير، للرومي (ص: ٨٦ ـ ٩١).

المطلب الثاني
التفسير بالرأي

أولًا: تعريفه:

هو أن يبذل المفسر جهده العقلي للتوصل إلى مراد الله تعالى من كلامه الكريم، ممن كانت له الأهلية لذلك وفق الأصول الشرعية واللغوية [(١)].

ولما كان للعقل والاجتهاد حضورهما سمي: بالتفسير العقلي، والتفسير الاجتهادي، والتفسير بالدراية، وهو الذي يعتمد فيه المفسر على الاستنتاج العقلي للأحكام والحكم من الآيات، وترجيح المحتملات، وذلك ممن ملك أدوات الاجتهاد.

ثانيًا: نشأة التفسير بالرأي:

نشأ هذا التفسير في عهد النبي ﷺ، فقد كان الصحابة ﭫ يجتهدون بحكم سليقتهم العربية في فهم خطاب القرآن المنزل من عند الله، وكذلك اجتهدوا بعد النبي ﷺ وفسروا ما لم يرد تفسيره في القرآن ولا في السنة باجتهادهم، وكذلك نقل ذلك عن التابعين رحمهم الله تعالى، مراعين في ذلك معرفتهم بأحوال النزول، ودلالة الشرع، ومقتضى اللغة.

واستمر الأمر على هذا النحو إلى أن نشأت الفرق والمذاهب المنحرفة، التي فسرت آيات القرآن وفق مذاهبهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، غير مستندين إلى شرع ولا إلى لغة صحيحة، وإنما إلى مجرد الرأي والهوى، فوقع الكلام في ذم التفسير بالرأي، حتى ظن البعض أنها في ذم مطلق الرأي والاجتهاد في القرآن.

ثم جلَّى العلماء الأمر بتقسيم الرأي إلى قسمين:

---

(١) التفسير ورجاله، محمد محمود حور (ص:٤٠).

القسـم الأول: الرأي المقبول الجائز: فإذا كان التفسـير بالرأي وفق مسـتند من الشـرع واللغة؛ ولا يعارض نقلًا صـحيحًا، ولا عقلًا سـليمًا، ولا علمًا يقينًا ثابتًا، وقد بذل فيه المفسر الذي يملك أدوات الاجتهاد وسعه في تحري الصواب، وتجريد النفس من الهوى، والاستحسان بغير دليل، ومراقبة الله في كل ما يقول.

القسـم الثاني: الرأي المذموم المحرم: فإذا كان التفسـير قائما عن جهل وهوى، ليس له انضباط مع قواعد وأصول الشـرع واللغة، هدفه تأييد مذهب فاسـد، أو رأي باطل فهو التفسـير بالرأي الذي منعه العلماء، وهو نوع من القول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وإليك الحديث عن كل نوع بتفصيل.

ثالثًا: أنواع التفسير بالرأي:

تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد نوعان:

النوع الأول: التفسير بالرأي المذموم المردود:

أ – تعريفه: هو التفسير القائم على الجهل والهوى.

الجهل: لأنه تكلم في القرآن من غير تأهل له بالعلوم التي لابد منها للمفسـر، أو تكلم في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

والهوى: فيكون مقصـده تحريف المعنى لتأييد مذهبه الفاسـد، ورأيه الباطل، وهذا اللون من التفسير كثيرا ما يستند على المرويات الواهية والباطلة؛ ليؤيد بها رأيه الفاسد الذي ذهب إليه.

ب – النهي عن الرأي المَذْمُوم:

إذا عرفنا أن الرأي المذموم هو الكلام في القرآن بجهـل وهوى، فقـد ورد النهي القوي والصـريح في كتاب الله تعالى، وسـنة نبيِّه ﷺ، وعن سـلف هذه الأمة الأخيار، في القول بغيرِ علمٍ، أو بالهوى.

فالقول على الله بغير علم هو وسيلة الشيطان التي يضل بها عباد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٦٨، ١٦٩]؛ ولذا حذر الله تبارك وتعالى منه غاية التحذير، وجعله من أعظم المحرّمات التي يسـأل عنها العبد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى محذرًا عن الهوى، كاشـــفًا لعواقبه:﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية: ٢٣].

وأما في سنة الرسول ﷺ فقد جاء عدد من الأدلة تنهى عن القول على الله بغير علم وتبين خطورته، وجاءت أدلة أخرى تنهى عن الهوى وتبين خطورته، من ذلك:

ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضـــي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًـا يَنْتَزِعُـهُ مِنْ الْعِبَـادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًـا جُهَّالًا، فَسُـئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصـام، وترجم، بابُ ما يذكر من ذمِّ الرأي وتكلف القياس ح رقم ١٠٠، ومسلم في كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ح رقم ٦٩٧١..

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[(١)]، وفي رواية أخرى للترمذي: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)، قال أبو عيسى رحمه الله: « هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في هذا، في أن يفسر القرآن بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا إنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم »[(٢)]، وفي رواية النسائي: (قال من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار)[(٣)].

وفي رواية أخرى لأبي داود والترمذي والنسائي أن النبي ﷺ قال: (مَنْ قالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ)[(٤)]، قال المناوي: « من قال في القرآن... بما سنح في ذهنه وخطر بباله من غير دراية بالأصول ولا خبرة بالمنقول (فأصاب) أي: فوافق هواه الصواب دون نظر كلام العلماء ومراجعة القوانين العلمية، ومن غير أن يكون له وقوف على لغة العرب، ووجوه استعمالها من حقيقة ومجاز ومجمل ومفصل وعام وخاص، وعلم بأسباب نزول الآيات والناسخ والمنسوخ منها وتعرف لأقوال الأئمة وتأويلاتهم (فقد أخطأ) في حكمه على القرآن بما لم يعرف أصله، وشهادته على الله تعالى بأن ذلك هو مراده، أما من قال فيه بالدليل وتكلم فيه على وجه التأويل فغير داخل في هذا الخبر »[(٥)]. وقال النبي ﷺ: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا

---

(١) ح رقم ٢٩٥١، وقال الترمذي حديث حسن، وضعفه الألباني.

(٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي (٥/ ١١٣).

(٣) في باب من قال في القرآن بغير علم ح رقم ٥٥٤٣.

(٤) أبو داود ح قم ٥٥٤٣، والترمذي ح رقم ٢٩٥٢، والنسائي ح رقم ٨٠٨٥، وضعفه الألباني.

(٥) فيض القدير للمناوي ٣ / ٤٨٤، ٤٨٥.



لِمَا جِئْتُ بِهِ)[(١)].

ومن هنا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مُرَّة، عن أبي مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: أيّ أرض تقلّني وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم))[(٢)].

وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر[(٣)]. قال ابن كثير: ((وهذا كله محمول على أنهما -رضي الله عنهما- إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل؛ لقوله تعالى ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴾[عبس: ٢٧ – ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكَة: ((أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها))[(٤)].

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مُلَيْكة؛ قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة: ٥]، فقال

---

(١) أخرجه: البيهقي في " المدخل " ١/١٨٨ (٢٠٩)، والخطيب في " تأريخه " ٦/٢١، والبغوي في شرح السنة، (١٠٤)، وقال ابن حجر في فتح الباري: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات وقد صححه النووي في آخر الأربعين (١٣/ ٢٨٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٧٨)، وابن كثير في تفسيره (١/ ١١).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١٢) عن يزيد به، ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به، وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

(٤) جامع البيان لأبي جعفر الطبري (٢/ ١٢٩)، وقال: إسناده صحيح.

له ابن عباس فما ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤]، فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم[1].

وقد أورد ابن جرير الطبري والحافظ ابن كثير، وشيخ الإسلام ابن تيمية عددًا من الروايات التي تبين تحرج السلف من القول في القرآن بغير علم، من ذلك: «قال الليث عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عَبْدَة الضَّبِّيّ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر؛ قال: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عُرْوَة قال: ما سمعت أبي تأوَّل آية من كتاب الله قط. وقال أيوب وابن عَوْن وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن، فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبيد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه؛ قال: إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده. وحدثنا هُشَيْم، عن مغيرة، عن إبراهيم؛ قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه. وقال شعبة عن عبد الله ابن أبي السَّفْر؛ قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله، وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبي زائدة، عن

(١) المصدر السابق (٢/ ١٢٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٢).

الشعبي، عن مسروق؛ قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله))[١].

وقد وجه العلماء هذه الآثار: بأن إحجام مَن أحجم من السَـلَف عن التفسير بالرأي، إنما كان منهم ورعًا واحتياطًا لأنفسهم، مخافة ألا يبلغوا ما كُلِّفوا به من إصابة الحق في القول، وكانوا يرون أن التفسير شـهادة على الله بأنه عَنَى باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عَزَّ وجَلَّ، وكان منهم مَن يخشى أن يُفسِّر القرآن برأيه فيُجعل في التفسير إمامًا يُبنَى على مذهبه ويُقتفَى طريقه، فربما جاء أحد المتأخرين وفسَّر القرآن برأيه فوقع في الخطأ، ويقول: إمامي في التفسير بالرأي فلان من السَلَف.

ويمكن أن يُقال أيضًا: إن إحجامهم كان مُقيَّدًا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، أما إذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتحرَّجون من إبداء ما يظهر لهم ولو بطريق الظن. فهذا أبو بكر ﷺ يقول – وقد سُئل عن الكلالة[٢]: ((أقول فيها برأيي فإن كان صوابًا فمِن الله، وإن كان غير ذلك فمِني ومِن الشيطان: الكلالة كذا وكذا)).

قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد جملًا من الآثار التي تحذر من الرأي: ((فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا: فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، ﴿

(١) جامع البيان لأبي جعفر الطبري (٢/ ١٢٩)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣ / ٣٧٠)، وتفسير ابن كثير (١/٥).

(٢) الْكَلَالَةُ " مَنْ لَا أَبَ لَهُ وَلَا وَلَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ " إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٣/ ١٩٢).

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، ولما جاء في الحديث الذي جاء من طرق:(مَنْ سُـئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [(١)]))[(٢)].

قال ابن تيميه بعد أن ذكر أقوال الأئمة في التحرج من التفسـير بالرأي: ((فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسـير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشـرعًا فلا حرج عليه))[(٣)].

وأيضا: فقد روي عن كثير من الصحابة ﭫ القول في تفسير القرآن، وذلك كالسادة الأخيار: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم، فلولا أن تفسـير القرآن جائز لمن تأهل له لما فعلوه؛ لأنهم كانوا أشـد الناس ورعا، وتقوى، ووقوفا عند حدود الله؛ وكذلك: ورد تفسـير القرآن عن كثير من خيار التابعين، كسـعيد بن جبير، ومجاهد ابن جبر، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، ومسروق، والشعبي، وغيرهم، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة احتياط، ومبالغة في التورع.

ولعلهم ﭫ أرادوا بهذا أن يتريث من يريد تفسـير كلام الله، ثم يتريث قبل أن يتكلم فيه، ويحجم قبل أن يقدم، وأن يكونوا قدوة حسنة لمن سيجيء بعدهم، وعسى أن يكون موقفهم هذا مع جلالتهم وعلمهم بالقرآن مذِّكرًا لهؤلاء الذين يتجاوزون.

ويمكن أن يُقال أيضًا: إنما أحجم مَنْ أحجم؛ لأنه كان لا يتعيَّن للإجابة لوجود مَنْ يقوم عنه في تفسـير القرآن وإجابة السائل، وإلا لكانوا كاتمين للعلم، وقد أمرهم

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ح رقم ٣٦٦٠، وابن ماجة ح رقم ٢٦١، والحاكم في المستدرك ح رقم ٣٤٤، وقال: هذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٣/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٧٤/١٣).

الله ببيانه للناس [(١)].

فمن فسر القرآن برأيه المجرد دون الرجوع إلى لغة العرب وأساليبها في البيان والرجوع إلى المروي عن الرسول ﷺ والصحابة، ومعرفة الناسخ والمنسوخ فقد أخطأ الطريق الذي يتوصل به إلى تفسير كتاب الله، وإن أصاب في رأيه لمراد الله؛ لأنه أتى الأمر من غير بابه حيث فسر كتاب الله بما لا يعلمه، ولذا نجد الصحابة ﷺ والتابعين تكلموا في القرآن بما يعلمون، وتحرجوا عن الكلام في القرآن بما لا علم لهم به.

النوع الثاني: التفسير بالرأي الممدوح المقبول:

أ – تعريفه: هو التفسير المبني على المعرفة الكافية بعلوم اللغة، وقواعد الشرع، وهو جائز لمن كان عالما بعلوم اللغة، وأصول الشرع، وناسخ القرآن ومنسوخه وأسباب النزول والسنة صحيحها وضعيفها وأصول الفقه، وأن تكون له موهبة تمكنه من النظر والتأمل، والموهبة في التفسير لا تأتي إلا بالتقوى، فكلما كان الإنسان أكثر تقوى وخشية لله فتح الله عليه وعلمه ما لم يعلم، وبارك في علمه، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[البقرة: ٢٨٢]، ويحرم التفسير بالرأي لمن لا تتوفر فيه الشروط السابقة.

ب – أدلة جواز التفسير بالرأي والاجتهاد:

قد جاءت أدلة كثيرة في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ تدل على جواز التفسير بالرأي والاجتهاد القائم على العلم الذي توفرت لصاحبه مقومات الاجتهاد، من ذلك:

١- الآيات الآمرة بالتدبّر: قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤]، وقال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٤٣/٤).

﴾[ص: ٢٩]. والتدبّر: التفكّر والتأمّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبِّر تدبّرًا انكشف له معانٍ لم تكن له بادئ النظر، فلو لم نفسر القرآن بالاجتهاد لفات معنى التدبر والتأمل في القرآن الذي حثنا الله تعالى عليه في غير آية، ولو أن التفسير توقف على النقل فقط لتعطلت كثير من الفوائد، قال الأصفهاني رحمه الله: ((وذكر بعض المحققين أن المذهبين هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرًا مما يحتاج إليه،ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخبيط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]))[1].

والتدبّر: عملية عقلية يجريها المتدبر من أجل فهم معاني الخطاب القرآني ومراداته، ولا شك أن ما يظهر له من الفهم إنما هو اجتهاده الذي بلغه، ورأيه الذي وصل إليه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[النساء:٨٣]، ووجه الدلالة في هذه الآيات: ((أنه تعالى حَثَّ في الآيتين الأوليين على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلّت الآية الأخيرة على أن في القرآن ما يستنبطه أُولوا الألباب باجتهادهم))[2].

٢- إقرارُ الرسول ﷺ اجتهادَ الصحابة على الاجتهاد في فهم القرآن الكريم وتفسيره، وفي ذلك وقائع يمكن استنباط هذه المسألة منها، ومن هذه الوقائع ما يلي:

أ – عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلاَسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلَكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِي ﷺ فَقَالَ:(يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟) . فَأَخْبَرْتُهُ بالذي منعني

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٧).

(٢) التفسير والمفسرون (١/١٨٧).

مِنَ الاِغْتِسَالِ وَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا)[١]، ففي هذا الأثر ترى أن عَمْرًا اجتهد رأيه في فهم هذه الآية، وطبّقها على نفسه، فصلى بالقوم بعد التيمم، وهو جنب، ولم ينكر عليه الرسول ﷺ هذا الاجتهاد والرأي.

ب – وفي حديث ابن مسعود، لما نزلت آية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قلنا يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه، فقال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]»[٢]، فالصحابة فهموا الآية على العموم، وما كان ذلك إلا رأيًا واجتهادًا منهم في الفهم، فلما استشكلوا ذلك سألوا رسول الله ﷺ، فأرشدهم إلى المعنى المراد، ولم ينههم عن تفهّم القرآن والقول فيه بما فهموه. كما يدل على أنهم إذا لم يستشكلوا شيئًا لم يحتاجوا إلى سؤال الرسول ﷺ. والله أعلم.

٣- دعاء الرسول ﷺ لابن عباس: دعا الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: (اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل) وفي رواية البخاري: (اللهم علمه الكتاب). والتأويل: التفسير، ولو كان المراد المسموع من التفسير عن النبي ﷺ لما كان لابن عباس مَزِيَّةٌ بهذا الدعاء؛ لأنه يشاركه فيه غيره، وهذا يدلّ على أن التأويل المراد: أمر آخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، والفهم للقرآن، وهذا الفهم إنما هو رأيٌ لصاحبه وهذا بَيِّنٌ لا إشكال فيه[٣].

٤- عمل الصحابة: مما يدل على أن الصحابة قالوا بالرأي وعملوا به، فما ورد عنهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ح رقم ١٧٨٤٥، وأبو داود في سننه ح رقم ٣٣٥، والبيهقي في سننه ح رقم ١١١٠، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أحاديث الأنبياء ح رقم ٣٣٦٠، ٣٤٢٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١/٣٣)، وفتح الباري، (١/٢٠٥).

من اختلافٍ في تفسير القرآن؛ إذ لو كان التفسير مسموعًا عن النبي ﷺ لما وقع بينهم هذا الاختلاف، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ، إذ إنه لم يُبيّن لهم كل معاني القرآن، بل بَيَّنَ لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توّصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو كان القول بالرأي في القرآن محظورًا لكانت الصحابة قد خالفت ووقعت فيما حرَّم الله، ونحن نُعيذ الصحابة من المخالفة والجرُأة على محارم الله.

ومما ورد عنهم نصًا في ذلك قولُ صدِّيق الأمة أبي بكر رضي الله عنه لما سئل عن الكلالة، قال:(أقول فيها برأيي؛ فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطًا فمني ومن الشيطان)، وكذا ما ورد عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: لِعَلِيٍّ رضي الله عنه هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ:(الْعَقْلُ[١]، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ)[٢]. وغيرها.

٥- ما يترتب على عدم تفسير القرآن بالاجتهاد من فوات كثير مما اشتمل عليه الكتاب الكريم من الأحكام والآداب، وأنواع المعارف والعلوم، التي لا يزال يظهر منها في كتاب الله كل يوم جديد. قال فخر الدين الرازي:«وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك وإلا لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله مردودة باطلة، ومعلوم أن ذلك لا يقوله إلا مقلد خلف»[٣].

---

(١) الْعَقْلُ: أي: " الدية سميت عقلا لأنهم كانوا يعقلون الإبل التي هي دية بفناء دار المقتول " سبل السلام شرح بلوغ المرام (٨/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الديات، باب: العاقلة، ح رقم ٣٠٤٧.

(٣) تفسير الرازي (٥ / ٥١).

وهل اتسعت التفاسير، وتفننت مستنبطات معاني القرآن إلا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله. وهل يتحقق قول علمائنا إن القرآن لا تنقضي عجائبه إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير، ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه جبريل إياهن)[١]. ثم لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرا، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم. قال الغزالي والقرطبي: « لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعا من النبي ﷺ لوجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة، وهي ما تقدم عن عائشة. الثاني أنهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها »[٢].

وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها به قبل ذلك، وهذا الإمام الشافعي يقول: تطلبت دليلا على حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥].

ج – شروط التفسير بالرأي:

لما كان التفسير بالرأي قائما على الاجتهاد فيما لم يجدوا فيه حديثًا عن النبي ﷺ

---

(١) بحثت عن هذا الأثر فلم أجده في كتب الآثار المعروفة، وإنما ذكره عدد من المفسرين منهم الثعالبي، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان الأندلسي وغيرهم.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٩).

أو أثرًا عن الصحابة والتابعين، أو كان اجتهادًا حتى للتوفيق أو الترجيح بين أقوالهم، وضع العلماء ضوابط يجب على المفسر أن يلتزمها في اجتهاده، وذلك لخطورة هذا الباب وخطورة الخوض في آيات الله بغير علم، وهي تتلخص في الآتي:

١- الرجوع في فهم الآية أولًا إلى القرآن الكريم، ثم السنة الصحيحة، ثم أقوال الصحابة، ثم أقوال التابعين، ثم بعد ذلك يعمل رأيه واجتهاده.

٢- مراعاة ما تقتضيه اللغة العربية خصوصًا معاني الألفاظ والتراكيب عند العرب وقت التنزيل، وعدم الخروج عن قواعد اللغة عند التفسير بالرأي.

٣- مراعاة ما يقتضيه الشرع، وما تدل عليه أصول الشريعة فلا يحكم بمجرد المعنى اللغوي بل يراعي ما يناسب مقاصد الشرع وأصول الدين.

٤- تدبر القرآن حق تدبره، فلا يفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون الإحاطة بجوانب الآية.

٥- ألا يخوض في ما استأثر الله تعالى بعلمه كالمشتبهات التي ليس إلى تحديد مرادها من سبيل؛ لأنه لا يجوز التكلم فيها بغير دليل صحيح، ولا يوجد دليل.

٦- ألا يقطع بأن ما توصل إليه بالرأي والتدبر والنظر هو مراد الله تعالى دون غيره، لما في ذلك من التضييق على المتأولين.

٧- ألا يعتقد رأيًا أو مذهبًا أو نحلة ويحمل آيات القرآن عليه حملًا لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فلا يجعل هواه حكمًا على القرآن بل العكس[١].

فهذه لمحة موجزة عن التفسير بالرأي، وخلاصة أمره أنه تفسير قائم على الدراية، وهو – في نظري – جزء متمم للنوع الأول من التفسير القائم على الرواية، وباجتماعهما تكتمل حلة التفسير ما بين رواية قائمة على النقل الصحيح، ودراية

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٣٠ - ٣٢)، ومناهل العرفان (٢/٤٨، ٤٩).

قائمة على تدبر العقل الصريح، ونكون بذلك عملنا ووفقنا بين جميع الأدلة، وتكون لنا منهجية علمية متوازنة في فهم القرآن الكريم.

د – التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي:

بينا فيما سبق أن التفسير بالرأي قسمان: قسم مذموم غير مقبول، وقسم ممدوح ومقبول، أما القسم المذموم، فلا يعقل وجود تعارض بينه وبين المأثور؛ لأنه ساقط من أول الأمر، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح.

وأما التفسير بالرأي المحمود، فهذا هو الذي يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور، وهذا هو الذي نريد أن نتكلم فيه ونعرض له بالبحث والبيان، غير أنه يتحتم علينا – ليكون الكلام على بصيرة – أن نعرض لبيان معنى هذا التعارض فنقول:

التعارض بين التفسير العقلي والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافي بينهما، وذلك بأن يدل أحدهما على إثبات أمر مثلًا، والآخر يدل على نفيه، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فكأن كلًا منهما وقف في عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه. وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة وأمكن الجمع، فلا يُسمى ذلك تعارضًا، وذلك كتفسيرهم: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بالقرآن، وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعاني وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة، لأن طريق الإسلام هو طريق القرآن، وهو طريق العبودية، وهو طاعة الله ورسوله. ومثلًا تفسيرهم لقوله تعالى﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قيل فيه: السابق هو الذي يُصلِّي في أول الوقت، والمقتصد هو الذي يُصلِّي في أثنائه، والظالم هو الذي يُصلِّي بعد فواته. وقيل: السابق مَن يُؤدي الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد مَن يُؤدى الزكاة المفروضة وحدها، والظالم لنفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق. وغير خاف أنه لا تنافي بين هذين التفسيرين وإن تغايرا؛ لأن الظالم لنفسه

يتناول المضَيِّعَ للواجبات، والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرَّمات، والسابق يتناول من يفعل الواجبات ويتقرَّب بعد ذلك بزيادة الحسنات، فكلٌّ ذكرَ فردًا لعام على سبيل التمثيل لا الحصر(١).

أما إذا تعارض التفسير بالرأي مع التفسير النبوي ولم يمكن التوفيق بينهما: فيقدم التفسير النبوي؛ لأنه لا اجتهاد مع نص، وكذا إذا تعارض التفسير بالرأي مع ما ثبت من أقوال الصحابة « لأن ما يصح نسبته إلى الصحابة في التفسير فالنفس إليه أميل؛ لاحتمال سماعه من الرسول ﷺ، ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح، ولما اختصوا به من معاينة أسباب التنزيل، لكن إذا تعارض التفسير بالرأي مع تفسير التابعي انظر في المسألة فإن كان التابعي مما لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب أو كان التفسير فيما فيه مجال للرأي فحينئذ نلجأ للترجيح بين التفسير بالرأي وقول التابعي إلا إذا كان إجماعا للتابعين فإنه يقدم على التفسير بالرأي؛ وذلك كله بشرط وجود التعارض الحقيقي أما إذا تيسر الجمع بين المعقول والمنقول فلا نلجأ إلي الترجيح(٢).

هـ - أهم المؤلفات في التفسير بالرأي:

أ / الرأي المقبول: المؤلفات في الرأي المقبول لها اتجاهات متنوعة، فمنها ما تغلب عليه الجوانب الفقهية، ومنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية، ومنها ما تغلب عليه الصناعة البلاغية، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية والإسرائيلية، ومنها غير ذلك. ولكن الجميع ينضم تحت شيء واحد هو التفسير بالرأي الجائز، وهي كثيرة منها:

١) مفاتيح الغيب: لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي

---

(١)التفسير والمفسرون للذهبي (٤/ ٥١).

(٢) اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه (١ / ٤٤).

الملقب بفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦).

٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥).

٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت:٧١٠).

٤) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ)

٥) لُباب التأويل في معاني التنزيل: أبو الحسن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ).

٦) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ).

٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري(ت:٨٥٠).

٨) السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧ هـ).

٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ).

١٠) روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي(ت:١١٢٧).

١١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي (ت:١٢٧٠هـ).

١٢) محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي (ت:١٣٣٢هـ)

١٣) تفسير القرآن الحكيم: محمد رشيد رضا(ت:١٣٥٤هـ).

١٤) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)

١٥) لتحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ).

وهنالك كتب في التفسير بالرأي الجائز اهتمت بتقرير آيات الأحكام من أهم هذه الكتب:

١- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (ت:٣٧٠).

٢- أحكام القرآن، علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (ت: ٥٠٤هـ).

٣- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ).

٤- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١ هـ).

ب) الرأي المذموم:

المؤلفات في الرأي المذموم كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك:

١. تفسير كتاب الله العزيز: هود بن مُحَكَّم بن هود الهَوَّاري الأباطي(ت:٢٨٠هـ).

٢. تفسير القرآن العظيم: أبو محمد سهل بو محمد، سهل بن عبد الله التستري، الصوفي (ت:٢٨٣هـ).

٣. تفسير القمي، على بن إبراهيم القمي الشيعي(ت:٣٢٩هـ).

٤. حقائق التفسـير: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسـين بن موسـى الأزدي السُّـلمي الصوفي (ت:٤١٢).

٥. الكشـاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسـم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري المعتزلي (ت: ٥٣٨هـ).

٦. مجمع البيان في تفسير القرآن أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي الرافضي (ت: ٥٤٨).

٧. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي الرافضي(ت:١٤٠٢).

المبحث الثاني
اتجاهات التفسير بالرأي

المطلب الأول: التعريف بمناهج التفسير بالرأي واتجاهاته.

المطلب الثاني: الاتجاهات البارزة في التفسير بالرأي.

المطلب الأول

التعريف بمناهج التفسير بالرأي واتجاهاته

إنَّ اتجاهات المفسرين للقرآن الكريم بالرأي قد تنوعت وتعددت عبر القرون، فقد كان الصحابة ﷺ يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة النبوية، فإن لم يجدوا فيهما تفسيرًا اجتهدوا وهم أهل للاجتهاد والاستنباط، فكان منهجهم أصحَّ المناهج وأصفاها.

ولما توسعت رقعة الإسلام، ودخلت أمم شتى بآثار عقائدها المختلفة، ونشأت عقائد منحرفة كالشيعة والمعتزلة والخوارج وغلاة المتصوفة أثر ذلك في مصادر التفسير ومناهجه، وتنوعت طرقه واتجاهاته، فمنهم من ظل على منهج السلف، ومنهم من غلب تحكيم العقل المجرد في تفسيره، ومنهم من اصطبغ تفسيره بالعلم الذي برز فيه، فالنحوي غلب النحو في تفسيره، والفقيه غلب الفقه في تفسيره فتوسع في أصوله وفروعه، والمؤرخ غلب في تفسيره سرد القصص واستيفاؤها، والفيلسوف ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها.

وتناول كثير من الكتاب والمؤلفين هذه المناهج والاتجاهات، فألفوا المؤلفات الكثيرة في عرضها ودراستها ونقدها، وسنذكر تعريفًا موجزًا لبعض هذه المناهج والاتجاهات؛ وذلك لما لمعرفتها من أهمية بالغة قبل القراءة في كتب التفسير المتنوعة، حتى يعرف الطالب منهج المفسر وطريقته واتجاهه الذي سار عليه، وما تميز به تفسيره من مميزات وما عليه من ملاحظات.

والمراد بمناهج التفسير: مجموعة الطرق التي سلكها المفسرون في تفسير القرآن الكريم. وقد نجد في التفسير الواحد عددًا من المناهج في الغالب؛ وذلك لأن تصنيف تفسير من التفاسير على منهج معين لا يعني خلوه من المناهج الأخرى؛ بل هو حكم

على الغالب على منهج المفسر، فقد يصنف تفسيرٌ على منهج الأثر وفيه الكثير من الجانب العقلي الاجتهادي، ونحو ذلك، وعلى كلٍّ فالذي يرجحه الكاتب أن مناهج التفسير تنقسم إلى ثلاثة مناهج، وهي:

أ - المنهج الأثري في التفسير، وهو الذي يعتمد أساسًا على المنقول.

ب - المنهج العقلي في التفسير، وهو الذي يعتمد فيه المفسر أساسًا على سليم المعقول، بعد أن يستوفي شروط التفسير من علم بأصول الشريعة واللغة وأحوال نزول الآيات.

ج - منهج الجمع بين المأثور والمعقول، الذي يتحرى فيهما المفسر صحة المنقول وسليم المعقول، ووجود هذا المنهج جعل أصحاب كل منهج يستفيد من الآخر ويراعي تحفظاته، فأصحاب المنهج الأثري في التفسير استندوا على سعة علم الأوائل باللغة وأحوال نزول الآيات بجعل أقوالهم في محل الصدارة، وأصحاب الاتجاه العقلي رأوا بأننا أمرنا بالتدبر ولا يوجد دليل يحظر الاجتهاد لمن ملك أدواته، والأوائل كانت لهم اجتهادات كثيرة، فجاء هذا الاتجاه الذي حاول الموازنة بين اتجاه التفسير الأثري الذي حافظ على ما كان عليه الأوائل خاصة في أمور المعتقد، وبين اتجاه الرأي الذي جعل معاني القرآن متجددة بتجدد العصور.

والملاحظ أن الاختلاف بين المنهج الأثري والعقلي في التفسير لم يجعلهما متناقضين وإنما استفادة كل منهج من الآخر مع تغليب المنهج الذي ذهب إليه.

وأما اتجاهات التفسير فهو: طريقة يتبعها المفسر ويهتم بها، وتكون غالبة على ما سواها في أثناء بيان المعاني، واستنباط الدلالات، تبعًا لاتجاه المفسر العقدي، أو الفكري، أو الفقهي وفق مكوناته الثقافية، ومن هنا تنوعت اتجاهات المفسرين داخل المنهج الواحد حسب مكونات المفسر الثقافية وميوله المذهبية، واهتمامه الفكري،

وأصبحت الاتجاهات متعددة ومتجددة بحسب التنوع الثقافي وتجدده [(١)].

فالتفاســـير كما أخذت مناهج متعددة، أخذت اتجاهات متنوعة داخل المنهج الواحد من ذلك الاتجاه العقدي، والاتجاه الفقهي المذهبي، والاتجاه الأدبي، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: اتجاهات التجديد في تفســير القرآن الكريم في مصــر، للدكتور محمد إبراهيم شــريف (ص:٦٣، ٦٤)، ابن جرير الطبري ومنهجه في التفسير (ص: ٢٩).

المطلب الثاني

الاتجاهات البارزة في التفسير

هنالك عدة اتجاهات بارزة في التفسير، إليك بيان أهم هذه الاتجاهات:

١- التفسير اللغوي:

أولًا: تعريفه:

هو التفسير الذي يهتم بدراسة المفردة القرآنية لغويًا، ودراسة النص القرآني في معانيه المركبة من حيث النحو والبلاغة، مع التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة فنون القول القرآني ودلالاته.

وقيل هو: ((بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب))[(١)].

ثانيًا: أقسام التفسير اللغوي وما صنف فيه:

ينقسم هذا الاتجاه من التفسير إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: غريب القرآن:

وهي الكلمات التي يكون معناها غامضًا لا يفهم إلا بعد بحث وتنقيب، أو يكون غامضًا على بعض الناس دون بعض.

قال السيوطي ﵀: ((الصحابة وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحاء، ومن نزل القرآن بلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا شيئًا))، وذكر أمثلة لذلك منها قصة عمر ﵁ حيث لم يعرف معنى كلمة ((الأبُّ [(٢)] فقد جاء عن أنس ﵁: (أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر))، قال ابن

---

(١) التفسير اللغوي للقرآن، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار (ص: ٣٨).

(٢) وهو النبات الذي ينبت في الأرض وتأكله الحيوانات.

كثير رحمه الله: «وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض»(١)، ونحو كلمة التخوف التي خفيت على عمر في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ ﴾[النحل: ٤٧]، ونحو كلمة فاطر التي خفيت على ابن عباس، فقد أخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول أنا ابتدأتها(٢)، وخفي عليه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾[الأعراف: ٨٩]، كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « مَا كُنْتُ أَدْرِي مَا قَوْلُهُ: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا ﴾ حَتَّى سَمِعْتُ بِنْتَ ذِي يَزَنَ أَوِ ابْنَةَ ذِي يَزَنَ تَقُولُ: تَعَالَ أُفَاتِحُكَ أُقَاضِيكَ (٣).

وأخرج الفريابي حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعا (غسلين، وحنانا، وأواه، والرقيم) (٤)، ونحو ذلك.

ومن الكتب التي ألفت في غريب القرآن:

١. غريب القرآن لأبان بنِ تغلب الجَرِيرِيّ (ت: ١٤١هـ).

٢. غريب القرآن، لأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيديّ البصري (ت: ٢٠٢هـ).

٣. مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت: ٢١٠هـ).

٤. غريب القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة «الأخفش» النَّحوي البصريّ (ت:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ١٥٥٩.

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم:٣٠٦٠٦، وانظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٠٣).

(٤) انظر: الدر المنثور، للسيوطي (٩/ ١١٥)، وتفسير القرآن، لعبد الرزاق الصنعاني (٢/ ١٩٢)، ومجموع الفتاوى (١٣/٣٧٤)، والإتقان (١/٣٠٤).

٢١٥هـ).

٥. غريب القرآن، لأبي محمد عبدِ الله بن مسلم بن قُتَيْبَةَ البصري (ت: ٢٧٦هـ).

٦. نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العظيم لمحمد بن عزيز السجستاني (ت: ٣٣٠هـ).

٧. معاني القرآن لأبي جعفر النّحاس (ت: ٣٣٨هـ).

٨. العمدة في غريب القرآن، منسوب لمكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ).

٩. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ)، وهو أحسنها.

١٠. الأريب بما في القرآن من الغريب، لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ).

١١. تفسير غريب القرآن للعلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسن المعروف بابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ).

القسم الثاني: النحو:

حيث ألف بعض العلماء تفسيرًا للقرآن الكريم طبقوا فيه قواعد النحو، وأعربوا الكلمات القرآنية مستعرضين المذاهب النحوية المختلفة، فكانوا يعتمدون على آيات القرآن في تأييد القواعد النحوية؛ لأن القرآن الكريم كتاب العربية الأول، ومن المؤلفات في هذا الاتجاه:

١. تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه: للفراء (ت: ٢٠٧هـ).

٢. معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج (ت:٣١١ هـ).

٣. إعراب مشكل القرآن؛ لمكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ).

٤. الملخص في إعراب القرآن؛ ليحيى بن علي التبريزي (ت: ٥٠٢هـ).

٥. البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات عبد الرحمن بن أبي سعيد الأنباري (ت: ٥٧٧هـ).

٦. الفريد في إعراب القرآن المجيد، لحسين بن أبي العز الهمداني (ت: ٦٤٣هـ).

٧. المجيد في إعراب القرآن المجيد؛ لإبراهيم بن محمد السفاقسي (ت: ٧٤٢هـ).

٨. البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥ هـ).

٩. إعراب القرآن وبيانه؛ لمحيي الدين الدرويش (ت: ١٩٨٢م).

القسم الثالث: التفسير البلاغي البياني:

وهي التفاسير التي اعتنى أصحابها بإظهار بلاغة القرآن الكريم في صوره البيانية المختلفة وما يتفرع منها، ويسعى لإبراز البيان والإعجاز في القرآن الكريم.

ومن الكتب التي عنيت بالجانب البلاغي:

١. الكشاف للزمخشري.

٢. أنوار التنزيل، للبيضاوي.

٣. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود.

٤. التفسير البياني للقرآن، للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي.

٥. التحرير والتنوير، لابن عاشور.

وهنالك كتب اعتنت بالمناسبات بصورة خاصة، وهي من أوجه البيان مثل:

١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي.

٢. تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي.

٢ – التفسير الفقهي:

أولًا: تعريفه:

هو التفسير الذي يعنى بالأحكام الفقهية، وبيان استنباطها وتفريعاتها، والرد على المذاهب الفقهية المخالفة(١).

---

(١) التفسير ورجاله، محمد محمود حور (ص: ٤٢).

قال السيوطي ﵀: «والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية، والجواب على أدلة المخالفين، كالقرطبي »(١).

ثانيًا: نشأة التفسير الفقهي:

لما كانت دلالة النصوص القرآنية لا تدل أحيانًا بصورة قاطعة على بعض الأحكام الشرعية، وبيان السنة التي وردت عن النبي ﷺ ليس على درجة واحدة في الثبوت، بل هو متفاوت بين الصحة والضعف، كان الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ يجتهدون في فهم بعض الأحكام من الآيات والأحاديث، فحصل بينهم شيء من الاختلاف في الفهم، مثال ذلك في عدة المرأة الحامل المتوفى عنها زوجها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[البقرة: ٢٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق الآية: ٤].

فقد استند علي بن أبي طالب وابن عباس ﵄ إلى هاتين الآيتين في أنها تعتد بأبعد الأجلين « الوضع » أو « الأربعة أشهر وعشر ».

أما ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سلمة ﵃ فإنهم يرون أن عدتها الوضع؛ لأن آية الطلاق نزلت بعد آية البقرة فهي مخصصة لها، واستدلوا أيضًا بحديث سبيعة الأسلمية التي توفي عنها زوجها في حجة الوداع وهي حامل، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ - فَقَالَ لَهَا مَا لِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً، لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ، إِنَّكِ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ

---

(١) الإتقان (٢/١٩٠).

ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي)[١].

ثم تطور هذا الخلاف وتوسع في عهد التابعين، وكان هو نواة لاختلاف الفقهاء الذي نشأت عليه المذاهب الفقهية في آخر القرن الأول وبداية القرن الثاني، فسعى بعد ذلك أتباع كل مذهب فقهي إلى آيات الأحكام في القرآن يفردونها بالتأليف ويفسرونها حسب قواعدهم في استنباط الأحكام، وأصح هذه المذاهب من حيث المعتقد وسلامة أصول الاستنباط أربعة، وهي المشهورة والتي كثر أتباعها، وهي الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة، فسعى أصحاب كل مذهب لتفاسير آيات الأحكام حسب قواعد مذهبهم في الاستنباط غالبًا، وكثيرًا ما يختار المفسر رأي المذهب، وغلب في التفسير الجانب الفقهي حتى لا تكاد تجد بينها وبين كتب الفقه كبير فارق.

ثالثًا: المؤلفات في التفسير الفقهي:

تنوعت تفاسير آيات الأحكام حسب تنوع المذاهب الفقهية، وإليك بيان بعض هذه المؤلفات حسب المذاهب الفقهية المشهورة:

أولًا: من المذهب الحنفي:

١- تفسير أحكام القرآن: لأبي بكر الرازي، المعروف بالجصاص.

٢- التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية، مُلّاجيون.

ثانيًا: ومن المذهب المالكي:

١- تفسير أحكام القرآن: لأبي بكر بن العربي.

٢- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله القرطبي.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا ح رقم ٣٧٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها ح رقم ٢٨٠٦.

ثالثًا: ومن المذهب الشافعي:

١- أحكام القرآن: جمعه أبو بكر البيهقي من نصوص الإمام الشافعي في مجلد.

٢- أحكام القرآن: لأبي الحسن الطبري المعروف إلكيا الهراس.

٣- الإكليل في استنباط التنزيل: لجلال الدين السيوطي.

٤- القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز: أحمد بن يوسف الحلبي ((السمين)).

رابعًا: ومن المذهب الحنبلي:

١- أحكام القرآن لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء.

٢- آيات الأحكام لابن عادل الحنبلي.

وفي العصر الحديث ألف عدد من العلماء كتبًا في تفسير آيات الأحكام؛ ولكن في الغالب لا تلتزم أصول مذهب محدد، وإنما يرجحون منهج الدليل منها:

١- نيل المرام في تفسير آيات الأحكام: محمد صديق حسن في مجلد.

٢- روائع البيان تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني في مجلدين.

٣- تفسير آيات الأحكام: الذي لم ينص على مؤلفه وإنما أشرف على طبعه وتنقيحه محمد علي السايس.

٤- تفسير آيات الأحكام: مناع القطان.

٥- دراسات في تفسير بعض آيات الأحكام للدكتور كمال جودة أبو المعاطي.

٣- التفسير العلمي:

أولًا: تعريف التفسير العلمي:

هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية، ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر إعجاز القرآن، ويدل على مصدره وصلاحيته لكل

زمان ومكان [١].

وقيل هو: «الكشف عن معاني الآية في ضوء ما ثبت صحته من نظريات العلوم الكونية، التي لم يكن بالإمكان إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ» [٢].

فليس المراد بالتفسير العلمي التزام المنهج العلمي المعروف في التفسير، ولكن هو مصطلح حادث لتناول ما تضمنه القرآن في إشاراته عن العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية التجريبية كالطب والرياضيات والفلك ونحو ذلك، فهنالك فرق بين علمية التفسير، والتفسير العلمي.

ثانيًا: نشأة التفسير العلمي:

أرسل الله تعالى رسوله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، وأنزل معه هذا الكتاب الذي حوى كل حجة وبرهان، وأمر الله عباده بالنظر والتدبر للآيات المسطورة في كتابه، والمنظورة في كونه، فذاك قوله، وهذا فعله؛ لأنها دلائل على الحق لمن رزقه الله قلبًا سليمًا وعقلًا مستقيمًا، فعرض كثيرًا من الآيات التي تدل على وحدانيته كخلق السموات والأرض والإنسان والجن والملائكة، وأمره بالنظر في تكوين السحاب وسوقه ونزول المطر وإحياء الأرض الميتة، وأنواع النبات الخارج، وأمره بالنظر إلى الجبال والأنهار والبحار، بل أمره أن يمعن النظر في خلقه من نطفة إلى أن صيره خلقًا سويًا، وما في ذلك من سنن وآيات.

ومع تطور العلم، والاكتشافات الحديثة الضخمة جاء الكثير منها مصدقًا وموافقًا لما نطق به القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة عام، ولم يصادم جزئية من جزيئاته، مما

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي (٢/٥٤٩).

(٢) التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، للدكتور/ سليمان بن صالح القرعاوي (ص: ٥).

جعل هذا الكتاب في مكانة لم يشـــاركه فيها كتاب من قبله ولا من بعده، بما أظهر للعالمين إعجازه، وأنه من لدن حكيم خبير؛ ولذا يقرر كثير من الباحثين أن نشـــأة التفســير العلمي كانت مواكبة للنهضـــة العلمية في الدولة العباســية. وكانت البداية محـاولات قصـــد منهـا التوفيق بين آيات القرآن ومـا جـدَّ من العلوم في كثير من التخصصات[١]، ثم تطور إلى أن صار تفسيرًا علميًا له أسسه وقواعده ليواكب تطور العلوم في كل عصر.

وقد توسع بعض المفسرين في هذا النوع من الآيات وأولوها عنايتهم واهتمامهم، فأبرزوا في تفاسيرهم دقائق علمية عن الفلك ونظامه والكواكب وسيرها، وعن أسرار خلق الإنسان وأطواره، وعن المياه والبحار والأمطار، وعن النبات والحيوانات وغيرها، ينطلقون من دلالات القرآن الكريم ومعانيه الظاهرة والخفية، ويربطون ذلك بما توصل إليه العلم من اكتشافات، فنشأ من هنا ما يسمى بالتفسير العلمي.

ثالثًا: موقف العلماء من التفسير العلمي للآيات القرآنية:

انقســـم العلماء في حكم هذا التفســـير إلى مؤيد ومعارض، وإلى طائفة أخرى معتدلة، ولكل منهم حجته وبراهينه[٢].

أ- استدل المؤيدون للتفسير العلمي للقرآن الكريم بأدلة منها:

١- هـذه الآيات الكونيـة ورد ذكرهـا في القرآن كثيرًا وهي ممـا أمر الله بتـدبرهـا والاستفادة مما ذكر الله عنها، فهي محل للنظر والبحث والتأمل.

٢- في إبراز هذا النوع في التفسـير إظهار لوجه من وجوه الإعجاز التي تتناسب

---

(١) التفسير العلمي المعاصر، للدكتور/ سليمان بن صالح القرعاوي (ص: ٢٦).

(٢) يراجع كتاب اتجاهات التفســير في القرن الرابع عشــر للرومي (٢/٥٥٠ - ٦٠٤) فقد أطنب في تحقيق الموضوع.

مع العصر الحالي.

٣- إن هذا النوع من التفسير مما يملأ النفس إيمانًا بعظمة الله ﷻ وقدرته وسعة علمه وواسع حكمته، ويجعل في النفس يقينًا أن هذا القرآن من عند الله العزيز الحكيم.

ب – واستدل المعارضون للتفسير العلمي:

١-إن إعجاز القرآن ثابت، وهو غني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف الذي قد يذهب بإعجاز القرآن.

٢-إن الدعوة القرآنية إلى النظر في الكون والعلوم هي دعوة عامة إلى مواضع العظة والتفكر، وليست بدعوة إلى بيان دقائقها وكشف علومها، وهذه دعوى لا دليل عليها.

٣- إن التفسير العلمي مدعاة للزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالبًا محاولة الجمع بين موقفين، ويتوهم أنهما متلاقيان ولا لقاء، بمعنى لا يحالف النجاح كُلّ عملية من عمليات التوفيق خاصة وأن كثيرًا من نظريات العلم مؤقتة ومتغيرة ولا تظهر كلها دفعة واحدة، وهي مكتشفات قابلة للتغيير.

٤- إن تناول القرآن بهذا اللون من التفسير يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني الكريم.

الرأي الراجح:

إنه لا مانع من إيراد الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل الشك عند تناول النص القرآني، مع إدراك معنى النص وفهمه الفهم السليم الخالي من الشوائب والمؤثرات الخارجية، أو الميل والانحراف به لموافقة تلك الحقيقة العلمية، ولكن هذا كله وفق الضوابط والشروط التالية:

١ – عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسولﷺ، أو ما له حكم المرفوع؛ لأن النبي ﷺ أقواله معصـــومة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[النجم:٣]، وهو أعلم الناس بمراد الله في كلامه، ومهمته الأولى بيان القرآن الكريم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤].

٢– أن لا يتعارض التفسير العلمي مع أي دليل آخر ورد في الكتاب والسنة.

٣–موافقة اللغة العربية موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفســـر المعنى اللغوي؛ لأن القرآن الكريم لا بد أن يفهم وفق اللغة التي نزل عليها: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الزمر:٢٨]، ولا ينبغي أن نحمل النصوص ما لا تحتمل.

٤– أن يوافق سياق الآية بحيث لا يكون التفسير نافرًا عن السياق.

٥– أن تذكر هذه الحقائق وجهًا من وجوه التفســـير يســـعه مفهوم الآية ويوســـع معناها، ولا يتناقض مع ما ذكره السلف الصالح والعلماء في تفسيرها؛ لأن نصوص القرآن تقبل تأويلات كثيرة متنوعة غير متعارضة.

٦– ألا تطغى تلك العلوم على المقصـــد الأول من القرآن الكريم وهو الهداية، وألا تُذْكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوســـيع المدلول، وللاســـتشـــهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني، ذلك أن تفسير النص القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان

٧ – ألا يفســـر على نظريات علمية واهية، أو مازالت في فترة التخمين والدراســـة فتخضع آيات القرآن لها؛ بل لا بد أن يكون ذلك وفق الحقائق العلمية الثابتة؛ وذلك لأن الحقائق العلمية الثابتة التي أثبتتها الدراسات العلمية المتطورة لا تتعارض بحال مع حقائق القرآن؛ وإن عارضتها فلا ينبغي الالتفات إليها، وسيظهر الزمان فسادها؛ لأن

ما جاء في النظريات من حقائق يمكن أن تتغير وتتبدل؛ ولكن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٨ -أن تفسر تلك الحقائق من باب الإعجاز، وزيادة الإيمان، وبهدف إدراك الأمة عظمة القرآن، وأن الحقائق العلمية التي ذكرت في القرآن الكريم الأساس لذكرها خدمة قضية الإيمان والهداية، وبهدف تحفيز المسلم إلى حسن الانتفاع بقوى الكون المسخرة له.

٩- أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن وعظمته، ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون الذي سخره الله لنا انتفاعًا يعيد للأمة الإسلامية مجدها.

١٠ - ألا يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون الغيبيات[١].

رابعًا: فوائد التفسير العلمي:

وللتفسير العلمي فوائده؛ إذ من خلاله تظهر عظمة القرآن، و يبرز نوع جديد من أنواع الإعجاز تستطيع من خلاله استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وخصوصًا العلماء منهم، كما يدفع الأمة للنهوض والانتفاع بما سخره الله لنا، وهو يؤكد التوافق بين الدين والعلم بما يعمق الإيمان وغير ذلك من فوائد كثيرة يطول ذكرها.

خامسًا: أهم المؤلفات في التفسير العلمي:

١- التفسير الكبير الفخر الرازي

٢- الجواهر في تفسير القرآن الكريم طنطاوي جوهري

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (٥٦٩/١)، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي (٦٠٤/٢)، وإتقان البرهان في علوم القرآن ١٢٥/١ ـ ١٢٦، ودراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي، (ص:٢٨٩ ـ ٢٩٧)، ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم للدكتور نبيل محمد آل إسماعيل (ص:٤٥ -٤٥).

٣- كشف الأسرار النورانية القرآنية محمد بن أحمد الاسكندراني

٤- القرآن ينبوع العلوم والمعارف علي فكري

٥- الكون والإعجاز العلمي للقرآن د. منصور حسب النبي.

٦- التفسير العلمي للآيات الكونية حنفي أحمد.

٧- مع الطب في القرآن الكريم عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز.

وغيرها كثير.

٤- التفسير الاجتماعي:

أولًا: تعريف التفسير الاجتماعي:

هو التفسير الذي يعتني فيه المفسر بالآيات التي لها علاقة بالجوانب الاجتماعية، من أسرية واقتصادية وسياسية وغيرها، فيتوسع في شرحها وبيان هدايتها وحكمها، وتصحيح مسار الأمة وفق هداياتها.

ثانيًا: نشأة التفسير الاجتماعي:

حين نزل القرآن الكريم كان الناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، يعبدون الأصنام، ويئدون البنات، ويأكلون الربا، ويشربون الخمر ويلعبون الميسر، وتشتعل الحروب بينهم لسنوات لأتفه الأسباب، لا دين يوحدهم، ولا دولة سياسية تجمعهم، ولا مصالح اقتصادية تربط بينهم، القوي آكل والضعيف مأكول.

فلما أنزل الله كتابه الخالد الشافي أصلح عقيدتهم، وهذب أخلاقهم، ووحد صفوفهم، وأنار عقولهم، وقوَّم عاداتهم وتقاليدهم فأقر الصحيح وأبطل السقيم، فما هي إلا سنوات وتغير حالهم من أمة مستضعفة إلى أعظم أمة عرفت في تاريخ الدنيا علمًا وخلقًا وسلوكًا، فانتشرت الفضيلة، وعم الخير في الناس، وذلك من خلال ما التزموه من عقيدة وشريعة عالجت مشاكلهم الأسرية والسياسية والاجتماعية.

ولهذا اتجهت طائفة من المفسرين يعتنون بهذه الآيات، ويتوسعون في تفسيرها طالبين علاج مشكلات مجتمعاتهم وفق تلك المعالجة الربانية الأولى؛ ولذا توسعوا في شرح هذه الآيات وبيانها، فنشأ لون من ألوان التفسير ذو اهتمام اجتماعي في الإصلاح.

والمفسرون كلهم يتناولون هذه الآيات ويفسرونها إلا أن هذا الاتجاه من التفسير يطول فيه الوقوف، ويحاول الربط بين الآيات وما هو سائد في مجتمعهم مما هو مخالف له، فهو تفسير يربط بين الآيات وقضايا الإنسان وحاجاته الاجتماعية المعاصرة.

ثالثًا: أهم المؤلفات في التفسير الاجتماعي:

والمؤلفات التي سلكت هذا المسلك كثيرة منها:

١- تفسير المنار محمد رشيد رضا.

٢- تفسير المراغي أحمد مصطفى المراغي.

٣ - المصحف المفسر محمد فريد وجدي.

٤- تفسير القرآن الكريم محمود شلتوت.

٥- صفوة الآثار والمفاهيم عبد الرحمن بن محمد الدوسري.

٦- في ظلال القرآن سيد قطب.

٥ - التفسير الكلامي:

أولًا: تعريف التفسير الكلامي:

وهو الذي يعمد المفسر فيه إبراز مسائل الاعتقاد فروعها وجزيئاتها، ويحاول الرد على الفلاسفة وأهل المنطق، خاصة في مسائل التوحيد، وعصمة الأنبياء عليهم السلام، والعدل الإلهي، والإمامة، والمعاد، والهداية والضلال وعلاقتهما بحرّية واختيار

الإنسان، ورؤية الله بالعين المادّية وعلاقة ذلك بمسألة التجسيم والتشبيه.

ويؤخذ على هذا المنهج دخوله في متاهات، والخوض في المتشابهات، وتوسعه في مناقشات وتفريعات، وذكره لآراء واجتهادات لا يحتملها النص القرآني، بل أضعفت روح التفسير في المؤلفات التي تأثرت بهذا المنهج الكلامي.

ثانيًا: أهمّ التفاسير الكلامية:

١. متشابه القرآن، القاضي عبد الجبّار الهمداني المعتزلي.

٢. تنزيه القرآن عن المطاعن، عبد الجبّار المعتزلي.

٣. الكشّاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي.

٤. تأويلات القرآن، أبو منصور محمود الماتريدي.

٥. مفاتيح الغيب، للفخر الرازي

٦. تفسير التبيان، الشيخ أبو جعفر الطوسي.

ويمثل تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب) هذا الاتجاه بصورة جلية. فقد عرف الرازي بمناظراته وسعة باعه في علم الجدل والمناظرة والكلام، وقد ملأ تفسيره بالمباحث الكلامية، حتى يشعر القارئ في تفسيره أنه يقرأ في كتاب جدل ومناظرة وكلام لا كتاب تفسير؛ وهو يقرر مذهب الأشاعرة وآراءهم العقدية، وأحيانًا يخرج عليها، ويرد على المعتزلة وغيرهم بطريقة جدلية كلامية، ولا تكاد تمر بصفحات في الكتاب إلاّ ويذكر الرازي مبحثا كلاميا أو أصوليا، وتأخذ هذه الردود عدة صفحات، مما جعله يطيل في مباحث التفسير، ويخرج كثيرًا عن التفسير في استطرادات يضعف ارتباطها بالموضوع، فقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]. استغرق تفسيرها أربعا وثلاثين صفحة، أكثر بحوثها جانبية، وبعد هذا التطويل تجده لا يخرج رأي دقيق يحكم به، وكلامه في الاستعاذة أخذ أكثر من أربعين صفحة لكثرة ما ذكره من

تفريعات، وادخل فيه من مسائل عقلية ومجادلات كلامية، ورد من خلال شرحها على القدرية، والأمثلة في كتابه أكثر من أن تحصى.

٦- التفسير الإشاري:

أولًا: تعريف التفسير الإشاري:

وهو تأويل النص القرآني بغير ظاهره لإشارة تظهر للمفسر، دون إنكار لدلالة الظاهر، ويمكن الجمع بينه وبين الظاهر المراد أيضًا، والفرق بينه وبين التفسير الباطني المذموم أن التفسير الباطني يلغي الظاهر تمامًا، الذي يقصد من ورائه إلغاء الشريعة وتعطيل الأحكام، أما التفسير الإشاري فإنه يقرُّ بظاهر الآية ويضيف إليها المعنى الإشاري.

ومثاله: مثل فهم عمر بن الخطاب وابن عباس من سورة النصر بأنه إشارة إلى اقتراب أجل النبي ﷺ، وقد خفي هذا المعنى على باقي الصحابة رضي الله عنهم، لذلك كان التفسير الإشاري لا يدركه عامة المفسرين.

ثانيًا: شروط التفسير الإشاري المقبول:

١. ألا يعارض شرعًا ولا عقلًا.
٢. ألا يخالف ظاهر النص القرآني.
٣. ألا يدعى أن المراد هو الباطن وحده دون الظاهر، بل لا بد من المعنى الظاهر أولًا وإحكامه وتطبيقه.
٤. أن يصح على مقتضى الظاهر المقدر من لسان العرب، بحيث يجري على المقاصد العربية، ولا يكون تأويلًا لا تستسيغه بلاغة النظم وإعجازه.

ومع توفر هذه الشروط في التفسير الإشاري فلا يجب الأخذ وإلزام الغير به.

وممن تعرض للتفسير الإشاري الإمام الألوسي في تفسيره روح المعاني، وكذلك النيسابوري له إشارات قليلة إليه، والقشيري في كتابه ((لطائف الإشارات))، وممن غلب على تفسيره الجانب الإشاري سهل التستري في تفسيره ((تفسير القرآن العظيم)).

٧ – التفسير الباطني:

وهو تفسير القرآن الكريم بغير ظاهره بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ولا يمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد.

وهو منهج سلكه فلاسفة الصوفية كابن عربي بقصد الترويج لعقائدهم الباطلة على حساب القرآن الكريم، كما قال الذهبي رحمه الله: ((يأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمي إليه، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه على أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئًا اللهم إلّا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله))(١).

والحمد لله لا توجد لهم كتب في التفسير تستحق الدراسة، وإنما الذي وجد من ذلك نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربي، وكتاب الفتوحات المكية له، وكتاب الفصوص له أيضًا، كما يوجد بعض من ذلك في كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب(٢). ومنهج أهل السنة أن نصوص الوحي تحمل على ظاهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن بقصد نفي دلالة النص الظاهرة إلحاد في القرآن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت:٤٠]، وأما من

(١) التفسير والمفسرون للذهبي (١٢/٣).

(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، للرومي (١/ ٣٦٧).

يقول من المحققين بأن النصوص على ظواهرها وفيها إشارات خفية تنكشف لأرباب السلوك وهي لا تنافي ظاهر النص فليس هو من التفسير المذموم الذي حذر العلماء منه.

المبحث الثالث
أساليب التفسير

المطلب الأول: التفسير التحليلي.

المطلب الثاني: التفسير الإجمالي.

المطلب الثالث: التفسيرُ المقارن.

المطلب الرابع: التفسير الموضوعي.

مدخل:

القرآن الكريم مصـــدر الهداية التامة للتي هي أقوم في الدارين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: ١٥ – ١٦]، وقد ظلت الأمة تأخذ من هديه الذي لا تحيط به قوى العالمين في كل فترة، بما تيســـر لها من ذلك حســـب وسعهم وطاقتهم بصور شتى، وأساليب متنوعة، وتحاول إبراز ما فيه من علم وهدى للناس بما يقربهم إلى الخير ويبعدهم عن الشر، وقد كانت محاولات العلماء في استنباط معاني القرآن وتيسير فهمه تأخذ صورًا شتى، وتختلف من مفسر لآخر اختلافًا نوعيا حسب نوع المسلك والأسلوب الذي ينتهجه المفسر، ويدخل من خلاله إلى نصوص القرآن الوارفة الظلال في المعاني والدلالة، ولكلِّ أسلوبٍ من التفسير منهجه وأدواته، وإن كان مجال البحث واحدًا وهو القرآن الكريم، وأهداف كل باحث واحدة وهو السعي لفهم القرآن والاهتداء بهديه على قدر الطاقة والوسع؛ لأن القرآن عجائبه لا تنقضي، وفوائده لا تنتهي.

كما أن الاختلاف في أساليب التفسير لا يعدو كونه اختلاف تنوع يعضد بعضه بعضا؛ لأن المفسر قد لا يستغني عن أسلوب من التفسير وهو ينتهج أسلوبًا آخر، فهو يفسر في التفسير المقارن أو الموضوعي قد لا يستغني عن التفسير التحليلي، والذي يكتب في التفسير التحليلي تجده بحاجة كبيرة أحيانًا للتفسير الموضوعي أو المقارن، فكل أساليب التفاسير متداخلة متساندة لا يستغني المفسر عن الأساليب

الأخرى أثناء تفسيره بأسلوب منها [١]؛ ولكن هذه الأساليب التي سوف نتحدث عنها، يميز بينها بالغالب الأعم في وجهة المفسر، سواء أكان ذلك في آيات، أو سورة، أو القرآن كاملًا، وقد قسم العلماء أساليب التفسير في عمومه حسب الاستقراء إلي أربعة أساليب هي:

١. التفسير التحليلي.

٢. التفسير الإجمالي.

٣. التفسير المقارن.

٤. التفسير الموضوعي.

وإليك الحديث عن كل أسلوب من هذه الأساليب في المطالب الآتية.

---

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم (ص: ٥٢ ـ ٥٤).

المطلب الأول

التفسير التحليلي

أولًا: تعريف التفسير التحليلي:

وهو الذي يسير فيه المفسر مع سور القرآن سورةً سورة، ومع آياته آيةً آية، حسب ترتيب المصحف، سواء تناول جملة من الآيات متتابعة، أو سورة كاملة، أو القرآن كله، ويفصل في بيان ما يتعلق بكل آية من معاني ألفاظها، ووجوه بلاغتها، وأسباب نزولها، وأوجه قراءتها، وتفاصيل أحكامها ومعانيها، وما يستفاد منها، وغير ذلك من موضوعات عديدة تجدها في المؤلفات من هذا النوع من التفسير [١].

وعرفه الأستاذ الدكتور زاهر الألمعي بقوله: «التفسير الذي يقصد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف ثم يفسرها بتحليل وتفصيل، كاشفًا عن كل ما يريد منها من معان وأوجه، فيحلل اللفظ من جهة اللغة العربية وأوجه استعمالاته وما يراد منها مما يناسب المقام، ويبين ما في الآية من الفصاحة والبيان وأوجه الإعجاز، ومناسبة الآية للآية، والسورة للسورة، وبيان سبب النزول إن وجد، ثم بيان المعنى ومقاصد الشريعة من وراء هذا النص القرآني، وما يستخلص من النص من فوائد وعبر وأحكام»[٢].

ويسمى هذا الأسلوب كذلك من التفسير بالتفسير التفصيلي.

ولما كانت أوجه التفسير التحليلي كثيرة ومتنوعة لا تجتمع في كتاب واحدة، لأن غالب من فسروا اكتفوا ببعض الأوجه في التفسير التحليلي.

---

(١) انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور/ فهد الرومي (ص: ٥٧).

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للدكتور/ زاهر بن عواض الألمعي (ص: ١٨).

ثانيًا: مميزات التفسير التحليلي:

يتميز هذا النوع من التفسير بمميزات عديدة من أبرزها:

١. أنه أقدم أنواع التفسير، فقد كان التفسير في نشأته الأولى يتناول الآيات المتتابعة ولا يتجاوزها المفسر إلى غيرها حتى يعرف معناها، كما قال عبد الله بن مسعود: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)، وهي الطريقة التي تلقى التابعون بها التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

٢. أن هذا النوع هو الغالب على المؤلفات في التفسير، وأشهر التفاسير وأهمها قديمًا وحديثًا ألفت على هذا النوع من التفسير كتفسير الطبري، والخازن، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

٣. يتفاوت المفسرون في هذا النوع من التفسير بين الإيجاز والإطناب، فمن التفاسير ما جاء في مجلد واحد بما فيه النص القرآني الكريم كله، ومنها ما جاء في أكثر من ثلاثين مجلدًا، وكل كتاب نجده يناسب لبعض المستويات، كما هو يلبي رغبة بعض أهل الاختصاص المعين.

٤. هذا النوع من التفسير هو الأساس لكل الأنواع الأخرى «الإجمالي، والمقارن، والموضوعي»؛ لأن المفسر للقرآن تفسيرًا إجماليًا لا يستطيع التعبير عن المعاني بصورة إجمالية ما لم يلم بدلالة الآية أو السورة بصورة تفصيلية، ثم يعبر عنها بصورة إجمالية تتناسب مع مدارك من يخاطبهم، وكذلك بالنسبة لمن يريد تفسير الآيات تفسيرًا مقارنًا لا بد أن يحيط بأقوال المفسرين وبدلالة الآيات تفصيلًا ليقارن ويرجح بينها حسب قربها من دلالة النص أو بعدها، والذي يكتب في

التفسير الموضوعي لا يستغني عن التفسير التحليلي ليربط بين دلالة الآيات في الموضوع الواحد.

٥. يظهر التباين جليًا بين المفسرين في هذا النوع كذلك من حيث الاتجاهات، والمناهج، والمصادر، فمنهم من التزم في تفسيره بالتفسير بالمأثور والنقل عن أئمة السلف، والالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة، ومنهم من التزم بمناهج المذاهب الأخرى، ومنهم من أفسح لنفسه فتوسع في التاريخ والقصص والإسرائيليات، ومنهم من اعتنى بالبلاغة ووجوه البيان، ومنهم من توسع كثيرًا في آيات الأحكام، ومنهم من اعتنى بالآيات الكونية والتفسير العلمي، ومنهم من استطرد في المسائل النحوية، ومنهم من توسع في علم الكلام والفلسفة ومصطلحات الصوفية... وغير ذلك.

وهذا اللون من التفسير وإن جمع بين مناهج عدَّة، وجاء في صور متنوعة يسمى «التفسير التحليلي»، أو «التفسير التفصيلي » الذي يعتمد على وحدة الآية، أو السورة [(١)].

ثالثًا: أهم المؤلفات في التفسير التحليلي:

المؤلفات في التفسير التحليلي قد تكون من المؤلفات في التفسير بالمأثور، وقد تكون من التفسير بالرأي، وهي من حيث الكم قد أخذت صورًا ثلاثًا:

الأولى: تفاسير مختصرة: كتفسير أبي الليث السمرقندي، وأبي مظفر السمعاني، والبيضاوي، وابن جُزيّ الغرناطي، والنسفي، وغيرها.

والثانية: تفاسير متوسطة: كتفسير البغوي، والزمخشري، وابن عطية، وأبي حيان الأندلسي، وابن كثير، وأبي السعود، والشوكاني، والقاسمي، وغيرها.

(١) انظر: التفسير والتأويل في القرآن الكريم، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:١٣).

والثالثة تفاسير موسعة: كتفسير الطبري، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرها.

وكل هذه التفاسير مع تباين حجمها ومناهجها واتجاهاتها تصنف ضمن مكتبة التفسير التحليلي.

المطلب الثاني
التفسير الإجمالي

أولًا: تعريف التفسير الإجمالي:

هو: التفسير الذي يعمد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف فيبين معاني الآيات إجمالًا، مبرزًا مقاصدها، موضحًا معانيها، مظهرًا مراميها، ويجعل بعض «ألفاظ» الآيات رابطًا بين النص وتفسيره، فيورد بين الفينة والأخرى لفظًا من ألفاظ النص القرآني لإشعار القارئ أو السامع بأنه لم يبعد في تفسيره عن سياق النص القرآني، ولم يجانب ألفاظه وعباراته، ومشعرًا بما انتهى إليه في تفسيره من النص»[(١)].

وقيل هو: «التفسير الذي يكتفي المفسِّر فيه بعرض المعنى للآية أو الآيات عرضًا إجماليًا موجزًا، دون توسع أو تفصيل»[(٢)]. فهو يوضح المعنى جملة دون النظر إليه مفصلًا لفظةً لفظة كما في التفسير التحليلي.

والتفسير الإجمالي أشبه ما يكون بـ «الترجمة المعنوية» التي لا يلتزم المترجم فيها بالألفاظ وإنما يقصد إلى بيان المعنى العام، وقد يضيف إليه ما تدعو الحاجة إليه كسبب النزول ونحو ذلك.

وأكثر من يستعمل هذا اللون من التفسير المتحدثون في وسائل الإعلام من إذاعة وتلفاز لمناسبته لمدارك عامة الناس.

ثانيًا: ملامح التفسير الإجمالي:

للتفسير الإجمالي ملامح عامة تميزه عن التفسير التحليلي وهي:

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرآن الرابع عشر للدكتور فهد الرومي (٣/٨٦٢).

(٢) انظر: التفسير والتأويل في القرآن الكريم للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص: ١٣).

١. تفسير القرآن حسب ترتيب تلاوته في شرح مبسط يمكن أن يفهمه المتخصص وغيره دون الدخول في تفاصيل.

٢. تكون غاية المفسر إيصال المعنى العام إلى الأفهام من أقصر طريق، وإبراز ما تهدف إليه الآيات من مقاصد وحكم سامية.

٤. تكون صياغته بألفاظ في متناول الجمهور ولا تعلو على أفهامهم.

٥. يركز فيه المفسر على الدلالات الأساسية التي تهدي إليها النصوص القرآنية، ولا يميل فيه إلى جوانب الاستنباط أو ذكر أوجه الاختلاف الموجودة في المعنى.

ثالثًا: أهم المؤلفات في التفسير الإجمالي:

ومن أمثلة المؤلفات في هذا النوع من التفسير:

١. تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي.

٢. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

٣. التفسير الواضح، للدكتور محمد محمود حجازي.

٤. التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري.

٥. صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين مخلوف.

٦. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر الجزائري.

٧. التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بالمدينة النبوية، وهو من الأعمال الجماعية المتميزة، خاصة في طبعته الثانية المزيدة والمنقحة من وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد.

٨. التفسير المختصر، الصادر عن مركز تفسير بالرياض.

المطلب الثالث

التفسيرُ المقارن

أولًا: تعريف التفسير المقارن:

اصطلاحًا هو: «التفسير الذي يعمد فيه المفسر أو الباحث إلى الآية أو الآيات فيجمع ما حول موضوعها من نصوص، سواء أكانت نصوصًا قرآنية أخرى، أم نصوصًا نبوية، أو أقوالًا للصحابة، أو للتابعين، أو للمفسرين، أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يُقارن بين هذه النصوص، ويوازن بين الآراء ويستعرض الأدلة، ويبين الراجح، وينقض المرجوح»[١].

ويمكن تعريفه: «بالدراسات التفسيرية التي تعني بدراسة آراء المفسرين وأقوالهم في معنى الآية دراسة علمية، لاعتماد الرأي الراجح وفق أدلة معتبرة».

وبهذا يظهر أن مجال هذا الأسلوب أوسع، وميدانه أفسح.

ثانيًا: نشأة التفسير المقارن:

التفسير المقارن لازم نشأة التفسير التحليلي، ونشأ في حضنه؛ وذلك لأن اختلاف الآراء وتباين المفاهيم حول معاني الآيات استمر منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا، نسبة لتنوع المصادر والمناهج والاتجاهات بين المفسرين، وتفاوت العقول والمدارك، مما اقتضى عرض تلك الأقوال المتباينة، والنظر فيها ومناقشتها والترجيح بينها ضمن التفسير التحليل، الذي قد يكتفي المفسر فيه باختيار ما يراه الراجح، وقد يستعرض بعض أو جميع الأقوال ويناقشها ويرجح بينها.

والتفسير المقارن كما لازم التفسير التحليلي في فترة المشافهة، لازمه كذلك في

---

(١) بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور/ فهد الرومي (ص: ٦٠)، وانظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور أحمد الكومي (ص: ١٤).

فترة التدوين وكان جزءًا منه، ودوِّن ضمن مؤلفاته، ولم ينفصل عنه في التأليف، فنجد مثلًا تفسير ابن جرير الطبري في أثناء تناوله للتفسير التحليلي، يستخدم التفسير المقارن في استعراض الأقوال ومناقشتها، قال السيوطي وهو يذكر مزايا تفسير ابن جرير فيقول: « فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض »[١]، ومن يقرأ في كتابه يجد عشرات الأمثلة، وكذلك كتاب أحكام القرآن لابن العربي، والمحرر الوجيز لابن عطية، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وغيرها كثير.

وقد ظهرت في الدراسات الحديثة مؤلفات كثيرة خاصة بالتفسير المقارن، تهتم بترجيحات، أو اختيارات، أو تعقبات عالم معين في التفسير، أو تقارن بين تفسير وآخر وغيرها.

ثالثًا: أوجه التفسير المقارن:

للتفسير المقارن أوجه متعددة للمقارنة منها:

١. المقارنة بين نص قرآني ونص قرآني آخر اتفاقًا، أو ظاهرها التعارض والاختلاف، ومن هذا النوع تأويل مشكل القرآن، والمؤلفات فيه معلومة.

٢. المقارنة بين نص قرآني وحديث نبوي يتفق مع النص القرآني، أو ظاهره الاختلاف كذلك [٢]، ويبحث ذلك في مؤلفات مشكل القرآن، ومشكل الحديث أيضًا.

٣. وقد تكون المقارنة بين نص قرآني، وبين نص في التوراة أو الإنجيل لإظهار فضل القرآن وميزته، وأهميته على الكتب السابقة، وكشف وجوه التحريف والتبديل فيها، وتوضيح المعنى القرآني وجلاء بعض معانيه وتكملة المشهد الذي يتناوله

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٥٩).

(٢) انظر: دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور/ أحمد جمال العمري (ص: ٤٦).

النص القرآني فيما وقع فيه اتفاق بين القرآن والكتب الســـابقة. والمؤلفات على هذا الأسلوب أيضًا كثيرة، وأغلبها حديث، مثل:

أ/ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم لموريس بوكاي.

ب/ محمد في التوراة والإنجيل والقرآن للأستاذ إبراهيم خليل.

٤. وقد تكون المقارنة بين أقوال المفسرين ومناهجهم حيث يستطلع آراء المفسرين في الآية الواحدة مهما اختلفت مشـــاربهم، وتعددت مذاهبهم، ويذكر أدلة كل قول وحججه، ويناقش الأقوال وينقد الأدلة، ويرجح ما يراه راجحًا ويبطل ما يراه باطلًا، كما يقارن بين مناهجهم في تفســير الآية بين مَنْ أكثرَ في الإعراب، وبين من توسع في استنباط الأحكام وهكذا.

ويعتبر ابن جرير الطبري هو من أقدم العلماء الذين سـلكوا هذا المسـلك، وهذا النوع من التفسير يسلكه الباحثون في الدراسات العليا في تقويم مناهج المفسرين، من حيث تحرير أقوالهم، أو محاولة اكتشاف ما فيها من جِدَّة وإضافة، وما فيها من تقليد ومتابعة، وما عليها من مآخذ وسلبيات.

رابعًا: أهمية التفسير المقارن وفوائده:

١. الوصـــول إلى الحق، والتعبد لله بالقول الراجح بعد اعتماده، ورد القول المرجوح والضعيف.

٢. تنقية التفســير من الأقوال الشـــاذة، والآراء الباطلة، والاتجاهات المنحرفة التي لا تستند على صحيح المنقول ولا صريح المعقول.

٣. التدرب على التعامل مع أقوال المفســرين، ومعرفة أوجه الاســتدلال، وأســباب الاختلاف، وكيفية التعامل معه.

٤. الوقوف على أوجه التماثل والتباين بين أقوال المفســـرين، وما تميز به كل واحد

منهم من حيث الجمع والدراسة، والدقة في الترجيح والاختيار، والقيمة التفسيرية لأقواله من حيث القوة والضعف.

٥. بناء الملكة التفسيرية القائمة على جمع الأدلة ودراستها، والترجيح بينها وفق الأصول والقواعد والضوابط التي وضعها العلماء، مع التدرب على الموضوعية والجدية والصبر في الجمع والدراسة الذي هو نهج العلماء.

٦. التزود بعلوم الآلة التي لا بد منها للمفسر، حتى يستطيع جمع الأدلة ومقارنتها وفحصها والترجيح بينها، من قراءات، وأحاديث، ولغة، وبلاغة وأصول وقواعد، وغيرها؛ لأن الدراسات المقارنة تتطلب هذه العلوم.

٧. تقوية القدرات العقلية لدى الباحثين في علم التفسير، من خلال القدرة على التمييز بين الأقوال، واكتشاف أوجه التباين بينها في الاستدلال، وملاحظة مواضع الاتفاق والاختلاف، والقدرة على اكتشاف مواضع القوة والضعف في أوجه الاستدلال، كل ذلك وغيره يتطلب ملكات عقلية عالية [١]، وهو آخر ما ينتهي إليه المفسر، وتظهر من خلاله قدراته وملكاته التفسيرية في إنزال علوم القرآن وقواعد التفسير وحسن توظيفهما في الوصول للمعنى.

(١) انظر: التفسير المقارن دراسة تأصيلية، للدكتور مصطفى إبراهيم المشني، بحث علمي منشور في مجلة الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية، العدد السادس والعشرون، ربيع الأول ١٤٢٧هـ - إبريل ٢٠٠٦م.

المطلب الرابع
التفسير الموضوعي

أولًا: تعريف التفسير الموضوعي:

وهو أسلوب لا يفسر فيه صاحبه الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف، بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد أو مصطلح قرآني واحد فيفسرها في سورة واحدة أو سور متعددة أو من خلال جميع القرآن الكريم من أجل إبراز هدايات القرآن حول هذا الموضوع.

ولذا فإن التفسير الموضوعي هو: جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، أو مصطلح واحد، ثم يفسرها مجتمعة بهدف معالجة الموضوع أو المصطلح من حيث دلالة الآيات أو السور عليه، واستنباط المعاني والحكم من الآيات وفق ما تهدف إليه من حيث الموضوع أو المصطلح. وسمي بالتفسير الموضوعي لوحدة الموضوع الذي يعالجه.

وقيل هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[(١)].

ثانيًا: أبرز الفروق بين التفسير التحليلي والموضوعي:

١- التفسير التحليلي مقصد المفسر بيان معاني الآية أو الآيات في ضوء موضعها من السورة، ومقصد المفسر في التفسير الموضوعي بيان معاني الآيات في ضوء موضوعها، بغية الكشف عن أوجه الترابط بين معانيها وهي مجتمعة للوصول إلى هدايات القرآن الشافية حول الموضوع أو المصطلح المحدد، فالمفسر يتجاوز الآية في موضعها إلى جمعها مع مثيلاتها في موضوعها.

---

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم، (ص: ١٦)، والمدخل في التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد (ص: ٢٠) ودراسات في التفسير الموضوعي، للألمعي (ص: ٧).

٢-المفسر في التفسير التحليلي يلتزم ترتيب الآيات في السورة غالبًا، والمفسر في التفسير الموضوعي لا يلتزم بترتيب الآيات في السورة أو القرآن، وإنما يرتبها حسب ما يخدم الموضوع في عناصره المتنوعة لبيان هدايات القرآن المتكاملة في الموضوع، مع السعي لإبراز ما فيه من شمولية، ودقة وتماسك في صورة يحار فيها العقل، ويتجاوز حدود الطاقة البشرية في عرض ومعالجة الموضوعات التي تشغل الفكر والنفس الإنسانية.

٣- التفسير التحليلي له منهجه وأسلوبه في الكتابة والمعالجة، والتفسير الموضوعي له أسلوب آخر مختلف من حيث الجمع والاستقراء التام للآيات، والبناء والترتيب للموضوع، وطريقة الكتابة والمعالجة وغيرها، وهو أمر تفرضه نوعية هذه الدراسة.

٤-التفسير الموضوعي لا يستغني بحال من التفسير التحليلي، لأن تكوين فكرة الموضوع ومحاولة الربط بين الآيات يتطلب فهم معاني كل آية على حدة بصورة تفصيلية، لأن محاولات الربط الموضوعي تتطلب عمق الفهم والتحليل، والتفسير الموضوعي بغير التفسير التحليلي لا تعد الكتابة فيه نوعًا من الدراسات القرآنية، بل هي أقرب للخطاب الدعوي، والدراسات الثقافية.

٥- بيان الآية في موضعها حسب السياق الذي وردت فيه لون من ألوان الإعجاز، وهذه مهمة يكشف عنها التفسير التحليلي، وجمع الآيات مع بعضها في وحدة موضوعية متكاملة وجهة أخرى من أوجه هذا الإعجاز يكشف عنه التفسير الموضوعي، والمفسر في كل لون من ألوان التفسير له اهتمامه بهذا أو ذاك للوصول لهدايات القرآن، وإبراز أوجه إعجازه غير المتناهية.

ثالثًا: نشأة التفسير الموضوعي:

قد نجد إشارات في اتجاه التفسير الموضوعي منذ عهد النبي ﷺ، وكذلك نجد له

بدايات في عهد الصحابة ﭫ والتابعين حيث وردت عنهم عبارات تدل على التتبع والاستقراء للموضوع الواحد في القرآن الكريم كانت حاضرة عندهم، فقد ورد عن ابن عباس ﭭ قوله: «الصبر على ثلاثة أوجه: صبر على الطاعات، وصبر عن المحرمات، وصبر على المصائب»(١)، وهو لم يقل هذا إلا بعد التتبع والجمع والاستقراء.

وفي كل عصر نجد ملمحًا منه بارزًا عند علماء التفسير وعلوم القرآن من خلال جمع أدلة الموضوع الواحد ومحاولة التوفيق بينها، أو من خلال الكتابة عن موضوع قرآني واحد؛ إلا أنه كمصطلح علمي له هيئته وضوابطه وشروطه، ظهر واشتهر في القرن الرابع عشر الهجري، وأول ما أطلق هذا المصطلح كان في كلية أصول الدين جامعة الأزهر، حين قررت هذه المادة على طلاب الدراسات العليا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وقد أخذت بوادر هذا النوع من التفسير عند السلف صورًا متعددة، حيث تجاوز جهدهم فيها بيان الآية في موضعها إلى جهد أقرب إلى الموضوع أسهم في بلورة التفسير الموضوعي، منها:

١- **تفسير القرآن بالقرآن:** جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، وبيان بعضها ببعض، ومحاولة الربط بينها، هو خطوة مهمة من خطوات التفسير الموضوعي، بل هي أعلى درجات التفسير الموضوعي وأعظمها ثمرة وأكثرها فضلًا.

وكان أسبق الناس إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد كان يفسر لأصحابه القرآن بالقرآن، والأمثلة على ذلك كثيرة وقد سبق بيانها، وأدرك الصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد كانوا يجمعون الآيات المتشابهة ويفسرون بعضها ببعض، فإن أشكل عليهم تفسيرها رجعوا إلى الرسول ﷺ فبينه لهم، مع ملاحظة أن السلف وعلماء التفسير كانوا يفعلون ذلك من باب تفسير القرآن بالقرآن، وفي التفسير الموضوعي يكون رد

(١) جامع البيان، لابن جرير الطبري (١١/ ٢٣١).

الآية للآية من باب بيان المعنى من جهة، ومن باب تكوين وحدة موضوعية واحدة من جهة أخرى، فهما يلتقيان في جمع الآيات ذات الصلة في موضع واحد، ويختلفان في أهداف البيان، فالأول غايته بيان الآية في موضعها، والثاني هدفه بيان الموضوع الذي يهدف لمعالجته، مع ملاحظة أن هنالك آيات في القرآن الكريم لا تدرك بصورة سليمة، وتفهم بصورة دقيقة؛ إلا إذا جمعنا جميع الآيات التي وردت في موضوعها ثم تتم دراستها، كآيات المواريث، وآيات عدة المطلقة، فقد بينت آية البقرة أن عدة المطلقة ثلاثة قروء قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، ثم جاءت سورة الأحزاب فبينت بأن هنالك مطلقة ليست لها عدة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب:٤٩]، ثم جاءت آية أخرى فبينت حكم اليائسة من المحيض، والصغيرة التي لم تحض، والحامل فقال تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾[الطلاق:٤]، فلا يمكن التوصل لفهم سليم إلا من خلال دراسة موضوعية للآيات التي جاءت في عدة المطلقة.

٢- **تفسير آيات الأحكام**: فقد اتجهت طائفة من قدامى المفسرين إلى تتبع آيات الأحكام الفقهية في القرآن الكريم دون غيرها وتفسيرها على هذا النحو، ومن أشهر المؤلفات في ذلك:

- أحكام القرآن للجصاص.
- أحكام القرآن لابن العربي.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام لمحمد صديق حسن وغيرها.

ولا شك أن هذا لون من ألوان التفسير الموضوعي؛ ولكنه هو متجه في غرضه لبيان المعنى الموضعي، وليس بغرض البناء الموضوعي.

٣- **الأشباه والنظائر**: ويقوم فيه المفسر بتتبع كلمة قرآنية واحدة في القرآن الكريم وبيان معناها في كل موضع ومن ثم معرفة استعمالات القرآن الكريم لها ولدلالاتها المختلفة.

ومن أشهر المؤلفات في هذا:

- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: مقاتل بن سليمان.
- التصاريف: يحي بن سلام
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز أبادي.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي.
- كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر: لابن العماد.
- الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها: الثعالبي.
- الأشباه والنظائر، للدمغاني

والغالب على هذا اللون من التفسير الجانب اللغوي، إذ إنه يعتني بالكلمات التي يتحد لفظها ويختلف معناها حسب استعمالها، ولا شك أن هذا لون من ألوان التفسير الموضوعي.

٤- **الدراسات التفسيرية**: ولم تقتصر جهود العلماء السابقين على الجوانب اللغوية للكلمات القرآنية بل جمعوا الآيات التي تشترك في موضوع واحد، أو قضية واحدة كالنسخ، والقسم، والمشكل، والأمثال وغيرها فجمعوها ثم تناولوها من الجانب المراد.

والمؤلفات على هذا النحو كثيرة منها:

- الناسخ والمنسوخ: أبو عبيد القاسم بن سلام.
- تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة.
- أمثال القرآن: للماوردي
- التبيان في أقسام القرآن: لابن القيم.
- مجاز القرآن: للعز بن عبد السلام

وبهذا يظهر لنا ــ يقينًا ــ أن التفسير الموضوعي وإن تأخرت تسميته بهذا الاسم فإنه من علوم السابقين، ومن مبتكراتهم.

ولا شك أن المؤلفات في التفسير الموضوعي قد كثرت في العصر الحديث، وأصبحت المكتبة القرآنية تذخر بالمؤلفات فيه فهو ميدان خصب للباحثين.

رابعًا: أنواع التفسير الموضوعي:

هنالك ثلاثة أنواع بارزة في التفسير الموضوعي، وقد تندرج تحتها أنواع أخرى، وهي على النحو الآتي:

النوع الأول: التفسير الموضوعي للمصطلحات القرآنية:

وهو: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم كثر ورودها وصار لها مصطلح معين ثابت نحو: «اليتيم في القرآن الكريم»، ثم يقوم بجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، مع ملاحظة مشتقاتها في اللغة، ثم يقوم ببيان معانيها واستنباط دلالاتها، واستخراج عناصرها، والكشف عن استعمالات القرآن الكريم لها، ومحاولة الربط بينها بجامع الموضوع الذي تتحدث عنه.

وقد اهتمت بهذا الموضوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر إلا أنها وقفت عند

حد بيان دلالة الكلمة في موضوعها من غير ربط بين مواضع ورودها واستعمالاتها في كل موضع، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة ((الدلالة اللفظية)). أما المعاصرون فقد أضافوا الدلالة الموضوعية بتتبع اللفظة في مواضع ورودها في القرآن مع السعي للربط بين دلالاتها في مواضع ورودها المختلفة، ومعالجتها وفق مصطلحها القرآني.

ثم اتسع هذا اللون من التفسير فتتبع المفسرون الكلمة وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع في وحدة موضوعية واحدة، وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة، وألوانًا من البلاغة، ووجوهًا من الإعجاز القرآني، واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك، فاللفظة القرآنية ذات دلالات وإشارات عجيبة في الوضع الذي وردت فيه من الآية، وذات دلالات أعجب عند جمعها مع نظائرها في القرآن الكريم ومحاولة الربط بينها في دراسة تتجاوز المصلح إلى جوانب الموضوع.

ومن المؤلفات على هذا النوع من التفسير:

- كلمة الحق في القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الرحمن الراوي.
- العهد والميثاق في القرآن الكريم، للدكتور ناصر العمر.
- الأمة في دلالتها العربية والقرآنية للدكتور أحمد حسن فرحان.
- الحمد في القرآن الكريم للدكتور محمد جميل غازي.
- تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم "الحس، والعقل، والقلب، واللسان، والفؤاد" للدكتور محمد الشرقاوي.
- الصبر في القرآن الكريم للدكتور يوسف القرضاوي.
- العفو في القرآن الكريم، مهدي علام.
- التفسير والتأويل في القرآن الكريم، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي.

النوع الثاني: التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية:

هو: أن يتتبع المفسر آيات الموضوع الواحد بمختلف صيغها ومفرداتها التي تدل عليه أو تشير له، ثم يستخرج معانيها ودلالاتها في معالجة الموضوع الذي تتحدث عنه.

وقيل: هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظًا أو حكمًا وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية»(١).

والمفسر على هذا النوع يجعل همه الموضوع ذاته وما يؤدي إليه فلا يشغل نفسه بذكر القراءات ووجوه الإعراب، وصور البلاغة إلا بمقدار صلتها بالموضوع وما تخدم منه.

وهذا اللون هو أشمل من موضوع المصطلحات القرآنية؛ لأن القرآن يتحدث عن الموضوع الواحد بمفردات ومصطلحات متعددة ومتنوعة، وهو كذلك أشهر أنواع التفسير الموضوعي، وأكثرها تأليفًا ودراسة، وإذا أطلق مصطلح التفسير الموضوعي فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه، وهو موضع اتفاق بين الباحثين.

والمؤلفات فيه كثيرة ومتعددة قديمًا وحديثًا؛ بل إن الكتب التي تتناول «إعجاز القرآن» أو « الناسخ والمنسوخ » أو « أحكام القرآن » أو «أمثال القرآن أو قصص القرآن » أو « جدل القرآن » أو «القسم في القرآن » أو غير ذلك ما هي إلا نوع من أنواع هذا التفسير في مراحله الأولية.

أما في العصر الحديث فقد أضيفت إلى هذه العلوم موضوعات اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك ومنها:

- آيات الجهاد في القرآن الكريم: كامل سلامة الدقس.

---

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د. زاهر بن عواض الألمعي (ص: ٩).

- المال في القرآن: محمود غريب.
- دستور الأخلاق في القرآن د. محمد عبد الله دراز.
- القرآن والطب: محمد وصفي.
- الأسس العسكرية في القرآن: أ.د. طه عابدين طه.

وموضـــوعات أخرى كثيرة، ولكن مما ينبغي التنبه له أن تناول القرآن لموضـــوعاته كما اختلف عددًا تباين كمًا، فهنالك موضـــوعات تكون قد ذكرت مرة واحدة وفي سورة واحدة كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين والفيل، ومنها ما ذكر عدة مرات في عدد من السور، وهذا كثير.

النوع الثالث: التفسير الموضوعي للسور القرآنية:

هو: تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة، ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها.

وهذا النوع من الدراسة يهتم بالموضوع الواحد في السورة دون سائر القرآن، وهذا النوع يهتم بالموضوعات التي كثر عرضها في القرآن كموضوع الوحدانية، وبرز بصورة كبيرة في سورة معينة كسورة الأنعام مثلًا، أو يهتم بالموضوع الواحد في القرآن الكريم الذي عرض في سورة واحدة، كقصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة، وأصحاب الجنتين في الكهف، ووصية لقمان في سورة لقمان وغيرها من موضوعات تفيض بالدلالات الإيمانية والتربوية وغيرها مما يصلح أن يفرد بالدراسة.

وهنالك نوع آخر في الدراسة، وهو أن يفرد الباحث السورة القرآنية بدراسة خاصة، ويمعن النظر فيها بغية الوصول لبيان الوحدة الموضوعية للسورة، وكيف عالجت موضوعها من خلال محاورها المتنوعة، ويقدمها للقارئ في وحدة موضوعية متكاملة.

وهذا النوع يعتبر من الدراسات العميقة للسور لأن الباحث يقف مع آيات السورة للكشف عن موضوعاتها، وموضوعها البارز الذي تخدمه جميع الآيات والموضوعات.

ومن المعلوم أن لكل سورة من السور القرآنية خصائصها المستقلة، وموضوعاتها البارزة، وهدفها أو أهدافها [(١)] التي ترمي إلى إيضاحه وبيانه، وإدراك موضوع السورة وهدفها العام يكشف للباحث معاني دقيقة ومناسبات لطيفة وصورًا بليغة، وهذا النوع من الدراسة يختلف عن الدراسات الموضوعية من عدة نقاط من أبرزها:

١- **الاختلاف في الانطلاق لفكرة الموضوع:** ففي الدراسات الموضوعية ينطلق الباحث من فكرة الموضوع الواضح عنده في عنوانه ليدرسه من خلال القرآن، وفي الوحدة الموضوعية ينطلق من دراسة السورة ليصل إلى موضوعها المجهول عنده في بداية الدراسة.

٢- **الاختلاف طرق الدراسة وخطواتها الإجرائية:** ففي الدراسات الموضوعية يجمع آيات الموضوع ويبني منها دراسته الموضوعية، وفق منهجية الدراسات الموضوعية، وفي الوحدة الموضوعية يحلل آيات وموضوعات السورة ليصل للوحدة الموضوعية.

٣- **الاختلاف في حدود الدراسة:** فالدراسات الموضوعية تشمل الموضوع الواحد في السورة أو القرآن، والوحدة الموضوعية تتعلق بدراسة موضوع السورة فقط.

---

(١) القول بهدف أو موضوع للسورة، لا ينفي وجود أهداف أخرى أو موضوعات كذلك، وهذا سر من أسرار البيان القرآني لا يوجد مثله في كلام البشر، وقد أشار الشاطبي إلى شيء من هذا في كتابه الموافقات (٣/، ٤١٦، ٨٥٦)، خاصة أن تحديد هدف السورة أو موضوعها أو موضوعاتها أمر اجتهادي تختلف فيه وجهات النظر، وهو من الموضوعات الدقيقة والصعبة المنال، لكن المهم أن يبرهن الباحث لقوله بأدلة مقنعة، وفق ضوابط البحث في التناسق الموضوعي، والوحدة الموضوعية الذي يبرز من خلاله الباحث للسورة شخصيتها المستقلة.

وقد أشار الرازي وابن تيمية وأبو جعفر الغرناطي والشاطبي والبقاعي وسيد قطب إلي شيء من هذا، وقد حاول الشيخ عبد الحميد الفراهيدي تطبيق ذلك في كتابه نظام القرآن الكريم.

ومن المؤلفات في هذا النوع من التفسير:

- تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام، د. إبراهيم الكيلاني.
- نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم، د. عبد المنعم الشفيع.
- قضايا العقيدة في سورة «ق» كمال محمد عيسى.
- قضايا المرأة في سورة النساء، د. محمد يوسف.
- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمد غريب.

خامسًا: أهمية التفسير الموضوعي:

وهذا النوع من الدراسة القرآنية له أهمية خاصة في العصر الحديث، لما له من مزايا عديدة، من ذلك:

١- تنشيط همة الباحثين حول القرآن الكريم، والبحث فيه برؤية حديثة تلبي حاجة كل أهل اختصاص، وتجعلهم يظهرون دلائل أعمق لما يهدي إليه النص القرآني في الموضوع المحدد الذي تتم دراسته ومعالجته.

٢- إبراز إعجاز القرآن الكريم على وجه يناسب عصر البحث؛ لأن الآيات كما هي معجزة مستقلة في موضوعها من السورة التي ذكرت فيها، فهي معجزة كذلك إذا جمعت مع نظائرها من آيات أخرى في الموضوع الواحد الذي تهدي إليه، بعد جمعها ودراستها والربط بينها تظهر للباحث كأنها نزلت لموضوع واحد تعالجه بصورة شاملة شافية.

٣- إثراء الدراسات القرآنية في الجوانب التي لم تجد حظها من الرعاية والاهتمام خاصة في جوانب العلوم التربوية، والاقتصادية والعسكرية والنظريات العلمية ونحو ذلك.

٤- دراسة موضوعات القرآن دراسة عميقة شاملة بصورة لا تتهيأ لو درس ذلك في أثناء التفسير التحليلي، والمقارن، والإجمالي؛ لأن تخصيص موضوع ما بالدراسة وجمع أطرافه يثري موضوعه بعمق وشمول.

٥- يسهم التفسير الموضوعي في معالجة موهم التعارض والاختلاف، والكشف عن عادات القرآن، وأساليبه الخاصة، من خلال جمعها والنظر إليها مجتمعة.

٦- معالجة بعض المفاهيم القاصرة والخاطئة التي وقع فيها بعض الأفراد بسبب الاقتصار على بعض الأدلة في معالجة الموضوع الواحد، مثل موقف القرآن في فقه التعامل مع غير المسلم من أهل الكتاب وغيره فيأخذ منها ما يريده ويدع ما لا يريد.

٧- تزويد المكتبة الإسلامية بأنواع من الدراسات التي تحتاجها الأمة من خلال ما يطرح من موضوعات قرآنية متكاملة ودقيقة وشافية نحو ملامح الشخصية القيادية في القرآن، البيت المسلم في ضوء القرآن الكريم، هدي القرآن في التعامل مع ذي القربى والأرحام، وغيرها من موضوعاتٍ الأمةُ في حاجة ماسة إليها.

سادسًا: أهم المؤلفات في التفسير الموضوعي(١):

المؤلفات في التفسير الموضوعي في العصر الحديث كثيرة من ذلك:

١. مباحث في التفسير الموضوعي، للأستاذ الدكتور مصطفى مسلم.

٢. التفسير الموضوعي للقرآن، للأستاذ الدكتور أحمد الكومي.

٣. المدخل للتفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد.

---

(١) وقد استفاد الباحث في كتابة هذا المطلب من عامة هذه الكتب بصور متنوعة.

٤. دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر عواضي الألمعي.

٥. التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، للأستاذ الدكتور زياد خليل الدغامين.

٦. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي.

٧. التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، للدكتور عبد الجليل عبد الرحيم.

٨. البداية في التفسير الموضوعي، للأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي.

٩. التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقًا، للدكتور أحمد رحماني.

١٠. التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، للأستاذ الدكتور زيد عمر عبد الله العيص.

الفصل الخامس: مداخل التفسير عند المفسرين ومنهج تناوله

المبحث الأول: اتجاهات مداخل التفسير عند المفسرين.

المبحث الثاني: المنهج الأمثل في تناول التفسير.

المبحث الأول

اتجاهات مداخل التفسير عند المفسرين

المطلب الأول: التفسير من خلال علم واحد من علوم التفسير.

المطلب الثاني: التفسير من خلال علوم متنوعة من علوم التفسير.

مدخل:

المتتبع لمسيرة التفسير من حيث النشأة والتطور بعد القرون المفضلة التي تكاملت عندهم آليات الفهم، يجد تطورًا ملموسًا في طرق التفسير واتجاهاته ومداخله وخطواته، حيث بدأ العلماء في التفسير ببيان المفردات والغريب والمعاني بالمأثور عن الصحابة والتابعين، ثم مناقشة المأثور والإضافة عليه، ثم توسع جانب الدراية شيئًا فشيئًا حسب مؤهلات كل مفسر وثقافته، ومؤثرات عصره، فأصبح في الغالب كل عالم يفسر القرآن بحسب العلم الذي برع فيه، حتى أخذ التفسير اتجاهات متباينة بسبب اهتمام كل مفسر وثقافته الفكرية والمذهبية والعقائدية، فالنحوي اهتم بجوانب الإعراب ووجوهه، والعقلي اهتم بأقوال الحكماء والفلاسفة، والشبه التي يثيرونها والرد عليها، والفقيه اهتم باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها، والتاريخي اهتم بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، وهكذا تباينت الاتجاهات وتنوعت.

كما اختلفت طرق التفسير واتجاهاته من مفسر لآخر بحسب اهتمام كل مفسر وأهدافه وثقافته، كذلك اختلفت أساليب التفسير والخطوات العملية في دراسة الآية أو السورة من مفسر لآخر من حيث مداخل التفسير وأولوياته، والتوازن في تناول عناصر التفسير، حسب نظرة كل مفسر للمداخل والأولويات التي يُدرس بها التفسير، مما جعل كل تفسير يتميز بمنهج خاص قلّ ما يتطابق مع غيره، وفي الغالب تجد من كتبوا عن مناهج المفسرين يلاحظون على كل مفسر تميزه في جوانب من هذه العناصر، وعدم استيعابه لبعض الجوانب الأخرى من خلال طريقته التي انتهجها في تفسيره. فبعد الاستقراء لكثير من التفاسير السابقة نجد أن جهود العلماء في كيفية دراسة الآية أو السورة في الجملة تنقسم من حيث المداخل إلى قسمين، وهما:

القسم الأول: علماء حاولوا تفسير القرآن الكريم من خلال علم واحد من علوم

التفسير، وهو المدخل الذي قصد المفسر خدمة علم التفسير من خلال دراسته.

والقسم الثاني: علماء فسروا القرآن من خلال علوم متنوعة ومداخل متباينة؛ ولكن زاد اهتمامهم بعلوم دون أخرى، وبمدخل دون آخر حسب ميول كل عالم وتخصصه، فإليك الحديث عن بيان كل قسم بشيء من التفصيل.

المطلب الأول

التفسير من خلال علم واحد من علوم التفسير

جعل بعض العلماء دراستهم في التفسير قائمة على علم واحد من علوم التفسير، كان هو مصدر اهتمامهم، وعليه تنبني دراستهم ومداخلهم في التفسير، كالكتب التي جعلت مدخلها في التفسير واهتمامها مُنْصَبًّا في دراسة غريب القرآن الكريم الذي يعتبر من أول علوم التفسير وأهمها وأكثرها تأليفًا، قال السيوطي رحمه الله: «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون»[1] مثال ذلك كتاب: تفسير غريب القرآن «لابن قتيبة، وكتاب «المفردات في غريب القرآن» لأبي القاسم بن الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، وكتاب «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» للشيخ أبي حيان الأندلسي، وكتاب «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» لأبي الفرج ابن الجوزي، وكتاب «تفسير غريب القرآن» لسراج الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسين بن أحمد المعروف بابن الملقن، وغيرها فهذه كتب في تفسير وشرح مفردات القرآن الكريم قلما تتعرض لغير بيان معاني المفردات.

ومنهم من جعل دراسته في التفسير متعلقة بفرع من فروع علم الألفاظ، وهي الكتب التي اختصت بدراسة الألفاظ القرآنية التي تعدد ذكرها في القرآن مع اختلاف معانيها بما يسمى بعلم الوجوه والنظائر، مثل كتاب: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي، والتصاريف: تفسير القرآن مما تشابهت أسماؤها وتنوعت معانيها ليحيى بن سلام، والأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها للثعالبي، والوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، وغيرها.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/٢٨٤).

ومنهم من جعل دراسته في التفسير مختصرة في المناسبات بين الآيات والسور، وكشف ما في ذلك من لطائف وأسرار لها أثرها العظيم في فهم المعنى والربط بين الموضوعات المتنوعة في السورة الواحدة وبين السور، مثل كتاب: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين البقاعي، وكتاب: البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، وكتاب: تناسق الدرر في تناسب السور، لجلال الدين السيوطي.

ومنهم من جعل مدخله وهمه مُنْصَبًّا في دراسة المعنى العام بدون تعرض للجوانب الأخرى إلا بصورة نادرة مثل كتاب "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزبدة التفسير، للأشقر، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف.

ومنهم من جعل مدخله وجهده في التفسير متوجهًا نحو الأسئلة والأجوبة التي تتعلق بغرائب آي التنزيل مثل كتاب تفسير الرازي المسمى بـ «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل» لمحمد بن أبي بكر الرازي حيث ذكر فيه ما يزيد عن ألف ومئتي سؤالًا في التفسير مع إجابتها مرتبة حسب سور القرآن الكريم، وكتاب «فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن» لشيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري وغيرها. وهكذا سار بعض العلماء فحاولوا أن يخدموا التفسير من خلال المدخل الذي سلكوه وأرادوا معالجته فقط دون التعرض للأوجه والمداخل الأخرى.

المطلب الثاني

التفسير من خلال علوم متنوعة من علوم التفسير

هنالك جهود للعلماء في تفسير القرآن الكريم اهتموا من خلالها بعلوم متنوعة من علوم التفسير حاولوا توظيفها في دراسة الآية أو السورة، ولكن هؤلاء العلماء تباينوا في مداخلهم للتفسير من خلال تلك العلوم، وفي حجم العناية بكل علم، وكيفية توظيفه، وفيما يقدم من مداخل التفسير وعلومه وما يؤخر في أثناء ممارسة دراسة الآية أو السورة، حسب ما انطبعت عليه شخصية كل مفسر وثقافته، والظروف التي أثرت عليه غالبًا، فنجد الزمخشري رحمه الله مع أن مدخله غالبًا في التفسير يبدأ بشرح الألفاظ وبيان معاني الكلمات ولكن كان همه متوجهًا نحو أسلوب الكلام وما اشتمل عليه من الجوانب البلاغية والدلالات الخفية التي يعرف من خلالها عظمة الكلام، وخصائصه التي تميزه عن غيره، مع تناوله لعلوم أخرى في التفسير.

وفخر الدين الرازي رحمه الله مع أن مدخله غالبًا ببيان مناسبة السورة مع غيرها أو الآيات بما قبلها [١]؛ ولكن نجد همه كان متجهًا نحو بيان أصول العقائد ومقارعة الزائغين، وإيراد أسئلتهم وإشكالاتهم والرد عليها، والاستطراد في العلوم الكونية والرياضية والفلسفية وعلم الكلام.

والقرطبي رحمه الله مع أن مدخله للتفسير حول النزول والفضائل كما يقول: «وأول مبدوء به الكلام في نزولها وفضلها وما جاء فيها، وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك» [٢]؛ ولكن كان همه إبراز الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات، مع اهتمامه بالعلوم الأخرى، قال في مقدمته: «وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار

---

(١) انظر مثال ذلك: بداية تفسيره لسورتي الفلق والناس، وكذلك في الربط بين الآيات في سورة البقرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/١٥٢).

المؤرخين؛ إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من النزول، والتفسير الغريب، والحكم، فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل هكذا إلى آخر الكتاب» [(١)].

وأبو حيان الأندلسي رحمه الله مع أن مدخله في التفسير دراسة الألفاظ حيث يقول: «وترتيبي في هذا الكتاب: أني أبتدئ أولًا بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب» [(٢)]؛ ولكن كان همه جوانب الإعراب وبيان وجوهه المحتملة.

ومحمد رشيد رضا رحمه الله في تفسيره المنار مع أنه جعل مدخله في التفسير بيان وقت نزول السورة، وذكر خلاصة عن مضمونها ووجه اتصالها بما قبلها[(٣)]؛ ولكن كان همه مُنْصَبًّا نحو معالجة الواقع، وبيان سنن الله تعالى في الخلق والاجتماع البشري، وأسباب رقي الأمم وتدنيها، وقوتها وضعفها، مع التعرض للفوائد التي تلبي حاجة العصر من خلال التفسير، وفي هذا يبين بأنه استطرد في « تحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس، وأستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير، لتدبر القرآن في نفسه، وفي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣).

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (١/١٠٣).

(٣) انظر: مقدمة تفسيره لسورة البقرة، وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها.

النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته)) [(١)].

وابن عاشـــور رحمه الله وإن كان مدخله بعد المقدمات التي تتعلق باســـم الســـورة وفضـلها وزمان نزولها يتكلم عن محتويات الســورة وأغراضـها؛ ولكن كان مع اهتمامه بجوانب البلاغة اهتمامه الكبير بالمناســـبات، فقد قال في مقدمة تفســـيره: ((وقد اهتممت في تفســـيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأســـاليب الاستعمال، واهتممت أيضـا ببيان تناسـب اتصـال الآي بعضـها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المســمى ((نظم الدرر في تناسـب الآي والسـور)) إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصـل القول تتطلع)) [(٢)]، وهكذا كان التباين بينهم في وجوه التفسير.

كما أن كيفية اختيار وتطبيق المداخل اختلفت من عالم لآخر، فمنهم من حدد طريقته ووصـف منهجه في مقدمته ثم حاول تطبيقه من خلال تفسيره قدر الإمكان، وهذا هو الغالب في كتب التفسير، وهنالك تفاسير لم تلتزم بطريقة واحدة في أسلوب التفســـير، خاصـــة تلك التي جمعت من دروس بعض العلماء، لأنها تأثرت بأحوال المســـتمعين، واختلاف الأحوال التي فســـر بها المفســـر، ومن هنا تنوعت المداخل التفسـيرية من موضـع لآخر، يقول الشـيخ محمد عبده رحمه الله: ((وعند قراءة التفسـير كنت أتكلم على حســـب حالة الحاضـــرين؛ لأنني لا أطالع عندما أقرأ لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هنالك وجه غريب في الإعراب أو كلمة غريبة في اللغة. فإذا حضـــرني جماعة من البلداء الخاملين الفكر أحُلُّ لهم المعنى بكلمات قليلة، وإذا

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/٨).

كان هنالك من ينتبه لما أقول ويلقي له بالًا يفتح عليّ بكلام كثير» [(١)].

كما أن هذه العلوم والمداخل التي استقرت اليوم في التفسير لم تجتمع كلها في عصر واحد؛ بل هنالك علوم تخوف العلماء من طرح بعضها في فترة من الفترات، ثم برز ذلك العلم والمدخل في عصر آخر، وأصبح له مكانته وأهميته كما نقل صاحب البرهان عن القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله قوله في «سراج المريدين» وهو يتحدث عن دراسة وجوه المناسبات في عصره فيقول: « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه» [(٢)]، وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني رحمه الله: «وهو أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزدري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة» [(٣)]، ثم جاء الرازي رحمه الله فأظهره في تفسيره، وبيَّن أن أكثر لطائف القرآن مودعة فيه، ثم جاء البقاعي رحمه الله فأفرده بالتأليف، وجعله علمًا بارزًا من علومه، ووجهًا من أوجه تفسيره، وما زال العلماء إلى يومنا هذا يكتشفون وجوهًا جديدة في التناسب حتى وصل الأمر إلى الاهتمام بالتناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ١٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٥).

(٣) المصدر السابق (١/٣٥).

وكذلك هذه العلوم والمداخل كما اختلف العلماء في اهتمامهم بها وتناولهم لها في تفاسيرهم اختلفوا وتباينوا فيما يقدم من علم وما يؤخر في دراسة المعنى، فمنهم من يقدم الفضائل ويجعلها المدخل للتفسير ومنهم من يؤخرها، قال الزركشي رحمه الله: ((جرت عادة المفسرين ممن ذكر فضائل القرآن أن يذكرها في أول كل سورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها إلا الزمخشري فإنه يذكرها في أواخرها))[1]،ومنهم من يبدأ بسبب النزول؛ لأن السبب مقدم عنده على المسبب، يقول الزركشي رحمه الله: ((قد جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول))[2]، ومنهم من يبدأ بالمناسبات؛ لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة عليه، ومنهم من يرى أن المفسر يبدأ بالألفاظ كما يقول السيوطي رحمه الله: ((يجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية))[3]، وهكذا فيما يليه في الدراسة تجد اختلافًا وتباينًا كبيرًا بين مفسر وآخر في أولويات المداخل وما يتبعها من خطوات الدراسة.

كما أن تلك الدراسات التي تمت من خلال بعض العلوم والمداخل لم تكن مستوفية للمطلوب أو متطابقة، حتى من درس التفسير من خلال علم أو مدخل واحد من مداخل التفسير لم يستوعب ذلك المدخل بكل مكوناته، فضلًا عمن درسه من مداخل متعددة ولم يستوعب عناصرَ وعلومًا مهمة في الدراسة، مثال ذلك: كتب المفردات تباينت فيما بينها بصورة كبيرة في كيفية الدراسة من حيث الترتيب، والمضمون، والطريقة، فمنهم من رتبها على حسب السور، ومنهم من رتبها على حسب حروف المعجم، ومنهم من يشير إلى الآية التي وردت فيها الكلمة، ومنهم من

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٢).

(٢) المصدر السابق (١/٣٤).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٨).

لم يشـر، ومنهم من يذكر الشـواهد واختلاف الآراء ومنهم من لم يذكرها، ومنهم من ينسـب الأقوال لقائليها ومنهم من لا ينسـبها، ومنهم من يتعرض لاختلاف القراءات المتواترة حتى أدخل القراءات غير المتواترة أحيانًا، ومنهم من لم يتعرض واكتفى بقراءة واحدة، ومنهم مختصـر مخل في اختيار الغريب، أو شـرحه بوجه واحد من أوجه معاني اللفظة، ومنهم مطول حتى أسـهب في شـرح المفردات، أو في الجمع والاسـتيعاب واستقصاء الأقوال، أو أدخل أمورًا ليست متعلقة بدراسة الألفاظ، ومنهم من جعل دراسـة الغريب فقط في غريب اللفظ، ومنهم من تناول غريب اللفظ والمعنى حتى تناولوا غريب الأسلوب والإعراب، وهكذا تجد التباين الكبير في الأسلوب الواحد من مصـنف لآخر، وتجد جوانب أخرى من التميز في كل كتاب، فكل كتاب تميز في الجوانب التي كانت هدفًا لمؤلفها، وأصـبح مرجعًا مهمًا في مجاله، ونقص في الجوانب الأخرى التي لم تكن مقصـدًا لمؤلفها ولا موضـع اهتمامه عند تأليفه، ولكن نجد أن هذه التفاسير بمجموعها استوعبت الكثير من علوم القرآن ومداخل تفسيره، والذي ينقصـها اليوم هو محاولة جمعها في مشـروع يكامل بينها، فإن جهود البشـر يكمل بعضها بعضا؛ خاصة في مجال علوم القرآن الذي لا يمكن أن يحيط أحد بعلومه حتى في الوجه الواحد، قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة»(١).

كما أن التباين بين العلماء في كيفية تناول مداخل التفسـير مع ما حققه من خدمة كبيرة للعلوم الشـرعية واللغوية من جهة؛ فقد كان من جهة أخرى عبئًا كبيرًا

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩).

على التفسير بسبب ما صحبته تلك الدراسات من توسع وتفريعات في جوانب ليس مكانها كتب التفسير؛ وإنما مكانها كتب الفقه واللغة والعقيدة وغيرها، فقد كان نتيجة هذا التوسع من بعض العلماء في طرح بعض العلوم والمداخل على حساب التفسير والمعنى الذي ينبغي أن يستقر في القلوب، فتجد النحوي توسع في مباحث الإعرابِ وما يحتملُه اللفظُ من وجوهٍ نحويةٍ حتى كأن القرآنَ نزلَ لهذا كما فعلَ أبو حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط». وتجد الفقيه توسع في استنباط الأحكامِ الشرعيةِ من عباداتٍ ومعاملاتٍ، ودخل في خلافات المذاهب، وإيراد الفروع الفقهية وفق مذهبه مع الرد على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي رحمه الله في «أحكام القرآن»، والقرطبي المالكي في «الجامع لأحكام القرآن» حتى أخذ التفسيرُ طابع الفقه، وكذلك التاريخي اهتم بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، كما فعل الثعلبي والخازن -رحمهما الله- حتى أخذ تفسيرهما طابع الروايات التاريخية، حتى أصبح هنالك عدم توازن في تناول العلوم والعناصر التي يتم من خلالهما دراسة التفسير، وأصبح ملحظًا يحتاج إلى دراسات لمعالجته. يقول الأستاذُ محمد رشيد رضا: «كان من سوءِ حظِّ المسلمين أن أكثرَ ما كُتبَ في التفسيرِ يشغلُ قارئَه عن هذهِ المقاصدِ العالية، والهداياتِ السامية، فمنها ما يشغلُه عن القرآنِ بمباحثِ الإعراب وقواعدِ النحو ونكتِ المعاني ومصطلحاتِ البيان، ومنها ما يصرفُه عنه بجدلِ المتكلمين، وتخريجاتِ الأصوليين، واستنباطاتِ الفقهاءِ المقلدين، وتأويلاتِ المتصوفين، وتعصبِ الفرقِ والمذاهبِ بعضُها على بعض، وبعضُها يلفته عنه بكثيرِ الروايات، وما مزجت به من خرافاتِ الإسرائيليات، وقد زادَ الرازيُّ صارفًا آخر عن القرآنِ هو ما يورده في تفسيرِهِ من العلومِ الرياضية والطبيعيةِ وغيرِها من العلومِ الحادثة في الملةِ على

ما كانت عليه في عهده))[١].

فهذا التباين الكبير في مداخل التفسـير وأولوياتها فيما يقدم ويؤخر من مداخل، وفي حجم العناية بكل مدخل، وفي كيفية توظيفه جعل الدارس اليوم والناهل من علم التفسير يبحث عن رؤية علمية مؤصلة يسير عليها في التفسير تراعى فيه الصورة المثلى لمداخل التفسـير من خلال علومه، وأولويات تلك المداخل والعلوم فيما يقدم وما يؤخر منها في دراسة الآية أو السورة للوصول إلى الهدايات، كقولنا على المفسر أن يبدأ بدراسة المفردات، ثم يتكلم عن المعنى العام، ثم يبين الأحكام وفق منهجية مرتبة حسب الأولويات، ومتوازنة بحيث لا يطغى فيها جانب على جانب، فهذا هو الذي هدفنا إلى معالجته من خلال المبحث القادم بإذن الله تعالى.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا (١/١٣).

المبحث الثاني
المنهج الأمثل في تناول التفسير

المطلب الأول: دراسة أسماء السورة وفضائلها وأسباب نزولها.

المطلب الثاني: الكشف عن مقاصد السورة وأغراضها وموضوعاتها.

المطلب الثالث: دراسة مفردات القرآن الكريم وغريبه.

المطلب الرابع: دراسة وجه التناسب بين الآيات.

المطلب الخامس: دراسة المعنى العام للآية أو السورة.

المطلب السادس: دراسة الأحكام الشرعية في الآية.

المطلب السابع: استنباط الفوائد واللطائف.

المطلب الثامن: دراسة خصائص الأسلوب وأوجه الإعجاز.

المطلب التاسع: ربط الواقع بهدايات القرآن الكريم.

المطلب العاشر: الأسئلة والإشكالات التفسيرية.

مدخل

بعد الاستقراء لجهود العلماء التي بذلت عبر التاريخ في كيفية تناول تفسير القرآن الكريم عبر مداخلهم المختلفة، وكيف تطورت تلك الجهود وتكاملت، وتنوعت توصل الباحث إلى عشرة عناصر إجمالية تمثل المنهج الأمثل في تناول التفسير من حيث المداخل في أولويتها وتسلسلها، وتكاملها، وتوازنها حتى يكون المفسر مستوعبًا لكل عناصر الدرس التفسيري، وتعين على فهم متجدد لمعاني القرآن الكريم الذي أمر الله العالمين بتدبره، لما فيها من معانٍ لا تنضب وحكم لا تنقضي، فإن هدايات القرآن كلما تدبرها العبد بدقة وشمول يجد العقل بغيته، والسقيم شفاءه، والضال هدايته.

وقد بينت باختصار كل عنصر ينبغي أن يتبع في الدراسة، وأهميته، وكيفية تطبيقه، مع ذكر نماذج تطبيقية له، مرتبة حسب الأولويات، في صورة أقرب إلى الاجمال في المطالب التالية حتى نعطي صورة كلية للموضوع، مع أن كل عنصر يحتاج أن يفرد بدراسة خاصة تستوعبه من كل الأوجه.

المطلب الأول

دراسةُ أسماءِ السورةِ وفضائلها وأسباب نزولها

هنالك ثلاث مقدمات درج العلماء على دراستها قبل الحديث عمَّا ورد في السورة من معان وأحكام، وهي دائمًا تأخذ أولوية متقدمة في الدراسات التفسيرية للسورة، وقلّما تجد من لم يقدمها ويبدأ بها في تفسير السورة، وهي تتلخص في ثلاثة أمور:

أولها: الحديث عن أسماء السورة: لقد اختصت كل سورة من القرآن باسم خاص[١]، أو بعدد من الأسماء تميزها عن غيرها، وقد يشترك عدد من السور في اسم واحد كالبقرة وآل عمران تسميان «الزهراوين»، والفلق والناس تسميان «المعوذتين»، وهي أسماء توقيفية ليس للاجتهاد في ذلك مجال، قال السيوطي رحمه الله: «وقد ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك»[٢].

وهي أسماء لها ارتباط وثيق بما دلت عليه السورة، أو ما حوته من معان وهدايات، وهي تترجم في الغالب عن مضمونها؛ ولذلك كانت أسماء السور موضع اهتمام العلماء في دراستهم للسورة؛ بل تعددت أسماء السور بحسب شرفها، فالفاتحة تعددت في أسمائها لشرفها وفضلها، وقد جاءت أسماؤها مرتبطة بمعانيها وأحكامها، وقد حاول العلماء الربط بين معاني السورة وأسمائها، مثال ذلك من أسماء سورة الفاتحة «أم القرآن» كما جاء عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(لاَ

---

(١) جمهور العلماء يرون أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفية عن النبي ﷺ، حيث جعل النبي ﷺ لكل سورة اسمًا خاصًا بها، والروايات الكثيرة تشير بذلك. انظر: أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة محمد ناصر الدوسري (ص:٧٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٦٦).

صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْتَرِئْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ)[(١)]، قال الطبري رحمه الله : ((وسمّيت ((أم القرآن)) لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأخُّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة... وإنما قيل لها -بكونها كذلك- أمَّ القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمرًا -أو مقدِّمٍ لأمر إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامع ((أمًّا))[(٢)]. وقال البيضاوي رحمه الله:((وتسمى أم القرآن؛ لأنها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساسا، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء))[(٣)].

ومن أسمائها ((القرآن العظيم)) كما جاء عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ)[(٤)]. قوله ﷺ عن الفاتحة:(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)[(٥)]. قال العلماء: وسميت ((القران العظيم)) لأنها أعظم سورة فيه، ولاشتمالها على مقاصده الأساسية، قال القرطبي: ((سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن؛ وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ح رقم ٩٠١.

(٢) جامع البيان في تأويل أي القرآن (١/١٠٧).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (١/٢).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ح رقم ٨٦٦٧، والنسائي في السنن الكبرى ح رقم ٤٣١٦، والترمذي ح رقم ٢٨٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ح رقم ٤١٢٤، والحاكم في المستدرك ح رقم ٢٥٨، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: فاتحة الكتاب ح رقم ٤٤٧٤.

والاعتراف بالعجز عن القيام بشـــيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصـراط المستقيم وكفاية أحوال الناكثين وعلى بيانه عاقبة الجاحدين»[١]، وقال السـيوطي رحمه الله: «وسميت بذلك لاشـتمالها على المعاني التي في القرآن»[٢]. وهكذا يحاول العلماء الربط بين أسماء السور ومضامينها، وهو موضوع يحتاج أن يفرد بالدراسة والبحث لبيان جهود العلماء في محاولة الربط بين أسماء السور ومضامينها.

ثانيها: ما صح في فضل الآية أو السورة: هنالك آيات وسور ورد فيها بعض الفضائل في أحاديث صحيحة على المفسر ذكرها والاستفادة منها في بيان معنى الآية أو السورة في موضعها، فمن عرف فضل سورة الفاتحة أو الإخلاص جد في حفظهما وفهمهما لما نالتاه من خصوصية، قال الزركشي رحمه الله: « قد جرت عادة المفسرين ممن ذكر الفضـائل أن يذكرها في أول كل سـورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها »[٣]، والعلماء دائمًا يحاولون الربط بين ما ورد من فضـائل ومعاني السـورة، مثال ذلك ما ورد عن فضل سورة الفاتحة كما جاء في حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: (أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)[٤]. قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «والمراد بالعِظَم عظم القدر بالثواب

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٤/٤١٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/١٣٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/٤٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب: فاتحة الكتاب ح رقم ٤٤٧٤.

المترتب على قراءتها؛ وإن كان غيرها أطول منها؛ وذلك لما اشتملت عليه من المعاني المناسبة لذلك))[١]، وقال القرطبي رحمه الله: ((والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة وهذا هو الحق))، وأن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة:١٦٣]، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودًا مثلًا في ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[المسد:١] وما كان مثلها))[٢].

ثالثها: ما صح في أسباب نزول السورة والآيات:

من العلوم المهمة للمفسر لفهم القرآن الكريم بصورة سليمة معرفة أسباب نزول السور والآيات، خاصة وأن نزول القرآن قد صحب بعض الأحداث المهمة موجهًا وهاديًا، فأصبح فهم بعض الآيات مرتبط بمعرفة أسباب نزولها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب))[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٥]، فقد يفهم الإنسان بدون معرفة سبب نزولها عدم وجوب استقبال القبلة للمصلي في سفر أو حضر؛ ولهذا قال الزركشي رحمه الله: ((فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها؛ وذلك أنها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجهت به، فعلم أن هذا هو المراد؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ ﴾[التغابن:١٤] فإن سبب نزولها: أن قوما أرادوا الخروج للجهاد فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فأنزل الله

---

(١) فتح الباري (٩/٥٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٠).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

تعالى هذه الآية، ثم أنزل في بقيتها ما يدل على الرحمة وترك المؤاخذة، فقال: ﴿ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾))[1].

كما أن معرفة سبب النزول يعالج ما يطرأ من إشكال في فهم بعض الآيات، ويضع الآية فيما نزلت من أجله بصورة صحيحة، كما جاء في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدْ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ۝١٨٧ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[آل عمران:١٨٧-١٨٨]))[2].

وكما فهم بعض الناس مفهوم التهلكة خطأ في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] لما جهلوا سبب نزولها، وهي نزلت في ترك النفقة، كما جاء عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنْ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ؛ وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩).

(٢) كتاب: التفسير، بَاب: (لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) ح رقم ٤٥٦٨.

وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ)[(١)].

كما أن معرفة سبب النزول يُرجح ويختار به بعض الأقوال الصحيحة في التفسير لأن القول الذي يتوافق مع سبب النزول يقدم على غيره؛ قال شيخ الإسلام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر: ٥٣] فتلك في حق التائبين ولهذا عم وأطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها[(٣)]))[(٢)]، والأمثلة كثيرة مبسوطة في كتب علوم القرآن وأسباب النزول. ولذا أكد العلماء عليه، وجعلوه من علوم التفسير المهمة المقدمة في فهم القرآن.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ح رقم ٢٩٧٢، وقَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غريب، وصححه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١).

(٣) المصدر السابق.

المطلب الثاني

الكشف عن مقاصد السورة وأغراضها وموضوعاتها[١]

الكشف عن مقاصد السورة وأغراضها والموضوعات التي تتناولها من المداخل المهمة والمفاتيح الأساسية في فهم السورة القرآنية؛ فعلى المفسر أن يستجمع معاني السورة للوصول إلى مقاصدها وأهدافها، وموضوعها البارز، ومحاورها المتعددة، فالسورة «مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل ببعض في القضية الواحدة»[٢]. فدراسة نظم السورة، ووحدتها الموضوعية من أعظم الأسباب المعينة على دقيق الفهم «فكلٌّ من غفل عن نظام الآيات أو تناولها تناولًا قاصرًا عابرًا لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن، ولا يمكنه أن يدرك ميزته التي تخصه من بين سائر أنواع الكلام»[٣]، ولذا قال ابن عاشور رحمه الله: «ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله»[٤].

ومقاصد السور يراد بها: الأهداف التي تتوجه نحوها آيات وموضوعات السورة وترجع إليها؛ فكل سورة في القرآن الكريم لها مقاصدها، وموضوعها البارز الذي في الغالب تدور حوله الآيات والمعاني التي في السورة، فإذا عُلم مقاصد السورة، موضوعها، ومحاورها التي تشمل موضوعات السورة الأخرى؛ سهل فهم السورة

---

(١) هذا المحور من حيث الدراسة يؤخره العلماء لحين استيفاء معاني السورة كما نصوا على ذلك، ومن حيث الكتابة والتأليف يقدمه العلماء بعد الحديث عن أسماء السورة وفضائلها وأحوال نزولها.

(٢) النبأ العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز (ص:١٩٩).

(٣) البرهان في نظم القرآن، محمد عناية الله أسد سبحاني (ص:٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٨).

وتفسيرها، وظهرت دلالات أخرى من المعاني لا يمكن الوصول إليها إذا درست الآيات مجردة عن مقاصد السورة وأغراضها وموضوعاتها. وهو من العلوم التي يعرف بها عظمة السورة ومكانتها؛ فعلى قدر مقاصد كلّ سورة تكون عظمتها، فالفاتحة أعظم سورة في القرآن؛ لأن مقصدها «تحقيق العبودية لله» وهو أعظم مقصود، ومن فهم محاورها سهل عليه فهم معانيها، حيث تدور في ثلاثة محاور: الأول في التعريف بالمعبود الحق ﷻ في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، والمحور الثاني: معرفة كيفية عبادته من الإخلاص والاستقامة على الصراط المستقيم الذين بهما يكون القبول، والاستعانة بالله التي بها يكون التوفيق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وأن المحور الأخير جاء في عاقبة من عبده ومن عصاه ممن أنعم الله عليهم وممن غضب عليهم في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

وهو علم لا يمكن التوصل إليه إلا بعد استيفاء دراسة آيات السورة، ومعرفة مناسباتها، وموضوعاتها، يقول الإمام الشاطبي ؒ: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»(١). فالسورة أحياناً تكون عدة صفحات في قصة معينة تحمل دلالات متنوعة لكنها تخلص في نهايتها إلى هدف محدد. وقد أفرد برهان الدين البقاعي هذا الموضوع بالدراسة في كتابه «مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ»، يمكن الرجوع إليه.

---

(١) الموافقات، الشاطبي (٣/٤١٥).

المطلب الثالث

دراسة مفردات القرآن الكريم وغريبه

علم مفردات القرآن وغريبه، هو العلم الذي يعتنى فيه بما يشكل من القرآن ويحتاج فهمه إلى شيء من العناء، وهو العلم الذي يبدأ به المفسر فهم كلام الله، ولا يمكن فهم المعاني الأولية في الآية بدون معرفته، فمن قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[المعارج:٣٦ – ٣٧]، فلا يمكن أن يفهم معنى هاتين الآيتين ما لم يعرف معنى ((مهطعين)) و((عزين))، ولأهميته وأثره كثرت فيه مصنفات فحول العلماء. قال الراغب الأصفهاني ﵀: ((إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه))[١]، وفي هذا يقول أبو حيان الأندلسي ﵀ في شرحه لمنهجه في تفسيره: ((وترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ أولًا بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لانظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ثم أشرع في تفسير الآية))[٢]، وقال السيوطي ﵀ وهو يتحدث عن العلم الذي يبدأ به المفسر فقال:((ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فيتكلم عليها من جهة اللغة ثم التصريف ثم الاشتقاق))[٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (١/١٠).

(٢) البحر المحيط (١/٥).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/٤٧).

وقد بين أبو حيان رحمه الله أهمية هذا العلم للمفسـر، وأن من عرفه فتح عليه باب التفسـير فقال: «ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسـن تركيبها وقبحه فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ولا معلم،وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه فلذلك اختلفت أفهامهم وتباينت أقوالهم»(١).

والمفسـر في دراسته لعلم المفردات ينبغي أن يسـير على المنهج القويم الذي رسمه العلماء لكل مفسر، فإذا جاء في معنى لفظة عن النبي ﷺ أو الصحابة معنى لا يعدل إلى غيره من أقوال أهل اللغة، فنجد ابن جرير الطبري رحمه الله وغيره إذا ذكروا تفسـيرًا للفظة يستشـهد على ذلك بما يرويه عن الصحابة والتابعين، وإذا رجع إلى أهل اللغة لابد أن يلاحظ المعنى المشـهور والأظهر والأفصـح في اللغة وأسـاليب العرب في الخطاب، ولذلك تجد المفسرين يستشـهدون بالشعر العربي ليثبتوا استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه، مع مراعاة موافقة المعنى المختار للسـياق الذي ورد فيه، لأن اللفظ قد يسـتعمل في معانٍ مختلفة يميزه السـياق الذي ورد فيه، وإذا اختلف المعنى الشـرعي والمعنى اللغوي فيقدم المعنى الشـرعي أولًا ويحمل عليه ما لم تقم قرينة تحمله على المعنى اللغوي، قال ابن تيمية رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺلم يحتج في ذلك إلى الاسـتدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم، ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ ﴾ [النساء:١٩] ونحو ذلك... فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول

---

(١) البحر المحيط (٦/١).

ﷺما يراد بها في كلام الله ورســـوله، وكذلك لفظ الخمر وغيرها، ومن هناك يعرف معناها، فلو أراد أحد أن يفســـرها بغير ما بينه النبيﷺ لم يقبل منه، وأما الكلام في اشـــتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام، وهو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا))[١].

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٨٧/٧).

المطلب الرابع

دراسة وجه التناسب بين الآيات

من العلوم المهمة المقدمة في دراسة التفسير التي تكشف للدارس الكثير من معاني القرآن ولطائفه وروائعه النظر في وجه التناسب بين الآيات سابقها ولاحقها، بل بين فقرات الآية الواحدة، فهو خير معين في فهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه استنباطًا، أو اختيارًا، أو ترجيحًا؛ ولذلك قال الزركشي رحمه الله: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[١]، وقال ابن القيم رحمه الله في بيان أهمية السياق في فهم المعنى: «السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير »[٢].

فالنظر في سياق الآية ومناسباتها لما قبلها وما بعدها من الأمور المهمة للمفسر « فمن خلاله يستعين على فهم المعنى، أو الترجيح بين الآراء في ضوء السياق، أو إزالة لبس أو إشكال، أو دفع إيهام، أو معرفة الحكمة من إيراد القصص القرآني، أو غير ذلك من الفوائد»[٣]، فهو خطوة مهمة للوصول إلى معاني الآية أو السورة، وإهماله يؤدي إلى دراسة تفسيرية يشوبها النقص والخلل.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٧).

(٢) بدائع الفوائد (٥/١١).

(٣) موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات (١/١٥).

وهو علم في الدراسة يقدم في الأصل حتى على سبب النزول، قال الزركشي: ((قد جرت عادة المفسِّرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه: أيهما أولى بالبداءة؟ أيُبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة لأنها المصحِّحة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول؟ قال: والتحقيق: التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفًا على سبب النزول كآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[النساء: ٥٨] فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك، فالأَوْلى تقديم وجه المناسبة))[١].

ودراسة علم المناسبات باب واسع بعضه متعلق بموضوع السورة، وبعضه بين اسم السورة وموضوعها أو موضوعاتها، أو فاتحة السورة لخاتمتها ونحو ذلك من الوجوه الكثيرة التي تكلم عنها العلماء؛ ولكن نحن هنا نتكلم عن الحد الذي لابد من دراسته في أثناء دراسة الآية، وهو التناسب بين الآيات الذي من خلالها يضبط فهم الألفاظ والمعاني والأحكام، وذلك لأن ((الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض، أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل))[٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٩).

المطلب الخامس

دراسة المعنى العام للآية أو السورة

إذا درس المفسر الألفاظ وفق السِّياق الذي وردت فيه، فإنه ينطلق إلى فهم المعنى العام للآية، وهو ما يسمى بالتفسير الاجمالي، ملتزمًا للمعنى المختار في دلالة الألفاظ، ويكون هدف المفسر الوصول للمعاني الكلية للآية بدون تفصيلات فيما يتعلق بالأحكام، أو ما يستنبط من الآية من فوائد، ولهذا عرف العلماء التفسير الاجمالي بقولهم: «هو التفسير الذي يكتفي المفسر فيه بعرض المعنى للآية أو الآيات عرضًا إجماليًا موجزًا دون توسع أو تفصيل»[1].

والمعنى العام للآية هو وجه من وجوه التفسير المهمة الذي مارسه العلماء في تفاسيرهم، كابن جرير وابن كثير، فكثيرًا ما يذكرون المعنى الاجمالي للآية، فنجد غالبًا ما يبدأ ابن جرير تفسيره بذكر المعنى العام فيقول: القول في تأويل قوله جل ثناؤه كذا وكذا ثم يذكر ما يؤيده مما ورد عن الصحابة والتابعين، ومنهم من جعله وجهًا لتفسيره، فبنى تفسيره على المعنى الاجمالي مثل: كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزبدة التفسير، لسليمان الأشقر، والتفسير الميسر لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة النبوية، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف. ومنهم من جعله وجهًا بارزًا ضمن الأوجه التي سلكها في تفسيره وأفرده بعنوان خاص، حيث اتبع دراسة المفردات ببيان المعنى العام قبل دراسة الأحكام كالجزائري في تفسيره «أيسر التفاسير»، ومثل التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم الذي نفذته جامعة الشارقة تحت إشراف مصطفى مسلم، والطنطاوي في تفسيره الوسيط.

---

(١) انظر: التفسير والتأويل في القرآن الكريم، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:١٣).

وأهمية هذا النوع من وجوه التفسير تكمن في عدة جوانب من ذلك: أنه يجعل معاني القرآن الكريم في متناول الجميع، وهو يبرز المعنى الأول الذي صيغت الألفاظ من أجله، قال الشاطبي ﷺ: «الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم؛ بناءً على أن العرب كانت عنايتها بالمعاني، وإنَّما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنَّما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضًا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهومًا دونه»[١]. كما هو يمثل الحد الأدنى المطلوب فهمه من خطاب القرآن الذي جعله الله للناس جميعًا، يقول الأستاذ محمد رشيد رضا ﷺ: «فالتفسير مراتب أدناها: أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير. وهذه التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد»[٢]، وهو يمهد لما يستتبع من دراسات تفصيلية للآية أو السورة للتدرج بالفهم حتى لطلاب العلم، يقول الشيخ سيد طنطاوي ﷺ في تفسيره: «هذا هو المعنى الإِجمالي للآيات الكريمة سقناه قبل تفصيل القول في تفسيرها حتى يتهيأ الذهن لفهمها بوضوح»[٣]، كما أنه يعطي خلاصة الآراء والأفكار وفق الراجح والمختار بدون تطويل أو دخول في تفاصيل وفرعيات، وهو من أنسب أوجه التفسير للترجمة، وعامة الناس.

فيكفي المسلم وهو يقرأ في مقدمة سورة البقرة أن يعلم أنها حوت خمسة أوصاف للمتقين تتلخص في الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والانفاق، والإيمان بالقرآن وما أنزله الله من كتب سابقة، مع اليقين بالآخرة، وأن الذين اجتمعت فيهم تلك

---

(١) الموافقات (٢/ ٣٩٦).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (١/٢٣).

(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي (١/١٣٩٨).



الصفات هم المتقون الذين منَّ الله عليهم بالهداية والفلاح في الدنيا والآخرة.

وفهم المعنى العام يسهل فهم القرآن للناس، ويسهل على كل مسلم معرفته إذا كان له علم باللسان الذي نزل عليه القرآن الكريم، ومن هنا اعتنى به العلماء وجعلوه وجهًا مهمًا من وجوه التفسير التي لها دورها وأثرها في فهم القرآن الكريم.

المطلب السادس

دراسة الأحكام[١] الشرعية في الآية

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول وأساس الهدى والرحمة، ومن أهم ما يجب على كل مسلم تعلمه وفهمه من كتاب الله تعالى تعلم أحكام دينه التي يُتَعبد الله تبارك بها، ومن هنا كانت دراسة وإبراز الأحكام الشرعية التي وردت في الآية دائمًا في أولويات المفسر فيما يقصده لنفسه ويقدمه للناس «ليعبدوا ربهم باعتقاد الحق، وبالعمل بما شرُع دون ما ابتُدع، مُزكّين نفوسهم بذلك مكملين آدابهم مهذبين أخلاقهم بما أودع الله جل جلاله كتابه من مناهج التربية الروحية والأخلاقية والآداب النفسية »[٢]، وهو وجه من أوجه التفسير التي لم يختلف العلماء في أهميته، بل اعتنوا به عناية خاصة في تفاسيرهم ابتداء من جامع البيان لابن جرير، إلى أضواء البيان للشنقيطي، ومنهم من جعله الوجه البارز في تفسيره، كما فعل القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن، ومنهم من أفرده بالتصنيف في مؤلفات خاصة جاءت تحمل مسمى أحكام القرآن، اهتم من خلالها العلماء بآيات الأحكام الشرعية المتعلقة بأحكام المكلفين، كأبي الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي الشافعي، وأبي بكر الرازي المعروف بالجصاص الحنفي، وأبي بكر بن العربي المالكي، وهي كتب تأثرت بمذاهب مؤلفيها، وهنالك كتب حديثة كتبت في دراسة آيات الأحكام عمومًا دون الالتزام بمذهب معين في تقرير الأحكام مثل: تفسير آيات الأحكام، للشيخ محمد على السايس، وروائع البيان بتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي الصابوني، وآيات الأحكام للشيخ محمد بن صالح العثيمين. وقد توسع هذا النوع من الدراسة

---

(١) يقصد الباحث بالأحكام عموم الأحكام " الأحكام الاعتقادية والفقهية والسلوكية والأخلاقية".

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري (١/٥).

حتى مثل اتجاهًا في التفسير، عرف بالتفسير الفقهي.

وهذا الوجه من التفسير تأثر في امتداده التاريخي بحركة الفقه وأصوله، فلم ينفك عن طريقة الفقهاء في تقرير واستنباط الأحكام، ولم يخل من شوائب التعصبات المذهبية التي شابت تلك الفترات، كما فيه استطرادات وتفريعات حرفت التفسير عن مساره، وذلك بدراسة مسائل ليس لها تعلق وارتباط بالآية بصورة مباشرة، وكثرت من خلاله الأقوال والخلافات المذهبية؛ حتى سمي بالتفسير المقارن، لأن الدارس يحتاج إلى معرفة كيفية التعامل مع هذا النوع من الخلافات التي لا بد أن يراعي فيها ضوابط الترجيح.

والمفسر وهو يدرس في أحكام القرآن لابد أن تكون له قدرة على الترجيح بين الأقوال المتعارضة، والموازنة بين الآراء المختلفة، لأنه لا يصح تفسير الآية بالقول المرجوح وترك الراجح، كما على المفسر أن يعرف كيف يجمع بين الأدلة المختلفة، وكيف يميز بين اختلاف التنوع والتضاد وفق ما قرره العلماء من منهجية في الدراسات المقارنة وساروا عليها في كتبهم؛ للتوصل للحق والصواب بأقصر الطرق بدون تعصب لمذهب أو شيخ أو طريقة وفق قواعد الترجيح أو الاختيار؛ لأنه جانب تأثر باختلاف مذاهب العلماء. قال الزركشي وهو يبين المنهجية التي تدرس بها الأقوال المختلف فيها ما ملخصه: «وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدًا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة؛ لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية فالحمل على الشرعية أولى إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في قوله تعالى ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[التوبة:١٠٣]، ولو كان في أحدهما عرفية والآخر

لغوية فالحمل على العرفية أولى؛ لأن الشـــرع ألزم، فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كـــ«القرء» للحيض والطهر اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه، وإن لم يظهر له شيء فهو يتخير في الحمل على أيهما شـــاء، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما»[١].

ومن هنا ظهر علم في الدراسات القرآنية يدرس ترجيحات واختيارات واســـتدراكات العلماء ويحكم من خلالها على المفســـر وقوته العلمية وتجرده للحق. وعلى المفسر عدم التوسع في المسائل الفقهية التي ليس لها ارتباط بالآية حتى لا نبعد عن دلالات النص القرآني وإخراج الدراسة عن روح التفسير، وإنما يقرر المفسر الرأي الراجح بأقصر الطرق وأيسرها كما هو نهج القرآن الكريم، والمنهج الذي سار عليه أئمة التفسير.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/١٦٦ـ ١٦٨)، هذا ملخص قوله.

المطلب السابع

استنباط الفوائد واللطائف

على المفسر بعد معرفة الأحكام الظاهرة أن يهتم باستنباط المعاني الخفية التي تحتاج إلى نظر واجتهاد قد تخفى على غير مستنبطها، مع معرفة أنواع الدلالة من تضمن، وإشارة، وإيماء، وغيرها؛ وذلك لأن علم الاستنباط علم يهتم بالمعاني والهدايات التي لا تظهر لغير المفسر «ومَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَوْضُوعِ اللَّفْظِ وَعُمُومِهِ أَوْ خُصُوصِهِ، فَإِنَّ هَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا هَذَا فَهْمُ لَوَازِمِ الْمَعْنَى وَنَظَائِرِهِ، وَمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ، وَمَعْرِفَةِ حُدُودِ كَلَامِهِ، بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ فِيهَا غَيْرُ الْمُرَادِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ الْمُرَادِ»(١)، وهو علم عظيم ومهم؛ خص الله تعالى به العلماء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[النساء: ٨٣]، فهو علم يزيد من وجوه المعنى، ويضاعف في معرفة هدايات الآيات، ويكشف المزيد من أسرار هذا الكتاب التي لا تنقضي، ويظهر جماليته التي لا تنتهي، خاصة الفوائد التي لها تعلق بالحكم، أو تعمق فهم المسلم في عقيدته وعبادته وأخلاقه، فإن آيات القرآن ذات أفانين عميقة مترامية الأطراف، تنقطع فيها الطاقات، ولا تبلغ غورها الأفهام، فليس في المقدور استيفاء جميع أسرار هذا الكتاب المصون، الذي حوى من الحكم المكنونة الشيء العظيم؛ ولذا جعله العلماء آخر الكلام الذي ينتهي عنده حديثهم، ولا ينتهي نظرهم فيه، بل دائمًا يسألون الله المزيد فيه. يقول السيوطي رحمه الله: «ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (٣٠٧/١).

عليها من جهة اللغة، ثم التصريف، ثم الاشتقاق، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم الاستنباط، ثم الإشارات»[١].

وينبغي أن يراعى في المعنى المستنبط عدم معارضته لأدلة الشرع، أو اللغة، ويكون له ارتباط بالنص القرآني، فلا يكون هنالك تكلف فيما ليس له ارتباط بالنص ولو كان المعنى المذكور صحيحًا فإنه يرفضه؛ لأن في ذلك خطأ في الاستدلال[٢]، وكذلك يكون فيما للرأي فيه مجال، ليس مما استأثر الله بعلمه، وأن لا يكون مما يشتت الذهن أو يصرف عن العمل إلى الجدل، فمثل هذه الاستنباطات الأولى تركها، لأن مقصد التفسير الأول هو الهداية، كما سبق بيان هذا.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٤٧).

(٢) انظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم، للشيخ الدكتور/ فهد الوهبي (ص: ٢٦٨) لمزيد الفائدة.

المطلب الثامن

دراسة خصائص الأسلوب وأوجه الإعجاز

القرآن أنزله الله تعالى للهداية والإعجاز قال تعالى عن مقصد انزاله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ ﴾[البقرة:١٨٥]، فهو الآية والمعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق الرسالة مدى الدهر المسجل من خلاله عجز الخلق في الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٢٣-٢٤].

وهو معجز من حيث ألفاظه ومعانيه معًا، فأوجه إعجازه كثيرة، منها ما هو متمثل في كمال بلاغته، وروعة بيانه، وسعة دلالاته، وتفنن أسلوبه، ووفاء معانيه لحاجات البشرية، ومنها ما هو متعلق بصدق إخباره عن المغيبات ماضيةً وحاضرةً ومستقبلةً، ومنه ما هو متمثل في عدالة وشمولية وكمال تشريعاته، ومنه ما هو متعلق بمنهجه وعظم أثره في تربية وتزكية النفوس، وقوة حجته في إقناع العقول وهدايتها، بل نجد الإعجاز ماثلًا حتى في نظمه وترتيبه، وما فيه من تناسق وتناسب في الألفاظ والآيات والموضوعات قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]. قال فخر الدين الرازي رحمه الله في ختام تفسيره لسورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور» [(١)]. وغير

---

(١) مفاتيح الغيب، أبو عبد الله الرازي (٤/٦٧).

ذلك من أوجه الإعجاز الأخرى التي تفيض في كل جوانبها بالجلال والجمال، وتشهد بعجز الإنسان من الإتيان بمثله أبدا.

فعل المفسر أثناء دراسته وتفسيره لكلام الله تعالى أن لا يغفل عن إبراز وجوه إعجازه، وخصائص أسلوبه، لاحتوائهما على حِكَم وأسرار بديعة؛ فمن خلاله تظهر براهين الرسالة، وينفي عن كتاب الله الريب، ويرتقي المسلم في مدارج اليقين درجات؛ ويتعمق نظره للقرآن الكريم، وكيف أحكمت آياته، واستقامت معانيه، وتوافقت هدايته، وتوسعت علومه بدرجة عجزت العقول من الإحاطة بها، وكيف سما في ألفاظه وأسلوبه وتفنن في روعة خطابه، وتناسب وتناسق في نظمه وترتيبه، وصدق بعضه بعضا بما ليس هو معتاد في كل كلام البشر. ومن هنا اهتم العلماء بهذا الوجه في التفسير، وأكدوا على أهميته، قال الزركشي رحمه الله: ((واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله))(١).

وقد جعله بعض العلماء من الدراسات المتأخرة؛ لأن أوجه الإعجاز كثيرة يصعب الإحاطة بها، وهم يريدون الوقوفَ على ما يستطيعونه عند دراسة الآيات، قال أبو حيان رحمه الله: ((ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفرادًا وتركيبًا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصًا))(٢)، كما أن هنالك أوجهًا من الإعجاز لا تظهر إلا من خلال استيفاء جميع السورة بالنظر، ((فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أنَّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلاَّ بعد كمال النَّظر في جميعها))(٣).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣٢٩/١).

(٢) البحر المحيط (٥،٦/١).

(٣) الموافقات للشاطبي (٣/ ٤١٥).

وإن إغفال هذا الجانب وعدم إدخاله واستصحابه ضمن التفسير أضعف من مكانة وجلالة القرآن في نفوس بعض المسلمين، وقلل من درجات اليقين، وهو وجه مهم حاول العلماء قديمًا وحديثًا إدخاله ضمن التفسير أمثال الزمخشري والرازي وأبي السعود وابن عاشور وغيرهم.

المطلب التاسع

ربط الواقع بهدايات القرآن الكريم

القرآن الكريم جاء لهداية الناس للتي هي أقوم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، في كل زمان ومكان؛ ولكن «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن»[(١)]. ولذلك كان من أعظم ما يقوم به المفسر ربط معاني القرآن بالواقع، والعمل على تنزيل قيمه على الحياة من خلال تفسيره، بما يحقق للأمة صلاحها ويعيد مجدها، ويكشف مخططات عدوها، وذلك من خلال الدعوة للعمل بهدايات القرآن الكريم، وتصحيح ما في الواقع من مفاهيم ونظريات خاطئة، وبيان ضلال الدعوات المنحرفة، ويعالج الصفات والعادات الذميمة التي عالجها القرآن، ويؤكد على طرق النهوض بالأمة التي أبرزها القرآن، ويكشف عن أسباب الضعف والخلل، وسنن التمكين والتخلف، ويرد على الشبه المثارة حول تعاليم القرآن الكريم وأحكامه، ويبرز العلاج لمشكلات الواقع المتنوعة، وهو مما يسهل فهم القرآن للناس ويحببه إليهم، فإن أمتنا اليوم تعيش فتنًا متلاحقة، ومشكلات معقدة أصبح الحليم فيها حيران بسبب بعدها عن كتاب الله، مصدر الهدى ومورد الشفاء، فالواجب على علماء التفسير فحص قضايا أمتهم وفق هدايات القرآن، فهو كتاب نزل معايشًا ومعالجًا لقضايا الأمة في كل فتراتها، وهو سر من أسرار نزوله منجمًا، حيث عايش الأمة في سلمها وحربها، وفي مشاكلها الفردية والجماعية، فليس التفسير مجرد معانٍ تجمع، أو كلمات توضح، أو جمل تعرب؛ وإنما هو حكم وهدايات تستجمع لتستنير بها الأمة في مسيرتها، وتعالج به واقعها. فلابد أن يواكب التفسير

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٤٣).

روح عصره، ويعالج الكثير من قضايا الأمة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، بعيدًا عن الحلول المستوردة التي لا تتوافق مع هدي الكتاب المجيد، وهكذا كان الجيل الأول يتعامل مع القرآن وفهمه، بل ينبغي توظيف هدايات القرآن الكريم في تزكية العلوم الإنسانية كعلم التربية، والاجتماع، والنفس وغيرها، فنحن ندرس التفسير ليلبي حاجة عصرنا، ويسهم في إصلاح واقعنا، لا تفسيرًا لا يضيف لحياتنا جديدًا، وهذه تعتبر ميزة خاصة يتميز بها المفسر المصلح عن غيره.

فمهمة المفسر أن يصنع من خلال تفسيره آليات العلاج، وينزلها قوالب عمل تترجم المعاني في واقع الحياة، فنحن لا نريد قرآنًا يتلى في افتتاح المجالس تبركًا فحسب؛ وإنما نريد قرآنًا تفتتح المجالس والمحافل والمصانع والمدارس بهديه ونوره وتعاليمه، ولتحقق مقاصده ومبادئه وقيمه الأخلاقية.

إن انفصال المفسر عن واقعه وقضايا أمته ومتطلباتها خلال ممارسته للتفسير يجعل مهمته تنحصر في استنباط الحكم، وتجعله مقصرًا في جعل القرآن واقعًا معاشًا، أو شفاء لواقع عليل، فالقرآن عندما يحكي واقعًا لأمة فإنما يريد منا أن نعتبر وأن نأخذ بسنن النصر ونتجنب سنن الهلاك ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١].

فبعد التتبع والاستقراء لكثير من كتب التفسير وجدت كثيرًا من علماء التفسير قديمًا وحديثًا قد بذلوا جهودًا كبيرة لربط معاني القرآن بالواقع، وحاولوا أن يقدموا لأمتهم نصائح وتوجيهات وحلولًا من خلال تفاسيرهم، وحذروا من مخاطر مهلكة؛ وفتن قادمة؛ ولكن حجم هذا الاهتمام يختلف من عالم لآخر، كما اختلفت طريقة

كل عالم في محاولات الربط وطريقة التعبير في التأصيل أو الرد والتصدي للانحرافات الموجودة والشبه المثارة، مثال ذلك: عندما انتشر التعصب المذهبي، واستحكم الغزو الفكري في عالمنا الإسلامي، وصعد من وسائله، وحكمت القوانين الوضعية بدلًا عن الشريعة الإسلامية، ونشأت مناهج الحياة في بلاد المسلمين على أسس غير إسلامية، حاول بعض علماء التفسير تناول هذا الموضوع من خلال تفاسيرهم وتفنيد أفكارهم الضالة، ومواجهتهم، ووقاية المسلمين من شرورهم، يقول الشنقيطي ﵀: «اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عمَّ جُلَّ من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دهت المسلمين من مدة قرون عديدة. ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافية لأصل الإسلام، لأن الكفار إنما اجتاحوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام. ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصنا منيعا لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال، لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبي ﷺ والتحصن بسنته. ولذلك وجد الغزو الفكري طريقا إلى قلوب الناشئة من المسلمين، ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا... وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحورا في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا

على الباطل والتمويه كما هو معلوم»[1]، ويقول كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[الفرقان:٦٧]، بعد كلام طويل جميل: «ولا شكّ أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلًا بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمِا من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبيّ ﷺ، ومن المعلوم أن من يدّعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك، ولأنه لا دليل معه بل الأدلّة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند اللَّه تعالى»[2]، وقد جمعت عشرات الأمثلة ثم تركتها خشية الاطالة، وقد رأيت أنه موضوع يحتاج أن يفرد بعدد من الدراسات يبرز من خلال كل دراسة جهود كل مفسر في هذا المجال ما تميز به [3].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٧٨/٧).

(٢) المصدر السابق (١٩٩/٦).

(٣) وقد وقفت أخيرًا على رسالة علمية قيمة يمكن الاستفادة منها، فازت بجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، بعنوان" تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، دراسة وتطبيق " للشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر؛ وهي رسالة ماجستير نوقشت في قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى.

المطلب العاشر

الأسئلة والإشكالات التفسيرية

وهي طريقة من طرق البيان المشوقة التي استخدمها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان:٣٣] قال ابن كثير رحمه الله: « ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي: بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي: ولا يقولون قولا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم »[١]، فمنهج القرآن رد الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام، والإجابة على ما يطرأ من أسئلة وإشكالات.

وهي طريقة استخدمها علماء التفسير كثيرًا في تفاسيرهم منهم: الزمخشري، وابن العربي، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والسمين الحلبي، والألوسي والشنقيطي وغيرهم، وفائدتها تسهم في ترسيخ المعاني، وإزالة الإشكالات التي قد تطرأ بعد دراسة المعنى.

والمفسر يوفق من خلاله ما يطرح من تساؤلات وإشكالات بين معاني الآية أو السورة وما يطرأ من أسئلة وإشكالات لها أسباب كثيرة، فقد يكون سبب الإشكال متعلقًا بالسياق، مثال ذلك قول ابن العربي بعد تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[الطلاق:٤] «فإن قيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ المطلقات؛ لأنه فيهن ورد، وعلى ذكرهن انعطف. قلنا: عطفه على المطلقة لا يسقط عمومه، ويشهد له ما بيناه من الحكمة في إيجاب العدة من براءة الرحم، وأنها قد وجدت قطعا »[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٦/١٠٩).

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي (١/٤١٣).

وقد يكون سبب الإشكال ما دل عليه معنى الآية، يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[البقرة:١٤٤] ((يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني تحويل القبلة من بيت المقدس. فإن قيل: كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم؟ قيل عنه جوابان: أحدهما: أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا ﷺ نبي علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به. الثاني: أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم، فصاروا عالمين بجواز القبلة))[1]، وكقول ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] ((فإن قيل كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قلنا لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية))[2]، وكقول ابن الجوزي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[الناس:١] ((فإن قيل لم خص الناس هاهنا بأنه ربهم وهو رب كل شيء؟ فعنه جوابان: أحدهما: لأنهم معظمون متميزون على غيرهم. والثاني: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم أعلم أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم))[3].

وقد يكون سبب الإشكال بما يظهر من مخالفة بين المعنى والواقع، يقول البغوي رحمه الله: ((فإن قيل فما وجه قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:١٨٦]، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠] وقد يدعى كثيرا فلا يجيب؟ قلنا: اختلفوا في معنى الآيتين قيل: معنى الدعاء ههنا الطاعة، ومعنى الإجابة الثواب، وقيل: معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عامًا، تقديرهما: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ إن شئت، كما قال: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾[الأنعام:٤١] أو أجيب دعوة الداعي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/١٦١).

(٢) التفسير القيم، ابن القيم (١/ ١٣٣).

(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٩/ ٢٧٨).

إن وافق القضاء أو: أجيبه إن كانت الإجابة خيرا له أو أجيبه إن لم يسأل محالا»[١]، وكقول أبي حيان في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنعام:٢٧]، قال: «وأورد بعضهم هنا سؤالًا فقال: فإن قيل كيف يتمنون الرّد مع علمهم بتعذر حصوله؟ وأجاب بقوله: قلنا لعلهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل. والثاني: أن العلم بعدم الرد لا يمنع من الإرادة كقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[المائدة:٣٧]»[٢].

وقد يكون سبب الإشكال ما يظن من تعارض مع آية أخرى، أو حديث كقوله تعالى عن يوم بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩] مع قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾[آل عمران: ١٢٤]، قال ابن كثير ؒ: «فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية –على هذا القول– وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٩-١٠] فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى يَرْدَفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم»[٣]، وهذا الموضوع وجد عناية كبيرة عند علماء التفسير يحتاج أن يفرد برسائل علمية.

---

(١) معالم التنزيل، البغوي (١/٢٠٥).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٤/٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/١١٢).

الخاتمة:

فقد اشـــتمل هذا الكتاب على موضـــوعات مهمة من أبرزها بيان منزلة علم التفسير وأهميته، والحديث عن الصعوبات التي تواجه طلابه، وبيان أهم مصطلحات هذا العلم، ثم تضمن الكلام عن التفسير في القرون المفضلة، والطرق المثلى في فهم القرآن وتفسيره، ثم بيَّنَّا فيه فضل علوم القرآن الكريم، ومجالات توظيفها بصورة عامة، وكيفية توظيفها في دراسة التفسير بصورة خاصة، ثم تكلمنا عن اختلافات المفسرين، ومنهج التعامل معها، وعن أقســـام التفســـير، واتجاهاته، وأســـاليبه، ثم ختمنا هذه الدراســة بالحديث عن مداخل التفسير عند المفسرين، وبيان المنهج الأمثل في تناول التفســـير، وضـــم كل عنوان عدد من المطالب والنقاط، ومن خلال تلك الدراســـة الواسعة توصل الباحث لعدد من النتائج والتوصيات من ذلك:

أولًا: النتائج:

من خلال هذه الدراسة توصل الباحث للنتائج الآتية:

١- علم التفســـير هو أشـــرف العلوم على الإطلاق تعلمًا وتعليمًا؛ لأن القرآن الكريم مصــدرُ الهدى، وآيةُ الرسـالة، والعروة الوثقى للباحثين عن الفوز والنجاة، وهو من العلوم الواجب تعلمها، وأن هدي النبي ﷺ والســـلف الصـــالح مع القرآن الكريم كان قائما على فهم المعنى والعمل به، وأن قراءة القرآن بفهم وتدبر أفضل وأكمل من كثرة التلاوة بدون فهم وتدبر، وأن فهم القرآن وتدبره وفق المنهج الذي رسمه أهل العلم من أعظم الأســـباب العاصـــمة من مصـــائد الشـــيطان وخطواته، وهو المحقق للاســـتشـــفاء بهدي القرآن الكريم في معالجة ما تعانيه الأمة اليوم من علل وأمراض وأزمات ومشاكل، إلى غير ما ذكرنا من جوانب مهمة في الدلالة على أهمية تعلمه.

٢- هنالك صعوبات كثيرة تواجه دارس التفسير اليوم بعضها متعلق بالمصدر المفَسر، فهو كلام الله الذي أتمه صدقًا وعدلًا، وإحكامًا وحكمة، لا تنقضي عجائبه، ولا تحيط العقول بعلومه، والكلام فيه هو الرواية عن الله. وهنالك صعوبات بسبب ما كتب في التفسير عبر التاريخ من حيث تنوع الفرق والاتجاهات التي تناولت التفسير، حتى أصبحت كتبُ التفسير تضمُ كلَّ عقائدِ الأمة وأفكارِها من معتزلةٍ ورافضةٍ وأشاعرةٍ ومتصوفةٍ وغيرِهم، مع كثرة ما في مصادره من اختلافات، إضافة إلى ما حوته كتب التفسير من الأحاديث الموضوعة والضعيفة، والأقوال الشاذة، والأمور المنكرة، هذا مع اختلاف الأساليب التي كتبت بها كتب التفسير عبر القرون وغيرها. وهنالك صعوبات تتعلق بالمفَسِّر، لأن دراسة التفسير تحتاج إلى مؤهلات علمية وعملية عالية حتى يحسن التعامل مع كلام الله تعالى.

٣- دراسة التفسير تتطلب معرفة مصطلحات علم التفسير، وما يلحق بذلك من مصطلحات ثمَّ تفصليها في هذا البحث.

٤- التفسير في القرون المفضلة يمثل الأصل الذي قام عليه علم التفسير، وهو النواة لكل قاعدة انطلق منها العلماء في هذا العلم، فكل من يبحث في علم التفسير دون الرجوع إلى البيان النبوي، وما جاء عن أهل القرون المفضلة من الصحابة والتابعين فقد سلك الطريق المنحرف في فهم القرآن الكريم.

٥- هنالك خمسة طرق متفق عليها لفهم القرآن الكريم، وفق منهج سليم وأساس قويم، وقد فهم من خلالها أصحاب النبي ﷺ وخيار علماء الأمة القرآن الكريم، وهي بيان القرآن بالقرآن، ثم بيان القرآن بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم وفق لغة العرب، وطريقتان مختلف فيهما، وهما بيان القرآن بما ورد عن أهل الكتاب، ووفق الرأي والاجتهاد.

٦- تبين من خلال الاستقراء لمفردات علوم القرآن الكريم، أنَّ علومه خادمة للقرآن الكريم في سبع مجالات، يبرز من خلالها شرف هذا العلم وأهميته وأهدافه، ويحسن من معرفتها حسن توظيفها، فالأول: في مجال التعريف بعظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، والثاني: في مجال الإلمام بتاريخ القرآن الكريم، والثالث: في مجال الأداء اللفظي الصحيح للقرآن، والرابع: في مجال فهم القرآن وتدبره، والخامس: في مجال إعجازه، والسادس: في مجال الانتصار للقرآن، والسابع: في مجال المحافظة عليه كما أنزل.

٧- الوصول لمعاني القرآن بصورة سليمة تحتاج إلى علوم يحسن المفسر توظيفها بصورة مثلى، وهي تنقسم إلى قسمين من حيث التوظيف: أولها: علوم يوظفها بصورة دائمة في دراسة التفسير، وهي: البيان النبوي للقرآن، ومرويات الصحابة في التفسير، وأحوال نزول القرآن، وقواعد التفسير وأصوله، وعلوم اللغة العربية، ودلالات السياق، وعلم الاستنباط. وثانيها: علوم يوظفها المفسر عند توفر الحاجة إليها، وهي: علم القراءات، وفضائل الآيات والسور، والنسخ، وعلم المناسبات، وعلم الإعجاز.

٨- هنالك مسائل يجب أن تؤخذ في التفسير على حذر لكثرة ما فيها من مزالق واختلافات، وهي: العقيدة خاصة مسائل الصفات، الاختيارات والترجيحات، المرويات الإسرائيلية، التفسير العلمي، والتفسير الإشاري. وهنالك مسائل وأمور أخرى الأولى بالمفسر تجنبها في دراسة التفسير، حتى لا يقع في تحريف الكلم، أو يحرف التفسير عن مساره العلمي، وهي: الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الأقوال الشاذة والأفكار المنحرفة، المبهمات التي استأثر الله بعلمها، التأويلات الباطنية للقرآن، تفريعات العلوم ودلائلها.

٩- تميزت كتب التفسير بظاهرة تعدد الأقوال واختلافها في التفسير؛ ولذا لا بد لمن يقبل على علم التفسير من معرفة أنواع هذه الاختلافات، وأسبابها، وكيفية التعامل معها حتى يحسن التعامل مع أقوال المفسرين.

١٠- ينقسم التفسير إلى قسمين: تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي، وهذا الثاني أجازه العلماء بضوابط، والتفسير بالمأثور منه ما هو خالص فيه، ومنه ما فيه زيادة استنباط، وتوجيه للأقوال والآراء ومناقشتها والترجيح بينها، والتفسير بالرأي والاجتهاد لا ينفك عن المأثور في الجملة أيا كانت اتجاهاته، ولكل نوع أهميته وخصائصه ومؤلفاته.

١١- التفسير كما تنوع في مناهجه تنوع في اتجاهاته وأساليبه، وغالبًا ما يكون الاتجاه الذي سار فيه المفسر تبعًا للاتجاه العقدي، أو الفكري، أو الفقهي، ونحو ذلك، ومع تباين أساليب التفسير بين التحليلي، والاجمالي، والمقارن، والموضوعي إلا أن بينهما تداخل وترابط لا يستغني المفسر عن الأساليب الأخرى أثناء تفسيره بأسلوب منها.

١٢- المداخل التي درس من خلالها العلماء التفسير كثيرة ومتنوعة، وهي في جملتها تنقسم إلى قسمين: أحدهم: تفسير القرآن من خلال مدخل واحدٍ من مداخل التفسير، والآخر: تفسير القرآن من خلال مداخل متنوعة من علوم التفسير، والعلماء الذين فسروا القرآن من خلال مدخل واحد تباينوا فيما بينهم بصورة كبيرة في كيفية تناوله، كما تباين العلماء في تناول المداخل المتنوعة، وفيما يقدم ويؤخر من كل مداخل حسب ثقافة كل مفسر وميوله واهتمامه، وأهدافه التي أراد أن يخدمها من خلال تفسيره.

١٣- أن تفسير القرآن الكريم بصورة واسعة ينبغي أن يتم وفق الخطوات العشر الآتية: أن يبدأ مدخله للتفسير بدراسة أسماء السورة وفضائلها وأحوال نزولها، ثم يبين مقاصدها وأغراضها وموضوعاتها، ثم يدرس المفردات ومعاني الكلمات، ثم يبين المعنى العام، ثم يدرس وجه التناسب بين الآيات، ثم يدرس الأحكام، ثم يستنبط الفوائد والهدايات، ثم يبين أوجه الإعجاز، ثم يربط المعاني بواقع حياة الناس، ثم يدفع ما يظهر له من أسئلة أو استشكال له تعلق بالآية أو السورة.

ثانيًا: توصيات البحث:

من خلال تلك النتائج السابقة يوصي الباحث بما يلي:

١- التأكيد من خلال المنابر والدروس والمحاضرات ووسائل الإعلام وغيرها لكل تالٍ للقرآن أن يكون همه تدبر المعنى، وليس كثرة التلاوة بدون فهم وتدبر، وأن توقف تعلم القرآن عند تعلم الحروف خلل في الأمة يجب علاجه بكل الوسائل المتاحة.

٢- بذل الجهود التي تقلل من الصعوبات التي تتصل بمصادر التفسير، وذلك من خلال القيام بدراسات وتحقيقات دقيقة وفاحصة في الجهود السابقة المدونة في التفسير، وإبراز ما فيها من ايجابيات، وتجاوز ما فيها من سلبيات.

٣- مواصلة الجهود فيما يخدم أصول التفسير، وقواعد التفسير والترجيح والاستنباط بحيث تحرر القواعد، ومن قال بها، وأدلتها، وتطبيقات العلماء لها، مع التوسع في دراسة مصطلحات التفسير وعلوم القرآن.

٤- التصدي لكل الدعوات التي تنادي بتفسير جديد للنص القرآني يتم تجاوز هذه الأصول والقواعد التي وضعها العلماء لعلم التفسير، من خلال تحرير هذه الأصول ونشرها وبيان أهمية تطبيقها، وفضح عوج وعوار تلك المناهج والطرق

المنحرفة، والأفضل أن تتولى المؤسسات العلمية المتخصصة في خدمة القرآن وعلومه ذلك.

٦- إعادة النظر فيما يدرس في الجامعات والمعاهد العليا تحت مسمى أصول التفسير حتى تكون وفق المطلوب من حيث الموضوعات، وتحقق أهداف هذه المادة من حيث المحتوى.

٧ - توجيه مؤسسات التعليم والتربية والدعوة ووسائل الإعلام على تصميم وتنفيذ البرامج المكثفة التي تسهم في ربط الأمة بالقرآن الكريم؛ حتى يكون حاكمًا وموجهًا للحياة كلها، وفق الأصول والقواعد التي وضعها أهل العلم.

وفي الختام نسأل الله الكريم أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وقائدنا إلى الخير، وأن يرزقنا فهمه والعمل به، وأن ينفع بهذا الجهد كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة.

تم هذا العمل بفضل الله وتوفيقه ببلد الله الحرام مكة المكرمة

في أول شهر محرم ١٤٣٥هـ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

تمت الطبعة الثانية في آخر ذي الحجة من العام ١٤٤٠هـ

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن جرير الطبري ومنهجه في التفسير، للدكتور محمد بكر إسماعيل، ط: دار المنار، القاهرة، ط١: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣. اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف، ط: مكتبة دار التراث، القاهرة، ط: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٤. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، للأستاذ الدكتور / فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٥. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز البحوث والدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

٦. أحكام القرآن، لابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط: دار الفكر للطباعة، بيروت، بدون.

٧. اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره، للدكتور سعود بن عبد الله الفنيسان، ط: عالم الكتب بيروت، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨. اخلاق حملة القرآن، لأبي بكر محمد بن الحسين الاجريِّ، حققه وعلق عليه: للدكتور/ عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، ط: مكتبة الدَّار، المدينة المنورة، ط١: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٩. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للقاضي محمد بن محمد بن مصطفى المعروف بأبي السعود، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

١٠. إرواء الغليل وتخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، ط: المكتب الإسلامي، ط٢: ١٤٠٥هـ.

١١. أسباب نزول القرآن لأبي الحسن على بن أحمد الواحدي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م.

١٢. استدراكات السلف في التفسير خلال القرون الثلاثة الأولى دراسة نقدية مقارنة، لنايف بن سعيد بن جمعان الزهراني، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط١: ١٤٣٠هـ.

١٣. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ط: دار النشر: دار الجيل، بيروت، ط١: ١٤١٢، المحقق: علي محمد البجاوي.

١٤. أسد الغابة، لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بـ (ابن الأثير)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٥. أسماء سور القرآن وفضائلها، للدكتورة منيرة محمد ناصر الدوسري، ط: دار ابن الجوزي، الدمام ط١: ١٤٢٦هـ.

١٦. أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت.

١٧. أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، ط:دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٨. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط: دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

١٩. الأعلام، خير الـدين بن محمود بن محمـد بن علي بن فـارس، الزركلي الدمشقي، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ط١٣: ١٩٩٧م.

٢٠. إغاثة اللهفان من مصـائد الشيطان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: خـالد عبد اللطيف ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١: ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

٢١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضـاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط: دار صادر، بيروت، ط١: ٢٠٠١م.

٢٢. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، للشيخ أبو بكر جابر الجزائري، ط: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٣: ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

٢٣. بحر العلوم، نصـر بن محمد بن أحمد أبو الليث السـمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، ط: دار الفكر، بيروت، بدون

٢٤. البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، طبعة جديدة بعناية زهير جعيد، ط: دار الفكر، بيروت ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.

٢٥. بحوث في أصول التفسير ومناهجه، للأستاذ الدكتور: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط: مكتبة التوبة، الرياض، ط: ١٤١٦هـ.

٢٦. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، ط: مكتبة المعارف، بيروت.

٢٧. بدائع الفوائد، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، ط: دار عالم الفوائد، مكة، ط١/ ١٤٢٥هـ.

٢٨. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشـــي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط: دار المعرفة، بيروت، ط: ١٣٩١م.

٢٩. البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، للدكتور محمد عناية الله

أسد سحاني، ط: دار عمار، عمان، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٣٠. بصـــائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق الأستاذ محمد على النجار، ط: المكتبة العلمية، بيروت.

٣١. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحســيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضـــى، الزَّبيـدي، تحقيق: الترزي، وحجـازي، والطحـاوي، والعزباوي، ط: مطبعة حكومة الكويت، عام ١٣٩٦٥هـ.

٣٢. التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام أبي زكريا يحيي بن شـرف النووي، حققه وعلق عليه محمد الحجار، ط: دار البشـــائر الإســـلامية، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣٣. التحرير والتنوير للإمام محمد بن الطاهر عاشـور، ط: دار سـحنون، تونس، بدون.

٣٤. تـذكرة الحفـاظ، محمـد بن أحمـد بن عثمـان الـذهبي، دراســة وتحقيق: زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٥. التســهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤: سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٣٦. التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الســهيلي، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٣٧. التعريفات، لابي الحســن علي بن محمد بن علي الحســيني الجرجاني، وضـع حواشيه وفهارسه محمد باسل الّود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢: ٢٠٠٣م.

٣٨. التفسـير الصـحيح، موسـوعة الصـحيح الميسـور من التفسـير بالمأثور،

أ.د.حكمت بشير ياسين، ط: دار المآثر، المدينة النبوية، ط١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٩. التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أ.د.سليمان بن صالح القرعاوي، ط: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٤٠. تفسير القرآن الحكيم، المشهور بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢: ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ.

٤١. تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن كثير الدمشقي، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤٢. تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، ابن أبي حاتم. عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط٢: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠١م.

٤٣. تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله الزبير عبد الرحمن، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٣هـ.

٤٤. تفسير القرآن الكريم، سورة البقرة للعلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط١: ١٤٢٣هـ.

٤٥. التفسير القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، جمع وترتيب: الشيخ محمد أويس الندوي، حققه: محمد حامد الفقي، ط: دار العلوم الحديثة، بيروت.

٤٦. التفسير اللغوي للقرآن الكريم، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط١: ١٤٢٢هـ.

٤٧. التفسير المقارن دراسة تأصيلية، للدكتور مصطفى إبراهيم المشني، بحث علمي

منشــور في مجلة الشــريعة والقانون بالجامعة الأردنية، العدد الســادس والعشــرون، ربيع الأول ١٤٢٧هـ - إبريل ٢٠٠٦م

٤٨. التفســير الموضــوعي التأصــيل والتمثيل، للأســتاذ الدكتور: زيد عمر عبد الله العيص، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ط١: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٩. التفسـير الموضـوعي للقرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، للدكتور/ صـلاح عبد الفتاح الخالدي، ط: دار النفائس، عمان، الأردن، ط٢: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

٥٠. التفســير الموضــوعي ومنهجية البحث فيه للأســتاذ زياد خليل الدغامين، ط: دار عمان، عمان ط١: ١٤٢٨هـ.

٥١. التفسـير والتأويل في القرآن الكريم، د. صــلاح عبد الفتاح الخالدي، ط: دار النفائس، الأردن، ط: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٥٢. التفســير والمفســرون في العصــر الحديث، لعبد القادر محمد صــالح، ط: دار المعرفة، بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ -- ٢٠٠٣م.

٥٣. التفســير والمفســرون، الدكتور محمد حســين الذهبي، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٥٤. التفســـير ورجاله منهج تعليمي للمعاهد القرآنية، محمد محمود حور، ط: دار نور المكتبات، جدة، ط١: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٥٥. تنزيل الآيات على الواقع عند المفسـرين، د. عبد العزيز عبد الرحمن الضــامر، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٦. تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضـل العسـقلاني ا لشـافعي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م.

٥٧. تهذيب الكمال مع حواشـيه، أبو الحجاج يوسـف بن الزكي عبدالرحمن المزي،

المحقق: د. بشار عواد معروف.

٥٨. تهذيب اللغة، أبو المنصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١: ٢٠٠١م.

٥٩. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية ط: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، ط١: ١٤١٠هـ.

٦٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٦١. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، ط: إدارة المطبوعات القصيم، ط٢: ١٤٠٩هـ.

٦٢. التيسير في قواعد علم التفسير، للإمام محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي، ط: دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط١: ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٦٣. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، الناشر: دار الفكر، ط١: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م.

٦٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، ط: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٦٥. جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، الأبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري القرطبي، ط: إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون.

٦٦. الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: محمد إبراهيم الحناويِّ ومحمود حامد عثمان، ط: دار الحديث، القاهرة، ط: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٦٧. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السـامع، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ط: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣، تحقيق: د. محمود الطحان.

٦٨. الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١: ١٢٧١هـ — ١٩٥٢م.

٦٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤: ١٤٠٥هـ.

٧٠. الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ط: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

٧١. دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ (أو) مُوَافَقَةُ صَحِيْحِ المَنْقُوْلِ لِصَرِيْحِ المَعْقُوْلِ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: دار الكنوز الأدبية – الرياض، ١٣٩١هـ.

٧٢. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د. زاهر بن عواض الألمعي، ط١: ١٤٠٥هـ، بدون دار نشر.

٧٣. دراسات في التفسير الموضوعي للقص القرآني، أحمد بن محمد بن صالح جمال العمري، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٧٤. دراسات في علوم القرآن، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط: مكتبة التوبة، الرياض، ط٩: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧٥. دلائل النظام، لعبد الحميد الفراهي، ط: الدار الحميدية، الهند.

٧٦. دليل الكتب المطبوعة في الدراسات القرآنية، إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، ط١: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٧٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين

السيد محمود الألوسي، ضبطه وصححه على عبد الباري عطيَّة، ط: المكتبة العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧٨. الروضـة الندية شـرح متن في التجويد، للإمام العلامة المحقق الثقة، أبي الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشـهير بابن الجزري، تأليف: محمود بن محمد عبد المنعم بن عبد السلام العبد، بدون.

٧٩. زاد المسـير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: المكتب الإسـلامي، بيروت، ط٣: ١٤٠٤هـ.

٨٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها لمحمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٥هـ.

٨١. سـنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ط: إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.

٨٢. سـنن أبي داود لسـليمان بن الأشـعث أبو داود السـجستاني الأزدي، ط: المكتبة العصرية، بيروت، بدون.

٨٣. سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي ط: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون.

٨٤. سنن الدارقطني، على بن عمر الدار قطني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، بدون.

٨٥. السـنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسـين بن علي البيهقي، مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشـهير بابن التركماني، الناشـر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط١: ١٣٤٤هـ.

٨٦. سنن النسائي لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ط: دار البشائر الإسلامية، ط: ١٩٨٦م.

٨٧. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩: ١٤١٣هـ.

٨٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٩. شرح أصول أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق: د. أحمد بن سعد الغامدي، ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة.

٩٠. شرح السنة للإمام البغوي، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الارناؤط، ط: المكتب الإسلامي بيروت، ط٢: ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م.

٩١. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤١٠هـ.

٩٢. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ط: دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.

٩٣. الصَّاحبي في فقه اللغة وسننِ العربِ فِي كلامها، الشيخُ أبو الحسينِ أحمدُ بن فارِس، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ط١: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩٤. الصحاح في اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين - بيروت، ط٤: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

٩٥. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي،

ط: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٠هـ.

٩٦. صحيح مسلم بشرح النووي ليحيي بن شرف بن مري الحواربي النووي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠ م.

٩٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٠هـ.

٩٨. صحيح وضعيف الجامع وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢: ١٣٩٩هـ.

٩٩. صحيح وضعيف سنن أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني، ط: مكتبة المعارف، الرياض، ط١، بدون.

١٠٠. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ط: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١: ١٤٠٨هـ.

١٠١. طبقات الحفاظ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٠٣هـ.

١٠٢. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، ط: دار صادر، بيروت، ط١: ١٩٦٨ م، تحقيق: إحسان عباس.

١٠٣. غرر التبيان فيمن لم يسم في القرآن، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف عبد الجواد، ط: دار قتيبة، دمشق، ط١: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٠٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي بن عبد العزيز الشبل، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها الأستاذ محمد فؤاد

عبد الباقي، ط: دار السلام، الرياض، ط١: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٠٥. فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، ط: دار الوفاء، المنصورة، ط٢: ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٠٦. الفروق اللغوية، للحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: أبي عمرو عماد زكي، ط: المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ.

١٠٧. فصول في أصول التفسير، للدكتور مساعد الطيار، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط٣: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٠٨. فضائل القرآن، أبو عُبَيْد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهَرَوي، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، وقد صدر عن دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، ١٤٢٠ هـ.

١٠٩. فضائل القرآن، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين المحقق وتخريج: أبو إسحاق الحويني الأثري، ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١: ١٤١٦هـ.

١١٠. الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١١١. في ظلال القرآن، سيد قطب، ط: دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط١٧: ١٤١٢هـ.

١١٢. فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، ط: المكتبة التجارية، مصر، ط١: ١٣٥٦هـ.

١١٣. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد إبراهيم الفيروز أبادي،

ط: مكتبة دار الباز، مكة، ط١: ١٤٢٠هـ.

١١٤. القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، أ. د.محمد عمر بن سالم بازمول، ط: دار الفرقان، القاهرة ط١: ١٤٣١هـ- ٢٠٠٩م.

١١٥. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ط: دار القلم، دمشق، ط٢: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١١٦. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، للدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي، ط: دار القاسم، الرياض، ط٢: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١١٧. قواعد التفسير جمعًا ودراسة، خالد عثمان السبت، ط: دار عثمان بن عفان، الخبر، ط١: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١١٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ط: دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٩. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بالخازن، ط: دار الفكر بيروت، ط١: ١٣٩٩هـ.

١٢٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط ١: دار صادر، بيروت.

١٢١. مباحث في التفسير الموضوعي، أ. د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٢٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٩: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٢٣. مجلة المنبر، مجلة فكرية محكمة، تصدر عن هيئة علماء السودان، العدد (١٤) محرم ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٢٤. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، ط: دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٢٥. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميّة، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط:١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٢٦. محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٢٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ط١: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٢٨. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، ط: مكتبة لبنان . بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٢٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢: ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م.

١٣٠. المستدرك على الصحيحين للحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ط: دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

١٣١. مسند الإمام أحمد، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط: المكتب الإسلامي - بيروت، ط: ١٩٨٥م.

١٣٢. مشـــكل القرآن الكريم، لعبد الله بن حمد المنصـــور، ط: دار ابن الجوزي، الدمام، ط١: ١٤٢٦هـ.

١٣٣. مصـاعد النظر للإشـراف على مقاصـد السـور للبقاعي تحقيق: عبد السـميع محمد حسنين، ط: مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٨هـ.

١٣٤. مصـنف ابن أبي شـيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شـيبة الكوفي، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ط١: ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

١٣٥. معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحســـين بن مســـعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله نمر، ود. عثمان جمعة، وســـليمان مســـلم، ط: دار طيبة، الرياض، ط١: ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٣٦. المعجم الوسيط: لإبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ط: دار الدعوة، بدون.

١٣٧. معجم مصـطلحات علوم القرآن، للأسـتاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الشـايع، ط: دار التدمرية، ط١: ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١٣٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق وضـــبط: عبد الســـلام محمد هارون، ط: دار الجيل، بيروت، ط١: ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٣٩. معرفة القراء الكبار، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: بشـــار عوض، شعيب الأرناؤوط، وصالح مهدي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ.

١٤٠. مفـاتح تـدبر القرآن، د. خـالـد بن عبد الكريم اللاحم، ط: مطبعة ســـفير، الرياض، ط١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٤١. مفاتيح الغيب للإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشـــافعي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢١هـ -

٢٠٠٠ م.

١٤٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، للإمام ابن قيم الجوزية، ط: دار ابن حزم، بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٣. مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: سعيد الحام، ط: دار الفكر، بيروت، ط١: ١٩٩١م.

١٤٤. المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني، ط: دار المعرفة، بيروت، ط٣: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٤٥. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الجيل، بيروت، ط١: ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٤٦. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، للشيخ عبد الله بن يوسف الجديع، ط: مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ط١: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٤٧. مقدمة ابن خلدون، ط: دار المعرفة: بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

١٤٨. مقدمة في أصول التفسير، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١: ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

١٤٩. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزر قاني، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

١٥٠. المنتقى في علوم القرآن الكريم، د. طه عابدين طه، ط: دار الأندلس، حائل. السعودية، ط١: ١٤٢٨هـ.

١٥١. منجد المقرئين ومرشد الطالبين لأبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري، ط: دار

الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٥٢. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقق: د. محمد رشاد سالم، ط: مؤسسة قرطبة، ط١: ١٤٠٦هـ.

١٥٣. منهج الاستنباط من القرآن الكريم، للشيخ فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي، الناشر: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة، ط١: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٥٤. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللَّخمي الشاطبي، دراسة وتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، ط١: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٥٥. موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود، لم أقف إلا على هذه الطبعة التي لم يذكر مكانها ولا تاريخها ولا رقمها.

١٥٦. موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، أحمد بن محمد الشرقاوي، صدر هذا الكتاب آليا بواسطة الموسوعة الشاملة، المصدر: موقع شبكة مشكاة الإسلامية.

١٥٧. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لأبي جعفر محمد بن أحمد بن إسماعيل، المعروف بأبي جعفر النحاس، ط: المكتبة العصرية، بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٥٨. الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة بم نصر المقري، تحقيق: زهير شاويش، ومحمد كنعان، ط: المكتب الإسلامي بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ.

١٥٩. النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، اعتنى به وخرج أحاديث عبد الحميد

الدخاخني، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٦٠. النشر في القراءات العشر، لابي الخير محمد بن محمد الدمشقي، الشهير بابن الجزري، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ط٣: ٢٠٠٦م -١٤٢٧هـ.

١٦١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤١٥هـ.

١٦٢. النكت والعيون في تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ط١: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٦٣. نواسخ القرآن، عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، ط: المكتبة العصرية، بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٦٤. الوافي بالوفيات، الصلاح خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط: دار إحياء التراث، بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ.

١٦٥. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت.

فهرس الموضوعات